والمعظم: هو الذي عظمه الحق بأن رفعه على غيره، فصار عظيمًا في نفسه، معظمًا عند أهل أنسه، وأعظم المقامات قدرًا، وأتمها بدرًا، وأكملها شهودًا، وأعدلها وجودًا؛ المقام الذاتي الإحدى الذي تجليات أهله ذاتية، وإن تنزلوا اختيار التجليات الصفاتية، وأكمل أهل هذا المشهد تصورًا، وأجل أهله بهجة ونورًا، وأرفعهم منارًا، وأجمعهم أسوارًا صاحب الوقت في كل آن المتفرد به الحق في ذلك الزمان الجامع لما تفرق في أهل عصره بفضل سيده، وتوليه، ونصره، ويحتمل إرادة الجنس فيصدق التوسل بأهل كل مقام، فإن ما من مقام إلا وهو عظيم في نفسه، وبالنسبة لما تحته، ولما كان المقام الكمالي الجمعي الوسطي الإحدى بطلب الانفراد، وعدم الاستناد لغير المراد.

وهكذا كل ذي مقام لا بُدّ له من توحد العزيمة؛ لنيل المرام، ناسب أن يعطف على النائلين غايات الإحسان الذين طلقوا الأكوان، فله فاه من المؤلف اللسان بحول المنان، فقال:

وَمَنْ أَطْلَقُوا الأَكْوَانَ حِبِّي وَطَلَّقُوا الـ ... ـمَنَامَ وَلَمْ يَشْكُوا لِزَادٍ وَلَا ظَمَا

قال شارح: (وَمَنْ أَطْلَقُوا الأَكْوَانَ) أي: وأسألك، والذين (وَطَلَّقُوا) أي: تركوا وخلوا الأكوان من نظرهم، فلم يلتفتوا إليها، ولا عرجوا عليها؛ إذ الوقوف معها حجاب، والشغوف إليها قنع بالسراب عن الشراب، فحال من لم يعرفها طرفه، ولا وسعها ظرفه؛ بل أطلقها، وما قيد خوفًا من شغله بها أن يتقيد حال الشيء، أي: رأى جنيًا فقيده بنظره؛ إذ بالخاصية لا يمكنه التحول عن بصره مادام الإنسي متبعًا بصره إليه؛ إذ لا ينفك شبح صورته قائمًا بين يديه، غير أنه يبرز صورة أخرى، فمتى نظر إليها الآدمي ذهبت الأولى، وتبعتها الثانية قهرًا، فبمجرد رؤيته يصرف عنه العين؛ لتنمحق منه العين خوفًا من شغل البال بغير الكبير المتعال.

وربما أراد المؤلف أرباب المقامات من كمل الرجال الذين صارت في أيديهم ككرة أطفال، يتصرفون فيها كيف شاءوا بمشيئة ذي الجلال؛ ثم تركوها موكلين الوكيل عن أمره، وهذا مقام جليل.

ويحتمل أنه أراد أهل السير التاركين كل غير، إذ الوقوف مع الحادث حدث يجب التطهر منه بالغيبة عنه، وهو فقير مثلك طالب ممن لك بالتخلي عن غيره مطالب، وأهل

السلوك إلى ملك الملوك، يرون حال عثورهم على أسر الفناء، أن الأكوان هالكة زائلة فيطلقونها من أنظارهم؛ لأن رؤيتها حاجبة، عن الشهود حائلة، فإن ملاحظة العدم تحقق أن ليس لصاحبها في العرفان قدم، فلذا أطلقوها من شهودهم، فكانوا مطلقين ما قيدوه في جهالتهم، وأثبتوا له وجودًا من نفسه في دنى حالاتهم حبي.

و«الحِب» بكسر الحاء هو المحبوب، ولاشك أن المولى المطلوب محبوب لكل القلوب؛ إذ حبه مركوز في كل الطباع، مجبول في الجبلة، لا كالرسم والانطباع، لا ينفك عنه أحد، ولا يجد مخلصًا أبد الآبدين، ومن المحبين فيه من يحبه ببغض ما سواه.

ومنهم: المحب للكون وما حواه، يحب الله وهو أكمل، وأشرت لذا في «الألفية» بقولي: يحب مصنوعًا بحب الصانع لم يحتجب بقاطع ومانع، لذا أشار بعض من قد قدموا من أجل عين ألف عين تكرم، وطلقوا الطلاق في اللغة رفع القيد، وإطلاق، وتسريح بإحسان، وقيدوا المراد به هذا الهجر والترك وعدم المبالاة.

(المَنَام) في البيت تدوير، وهو كما في «التعاريف»: حالة طبيعية تتعطل منها القوى بسبب توفي البخارات إلى الدماغ، انتهى.

وقال الشعراني -قدس الله سرَّه الداني في ميزانه الذرية: واعلم أن حقيقة النوم أنه برزخ بين الحياة والموت من وجه واحد لا من الوجهين، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ:9]؛ يعني: راحة لكم؛ ولتألفوا حالكم في البرزخ بعد الموت، فإن حالكم فيه كالموت في الصورة، فالنائم لا حي ولا ميت، وله وجه للموت ووجه للحياة، فهو أخو الموت.

قال شيخنا ﷺ: ومحل النوم ما تحت فلك الكواكب ذلك القمر خاصة فالملك لا رؤيا له؛ لأن نشأته غير عنصرية، هذا حكم الدنيا، وأما في الآخرة فمكان الرؤيا ما تحت مقعر الكواكب الثابتة، ولذلك كان أهل النار ينامون في بعض الأوقات، نسأل الله العافية، انتهى.

وفي الحديث: «**النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة**»[1].

وفيه إشارة إلى ذم كثرة مفاسده الأخروية؛ بل والدنيوية، فإنه يورث الغفلة

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (4/ 183).

والشبهات، وفساد المزاج الطبيعي والنفساني، وكثرة البلغم والسود أو يضعف المعدة، وينتن الفم، ويولد دود القرح، ويضعف البصر والباه حتى لا يكون له داعية للجماع، ويفسد الماء وتورث الأمراض أكثر منه في الولد المتخلق من تلك النطفة حال تكوينه، ويضعف البصر هذا في النوم من غير وقت العصر والصبح أما فيهما فأعظم ضررا لأنه يفسد كيموس حكم عين المزاج المادي والصوري، ولا يمكن استقصاء مفاسده في العقل والنفس والروح، ومنها أنه يورث ضعف الحال بحكم الخاصة وعدم الإيمان بالبعث والنشور.

قال بعضهم: إياكم وكثرة النوم تبعا لما ترونه من بعض العارفين فإن لهم أحكاما خلافكم، فإن بعضهم يخلع الله تعالى عليه القوة على خلع نفسه عنه متى شاء، وسراحها إلى أي وجه شاء من غير ارتباط بعالم الخيال.

تنبيه: النوم بالنهار أكثر ضررا من النوم بالليل طبًا.

قال ابن سينا: النوم بالنهار رديء جدا وتركه لمن اعتاده أرديء، انتهى.

واعلم أن نوم العارفين من جملة أورادهم وعندهم كل نوم لا يصحبه الوحي لا يقول عليه وهذا الملتقى خيال، والنازل كذلك والوحي كذلك وثم من الوحي ما يكون خيالاً في حس على ذي حس ولا خيال لمن نزل به وقد يكون كتابة، ويقع كثيرا للأولياء كما جرى لأبي مدين الغوث لما خطر له فراق زوجته، وجد في ثوبه مكتوبا أمسك عليك زوجك، وبعضهم من لا يجده إلا بعد القيام من النوم مكتوبا في ورقة وهو أضعف الجماعة، وله ضروب آخر غير هذه وطرائق شتى، والمراد منه الإلهام المختص بالأولياء، ويطلق في عرف اللغة الوحي عليه كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:68]، وإذا نام العارف طاهر القلب من حب الدنيا ودنس الحقد والأوصاف الذميمة طاهر الظاهر تائبا من كل ذنب فإنه لا يدري أتعود روحه إلى هذا العالم أم تمسك على الهيئة المسنونة، فإن الله تعالى يكرمه غالبا ويفيده علوما لم تكن عنده.

وأما الأكابر فإن منامتهم لا تكاد تصح لئلا يقفوا عندها رحمة من الله بهم، والبعض من أرباب التحقيق ممن علم الله منهم عدم الوثوق والشفوق لا يختلف عليهم رؤاهم وإذا أكرموا فيها بكشف عن أمر جاء كفلق الصبح وإفادة علم كان حقًا ما حق

كل فتح.

وكذا قال أبو الحسن الشاذلي- قدس الله سره- الملي: لا توقظوني من وردي، فلهم في نومهم علوم يستفيدونها من ربهم وأسرار يشاهدونها، وقد أنشد الحاتمي قدس الله سره في أول الباب 99 في معرفة النوم وأسراره:

النوم جامع أمر ليس يجمعه غير المنام ففكر فيه واعتبر

إن الخيال له حكم وسلطنة على الوجودين من معنى ومن صور

وليس يدرك أو غير المنام ولا تبدو له صورة في حضرة السور

يختص بالصاد لا بالسين حضرته فهو المحيط بما في الغيب من صور

من لا يكيف بأبى النوم يحصر بالكيف والكم للتحديد بالعبر

ثم قال[1]: النوم حالة تنقل العبد من مشاهدة عالم الحس إلى عالم البرزخ، وهو أكمل العوالم لا أكمل منه، وهو أصل مصدر العالم، له الوجود الحقيقي، والتحكم في الأمور كلها بتجسد المعاني ويرد ما ليس قائمًا بنفسه، وما لا صورة له، يجعل له صورة ويرد الحال ممكنًا، ويتصرف في الوجود كيف يشاء، فإذا كان له هذا الإطلاق وهو خلق من مخلوقات الله، فما ظنك بالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلقه، وأعطاه هذه القوة، فكيف تريد أن يحكم على الله بالتقيد؟! وتقول: إن الله تعالى غير قادر على المحال، وتشهد من نفسك قدرة الخيال على المحال، والخيال خلق من خلق الله، ولا تشك فيما تراه من المعاني التي جسدها لك، وأراك أشخاصًا قائمة؛ فكذلك يأتي الله بأعمال بني آدم مع كونها أعراضًا صورًا قائمة توضع في الموازين؛ لإقامة القسط، ويؤتى بالموت؛ وهو نسبة لا عرض له بين، بل هو اقتران على وجه مخصوص بين اثنين؛ جسم، وروح، فيؤتى به في صورة كبش أملح، أو أبيض، يريد أنه في غاية الوضوح، فيعرف جميع الناس أنه الموت، وهذا محال مقدور، فأين حكم الله على العقل، وفساد تأويله؟ وكذلك في نعيم الجنات في فواكه ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:33] فيتناوله من لا علم له بجميله على فصول السنة، إن الفواكه

(1) في الفتوحات (3/ 277).

تنقضي بانقضاء زمانه، ثم تعود في السنة الأخرى، وفاكهة الجنة دائمة التكوين لا تنقطع، هذا مبلغ علمهم في هذه المسألة، هي عندنا كما قال الله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:33].

فإن الله تعالى جاعل لنا فيها رزقًا يسمى قطفًا وتناولاً، كما جعل لعالم الجن في العظام رزقًا، وما ترى ينقص من العظام شيء، ونحن بلا شك نأكل من فواكه الجنة قطفًا دانية مع كون الثمرة في مواضعها من الشجرة ما زال عينها؛ لأنها دار بقاء لما يتكون فيها، فهي دار تكوين، لا دار إعدام، وكذلك سوق الجنة يدخل في أي صورة شيئًا منها مع كوننا على صورتنا لا ينكرنا أحد من أهلها، ولا من معارفنا، ونحن نعلم أنَّا قد لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا على صورتنا عند معارفنا وعند نفوسنا فأين العقول؟! والمعقول هنا لا يعرف الله إلا الله؛ فاعتبروا، وأعقل عني لعقل قلد الفكر، ولما نزه الحق تعالى نفسه عن صفة النوم فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:255] أي: ما يعينه شهود البرزخ عن شهود عالم الحس من شهود عالم المعاني الخارجية عن المواد في حال عدم حصولها البرزخ وتحت حكمه، وقد يمنح الله بعض عباده هذا الإدراك مع كونه لا يتصف بأنه لا ينام؛ أعني: في حالة الدنيا ونشأتها، وأما في الآخرة فإنه لا ينام أهل الجنة في الجنة، ولا يغيب منهم شيء في العالم، بل كل عالم في مرتبته مشهود لهم مع كونهم غير متصفين بالنوم.

وقال في بعض آخر منها: واعلم أن الراحة والرحمة متعلقة في الجنة كلها، وإن كانت الرحمة ليست بأمر وجودي دائمًا، وإنما هي عبارة عن الأمر الذي يلتذ به المرحوم، وذلك هو الأمر الوجودي، فكل من في الجنة منعم، وكل ما فيها نعيم، فحركتهم ما فيها نصب، وأعمالهم ما فيها لغوب إلا راحة النوم؛ لأنهم ما ينامون فما عندهم من نعيم النوم شيء، فنعيم النوم هو الذي يتنعم به أهل النار خاصة، فراحة النوم محلها جهنم.

ثم قال: يقال: نام فلان فرأى كذا؛ أي: رأى مقلوبه وهو مان، أي: كذب في عرف العادة، فإن العلم ما هو لبن، والقرآن ما هو عسل، ولكن هكذا تراه، فإذا أكملت رأيته علمًا في حضرة المعنى في حال رؤيتك إياه لبنًا في عالم البرزخ وحضرته، وهو.. هو لا غيره، فتحقق ما أعلمناك به، فقد أرحناك بما ذكرناه راحة الأبد، وقد عرفناك بالإله المعرفة المطلوبة منا، وإذا تحققت ما أومأنا إليه في هذا الباب علمت ما جاء به الشرع في الكتاب

والسنة، قديمًا وحديثًا من النعوت الإلهية التي ترِدها العقول ببراهينها القاصرة عن هذا الإدراك، فمعرفة وجود الحق مدرك العقول من هي ما هي مفكرة وصاحبته دالات، ومعرفة ما هو الحق عليه في نفسه، هو ما أعطاه الوجود لكل إدراك في عالمه، فما ثم إلا حق ومصيب، فسبحان من طور الأطوار، وجعل في النوم حقيقة الليل والنهار، وأنزل الأحكام وشرعها على التفصيل لا على الإجمال ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

والنوم من أحكام الطبيعة في مولدات العناصر خاصة، والنشأة الآخرة ليست من مولدات العناصر؛ فنشأة الآخرة في الإنسان على غير مثال كما كانت نشأته في مولدات العناصر على غير مثال، فما ظهر من هو قلبه على غير مثال يعودون؛ يعني: في النشأة الآخرة على غير مثال أيضًا.

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:62]، إنها كانت على غير مثال سبق، واشحذ فؤادك، ووفر زادك، فإنك راحل عن نشأة أنت فيها وما أنت فيها والسلام، أي: أنت فيها نائم، وما أنت فيها مقيم، لحديث «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»(1)، و«**النوم أخو الموت فمن نام انتبه**»(2) لما نكون عليه في البرزخ.

قال الشيخ في الباب374: من أراد أن يعرف حاله بعد الموت فلينظر في حاله إذا نام، وبعد النوم، فالحضرة واحدة، وإنما ضرب الله لنا ذلك مثلاً، وكذلك ضرب اليقظة من النوم كالبعث من الموت لقوم يعقلون، انتهى.

وقال في موضع آخر منها: فإن الإنسان ينبغي له أن يكون في جميع أحواله كالمصلي على الجنازة، فلا يزال يشهد ذاته جنازة بين يدي ربه، ويصلي على الدوام في جميع الحالات على نفسه بكلام ربه دائمًا؛ فالمصلي داعٍ أبدًا، والمصلى عليه ميت، أو نائم أبدًا، فمن نام بنفسه فهو ميت، ومن نام بربه فهو نائم نومة العروس، والحق ينوب عنه، ولنا في هذا المعنى:

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 258).

(2) رواه البيهقي في الآداب (2/ 439) بنحوه.

يـــا نـــائمًا كـــم ذا الـــرقاد وأنـــت تدعـــى فانتـــبه

كـــان الإلـــه يقـــوم عـــنك بـــما دعـــي لـــوقت بـــه

لكـــن قلـــبك نـــائم عـــما دعـــاك فتنـــبه

في عـــالم الكـــون الـــذي يـــرديك مهـــما مـــت بـــه

فانظـــر لنفـــسك قـــبل ســـيرك إن زادك مـــشتبه

وقال في «حلية الإبدال»: والسهر سهران: سهر العين، وسهر القلب؛ فسهر القلب: انتباهه من نوم الغفلان؛ طلبًا للمشاهدات، وسهر العين: رغبة في بقاء المشاهدة في القلب؛ لطلب المسامرة، فإن العين إذا نامت بطل عمل القلب، وإن كان القلب غير نائم مع نوم العين فغايته السهر، استمرار على القلب خاصية للسالك والمحقق، غير أن المحقق في حاله زيادة تخلق رباني لا يعرفه السالك، وأما مقامه فمقام القيومية، ثم نازع من قال بعدم التخلق فيها وحقق، وأن الإنسان الكامل لا يبقى له في الحضرة الإلهية اسم لا وهو حامل له، انتهى.

وعنه ﷺ: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[1] قال المناوي رحمه الله تعالى: لأن النفوس الكاملة القدسية لا يضعف إدراكها بنوم العين، واستراحة البدن، ومن ثم كان إذا نام لم يوقظ؛ لأنه لا يدري ما هو فيه، ولا ينافيه يومه بالوادي عن الصبح؛ لأن رؤيتها وظيفة بصرية، انتهى.

وهذا كان ينام حتى [يستريح] ثم يقوم، فيصلي ولا يتوضأ؛ إذ من خصائصه ﷺ أن وضوءه لا ينقض بالنوم.

وعنه ﷺ: «**أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل، وضعف اليقين**»[2].

واعلم أن من السادة من لا يتطلب استيقاظًا ولا منامًا، لا أنه يشاهد فعل ربه به،

(1) رواه البخاري (3/ 1308).

(2) ذكره المتقي الهندي في الكنز (3/ 460).

فإن أنامه نام، وإن أقامه قام، وبعضهم من تدعوه بعض العوالم النورانية للمنام؛ ليدخل معها في عالمها حال تجرده عن هذا العالم، فلا يمكنه عدم إجابته، وربما إذا نومه، وقصد السهر جاءه، وأري منامًا فاستولى عليه وله قهر، وربما تطلب بعض العوالم مضاجعته في فراشه، وتبقى ذلك لأجل حظه وإنعاشه، وبعضهم من يشرب الماء الكثير ولا ينام لحرارة الفؤاد بالذكر والهيام.

وحكى هذا السيد محمد مراد النقشبندي الهمام عن الملا عبد الرحيم الكاملي المقدام، فقال: إن الملا عبد الرحيم يشرب الماء فوق العادة ولا ينام، وبعضهم من يتناوم وما به نوم؛ لأنه شاهد مطلوب فؤاده في خير ليلة أو يوم، وأنشد:

رأيـــت سرور قلبـــي في منامـــي فأحبـــبت الـــتقاعس والمـــناما

وله آداب كثيرة في كتب الحديث شهيرة عند إرادة النوم، والانتباه منه، ولمن رأى فيه منامًا كيف يصنع إذا كان فيمن لا يسر، وعلى من ذا يقصد؟ وغير ذلك.

وفي نسبة الطلاق للمنام استعارة مكنية ولم يشكوا بإشباع الواو قال في «التهذيب»: شكوت فلانًا أشكوه شكوًا، أو شكاية، وشكية، وشكاة إذا أخبرت عنه بسوء فعله، فهو مشكو، ومشكي والاسم الشكوى، انتهى.

ومنشؤها الضجر، والقلق من المشكو منه، فإذا ارتفعا ووقع التسليم لأمر الحكيم لم توقع الشكاية لزاد؛ أي: لأجل، فقد زاد لوجود اعتماد على الجواد، والزاد: الطعام يتخذ للسفر، تقول: زودته فتزود، والمزود: ما فيه الزاد، كذا في «التهذيب»، أي: لاشتغالهم عما سواه، أو لزهدهم فيه لما وصلوا إلى مقام الصمدانية، وعلم منه أنه تعالى المربي، لا الزاد، فتركوا الالتفات إليه، والاشتغال به كالمعتاد، ومتى أحسوا بداعية الجوع توجهوا لمليكهم، فخلق فيهم الشبع، وبلغهم المراد، وأنهم لما وصلوا بطريق الإرث لمرتبه «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[1] أعرضوا عنه.

ولما سأل سهيل بن عبد الله التستري عن القوت فقال: ذكر الحي الذي لا يموت، قالوا: نسألك عن قوت الأشباح، لا قوت الأرواح، قال: دعوا البيوت لبانيها، إن شاء

(1) رواه البخاري (6/ 2661).

عمرها، وإن شاء خربها.

وفي رواية عنه ذكرها الشيخ في باب الزكاة في «فتوحاته» قدس الله سره بإمداداته، قيل لسهل بن عبد الله: والقوت؟ قال: الله، قيل له: سألناك عن قوت الأشباح، قال: الله، فلما ألحوا عليه قال: ما لكم وما لها، دعوا الديار إلى مالكها، إن شاء عَمّرها، وإن شاء خربها، انتهى.

فمن تحقق بما تحقق به سهل ﷺ لم يطلب الزاد إلا ليوم المعاد، وهو المطلوب عند غير المحجوب، ولما سئل عن قوله: أنا حجة الله على المحققين ودليله، فقال: لأني أقسم قواي على سبعة أقسام، وأجوع حتى يبقى من السبعة قسم، فإن أخاف، وإن جاهدت إلى أن يذهب السابع أن أكون ساعيًا في إتلاف نفسي فآكل حتى يعود إلى ما ذهب مني، ثم أرجع إلى المجاهدة كالأول، أو ما هذا معناه، فاعترض المعترض عليه بتمييزه، وسلوكه أعدل محجة، وسلم له قوله: أنا حجة.

ومن الرجال من يقنع بأكل في الأربعين، ومنهم بالأكل إلى أربعين يومًا في وقعة ويصيرها من غير تلوين، ومنهم القانع بأكلة عن سنة، ويقول: من التين إلى الطين، ومنهم الذي لا يتميز عن الخلق لقوة التمكين، ومنهم المترفع عنه سنين؛ لوفور الحال واليقين، وخير زاد يعين، ما أزاد إليه النور المبين، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:197] أو خير ما أُلقي في القلب اليقين.

واعلم أن الزاد على أقسام: زاد روح، وهو مشاهدة السبوح، أو زاد قلوب، وهو معاينة المحبوب، وزاد أسرار، وهو مطالعات الأنوار، وزاد حواس، وهو مراقبة الأنفاس، وزاد أفكار، وهو كل المعاني الأبكار، وزاد عقول، وهو صحيح النقول، وزاد الظاهر، وهو شراب الطاهر، وزاد الباطن، وهو إيصال الحقوق للمواطن، والعارف الواجد الذي قلبه للأبد ساجد، لا يشكو فقر زاد، شغلاً بشهود المراد.

ولقد كان ﷺ يواصل، وينهى عن ذلك أصحابه، ويقول لهم: «**إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى**»[1] وفي رواية: «**إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**»[2] وفي أخرى: «**إن**

---

(1) رواه مسلم (2/ 774).

(2) رواه مسلم (3/ 173).

لي مطعمًا يطعمني، وساقيًا يسقيني»[1] حتى إذا شاهدوه أحيانًا يجدون في فمهم طعم الطعام لا يكيف ولا يمثل، ولذة شراب لا تحصل، وصفها فكر، ولا عقل لها يتوصل، وربما أحسوا بتدفق على الإحفال، سائل على الأطراف، وفي الظاهر لا شيء هناك، وكثيرًا ما يقع لهم ذلك في شهر الصيام على طريقة الإكرام، وهذا الإطعام علوم وأسرار إلهية، وإعلام تغني عن الشراب والطعام بمواردها العظام.

وأنشد العارف في هذا المقام لها أحاديث من ذكراك، تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد:

لها بوجهك نور تستضيء به ... وقت المسير وفي أعقابها حادي

إذا شكت من كلال السَّير أوعدها ... روح القدوم تنمحي عند ميعادي

«وَلَا ظَمَا»، الظمأ مقصور، وأصله مهموز؛ وهو شدة العطش.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ [طه:119] أي: لا تعطش، والعلة هنا ما تقدم في الزاد، وكل من شرب من زلال، والوصال لم يذق حرز لآل الانفصال، ومن الغني عن البيان كون الواصل لرتب العيان هو الريان، وعلامة ريان الفؤاد طلب الازدياد، والشرب فوق ما اعتاد، ومن وجد الري لديه فلا ظمأ عنده، إلا لما يجمعه عليه، وكل شارب مدام يرديه من هو فوقه في المقام؛ لوسع بحر الساقي، وضيق يد الشارب الراقي.

وفي التحقيق الأتم أن الظمأ للوصال، لا يزول، ولا يطفأ، ولا يطغى، وسلفت له الإشارة عند قولنا: إلهي ظمأونا إلى شرب حماك لا يخفى؛ إذ لو زال الظمأ لانقضى بطلبه وهو باقٍ هنا، وفي المنقلب فما دام الاحتياج فهو باق بغير لجاج، والظمأ على أقسام:

ظمأ اقتراب، وظمأ اغتراب، وظمأ وصال، وظمأ انفصال، وظمأ عوالم غيبية لمشاهدة عينية، وظمأ تجلي في مقام تدلي، وظمأ وجد وجود، وفقد موجود بشهود، وكل من طلب شيئًا فهو لوصاله ظامئ، ولا ينتهي بالعثور عليه شوقي النامي؛ إذ ما من مقام إلا ويتفتح فيه باب لغيره مما هو فوقه من مقامات تبدي العجاب، ولما كان ترك لذيذ الشراب، وشهي الزاد المستطاب، يؤذن بالاشتغال عن الأسباب بالمسبب الوهاب، وهو

(1) رواه ابن راهويه (2/ 463) بنحوه.

من مصححات الانتساب، وصاحبه مسلم القياد للأحباب، علق نفسه على الأبواب، معفرًا جده في رفيع ذلك التراب، لعزة هزة كشف نقاب احتجاب، عن شوامخ انتهاب والتهاب، فلذا ناسب أن يقول سامحه التواب.

وَمَنْ مَرَّغُوا لِلْخَدِّ فِي تُرْبِ أَرْضِكُمْ وَمَنْ بِالْهَوَى لِلسُّقْمِ فِي الْحَالِ أَسْقَمَا

قال الشارح: (وَمَنْ مَرَّغُوا) أي: وأسألك بقوم من الذل في حبكم مرغوا، أي: قلبوا، قال في «القاموس»: ومرغ الدابة في التراب، أي: قلبها، وتمرغ: تقلب... إلخ.

الخَدَّانِ، والخُدَّتانِ، بالضم ما جاوَزَ مُؤَخَّرَ العَيْنَيْنِ إلى مُنْتَهى الشَّدْقِ، أو اللَّذانِ يَكْتَنِفانِ الأَنْفَ عن يَمينٍ وشِمالٍ، أو من لَدُنِ المَحْجَرِ إلى اللَّحْيِ، مُذَكَّرٌ. والخَدُّ الطَّرِيقُ، والجَماعَةُ، والحُفْرَةُ المُسْتَطِيلَةُ في الأرضِ، كالخُدَّةِ، بالضم، والأُخْدودِ، انتهى[1].

وفي «الصحاح»: الخد في الوجه، وهما خدان، والخدة بالكسر؛ لأنها توضع تحت الخد، انتهى. وجمعه: خدود.

(فِي تُرْبِ) قال في «القاموس»: الترب، والتراب، والتربة، والتربا، والتيرب، والتورب، والتوارب، والتريب معلوم، وجمع التراب: أتربة، وتربان، ولم يسمع لسائرها بجمع، والتربة الأرض... إلخ.

(أَرْضِكُمْ) أي: الأرض المضافة إليكم إضافة تشريف، وهي المذكورة في آية: ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:97] وآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56] ويقال لهذه الأرض أرض الحقيقة؛ لأن فيها تظهر حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأرض العظمة؛ لأن فيها ظهرت عظمة الله تعالى، وأرض السمسمة؛ لأنها مخلوقة من بقية طينة آدم التي فضلت عنه، وعن النحلة، فكانت مقدار السمسمة، فمدها الله تعالى بقدرته حتى صار العرش، وما حواه بالنسبة إليها لو وضع فيها؛ كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض.

وألف الشيخ الإمام محيي الدين ابن العربي -قدس الله سرَّه- فيها كتابًا كبيرًا، وعقد لها بابًا في «فتوحاته» وهو الثامن، منحه الله رضًا كثيرًا.

---

(١) انظر: القاموس المحيط (خدن).

وقال في الباب [51][1] منها: وصل العبودية ذلة محضة خالصة ذاتية للعبد، لا يكلف العبد القيام فيها، فإنها عين ذاته، وإذا قام تحتها كان قيامه عبادة، ولا يقوم بها إلا من يسكن الأرض الإلهية الواسعة، التي تسع الحدوث والقدم، فتلك أرض الله من سكن فيها تحقق بعبادة الله تعالى، وإضافة الحق إليه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56]؛ يعني فيها ولي من عبدت، عبدت الله فيها من ثمان وعشرين وستمائة، ولهذه الأرض البقاء، ما هي الأرض التي تقبل التبديل، ولهذا جعلها مسكن عباده ومحل عبادته، والعبد لا يزال عبدًا أبدًا، فلا يزال في هذه الأرض أبدًا، وهي أرض معنوية معقولة غير محسوسة، وإن ظهرت في الحس فكظهور تجلي الحق في الصور، وتجلي المعاني، ولا تظهر المعاني في الصور الحسية إلا لقصور بعض النفوس عن إدراك ما ليس بمادة، وإذا كان متضلعًا من المعرفة بالله تعالى لم ير المعاني في مواد، ولا رأى المواد في غير نفسها فأدرك كل شيء في مشيئته كانت ما كانت، وهذا هو الإدراك الذي يعول عليه؛ لأنه بريء من التلبس، ولا يصح بوجه من الوجوه أن يشهد الإنسان محض عبوديته، ولا يقام في عبادته المحضة لا يخالفها لطهارة شيء من الربوبية التي تعطيه الصورة التي خلق عليها، فيكون عبدًا ربًا مالكًا مملوكًا مثل العامة سواء، غير أن الفارق بينه وبين العامة: أن للعامة اعتقاداً، ولعلماء الرسوم علم، ولهذه الطائفة شهود، وهذا العبد الممتزج الظاهر بالحقيقتين، وما يتخلص من هذا المزج إلا أهل العناية الذين يعمرون هذه الأرض الواسعة التي لا نهاية لها، وكل أرض سواها فمحدودة، ولهذا أربابها كثيرون، فإن لكل عبد فيها ملك يملكه، ويتصرف فيه، فلا يتعدى عليه غيره.

قلت: وربما يكون لملك كل عبد اسم يخصه؛ ليمتاز به عن غيره، وكما أخبرني بعض الكبراء عن أحد الفقراء أن له بها ملكًا واسعًا، وبرًا شاسعًا، يسمى سعد أباد؛ إذ هو سعة ماله نفاذ، وأخبر أن بها قصورًا شاهقة، ونهورًا دافقة، والماء يصعد بنفسه في كيزان تبر شفافة إلى تلك القصور من كل آفة، المقصورة عليّ إلا من دون مخافة، وقطع تلك الأرض الواسعة قد أخرجت أزهار ذات بهجة، كل قطعة منها في لون يبائل الآخر، كم فنيت على

(1) انظر الفتوحات (5/ 228).

حسن هاتيك الأشكال مهجة؟ قال: وجاء بعض الناس من أهل الأنفاس وطلب أن يقتطعه ذلك الفقير حصة من تلك الأرض التي لا يدرك لها طول من عرض، وامتنع من ذلك ولم يأذن له بنزول تلك المالك، فقلت له، فقيل: أخطأ في المنع أم هو به مصيب؟ فقال: بل أصاب؛ إذ لا يعطى العبد إلا ما له به نصيب، وقلت مشيرًا لهذا المنزل الرحيب، والمحل الخلي من المخلي، والنادي الخصيب:

وعهد بخيف لنا قد مضى ... بقلبي أمر الهوى قد مضا

وقد فاز بنور دمع خفا ... به خف أبعاد جمر الغضا

ولبي لداعيه قهرًا وما ... أطاق عما رأت قاض قضا

وأدى الأمانات إلى أهلها ... وبعد الأداء ما عليه قضا

ولما تهيأ لحي اللقا ... ونادوه هيا بشوق قضا

فاسقوه من ماء عين الحياة ... كأسًا دهاقًا فحاز الرضا

وقد رفعوا الحجب عند كماله ... رفعوا فوق نزل أضا

وفي سعد أباده قد غدا ... يسرح طرفًا بذاك الفضا

ويعجب من سير أحبابه ... على الريح تجري بسر القضا

بكيزان تبر يرى ما بها ... وأشجار در جناها قضا

ضفاها مقيم بلا رحلة ... زمان التصافي بها ما انقضا

وأسمع فيها الندا عندنا ... إلينا تدانى ولا يعرضا

فإنك يا مصطفى عندنا ... لسر لنا مصطفى مرتضا

فحر بها ذاك من فرحة ... بسجدة شكر وقد أجهضا

وصل إلهي على المصطفى ... وسلم ما العمر جهلاً مضا

وآل وصحب وأتباعهم مذا الدهر ما البرق قد أومضا

وما فاح عطر الحيا بكرة فنال الشفا فيه من أمرضا

ثم قال الشيخ ﷺ: وبنفس ما يملك منها ما يملكه كان مالكًا ما فيها، وهذه الأرض الواسعة هي المتصرفة في سكانها، الحاكمة عليهم بذاتها، وهي تجلي الربوبية، ومنصة المالك الحق، وفيها يرونه رؤية خاصة، وأما العامة فهي في جنة، وربها يقال: إن هذه الأرض جنة عدن، وبقية الجنان جزء منها، فتقع الرؤية فيها، فمن كان من أهل حيل بينه وبين الصورة التي خلق عليها، فكان عبدًا مخلصًا يشاهد الحق في غير ذاته؛ فالشهود له دائم، والحكم له لازم، وهؤلاء المسودون الوجه في الدنيا والآخرة؛ أي: الثابتون على حال؛ إذ هذا حكم السواد، إذ علمت ذلك فالرب رب، والعبد عبد، فلا تغالط ولا تخالط، انتهى.

وقال مشيرًا لهذه الأرض الثابتة الوجود دون تقدير وفرض:

إن تسليم الفتى قد سلمه من عقوبات وأمسى سلمه

وعلى صاحبه يبدو الضياء ثم يكسى من ثياب معلمه

وإذا انضم له وصف الرضا كتبه الرحمن فضلًا علمه

وبإحصاءٍ لأسماء سهت في جميع الأرض هذا حكمه

ويكشف الوصل حالاً قدمه وتجلي الذات نورًا عممه

وإذا استخلفه في ملكه ذا مقاليد البرايا سلمه

وله يدخل أرضًا اسمها بين أهل الله أرض السمسمه

ومتى ما حل فيها السناء نوعت يدري لها إذ ألهمه

وإذا شابها أدخله بين صحب والسوي قد أحرمه

ويريه غيرها من أحرف عاليات عن سواه معجمه

فـــتراه آونـــة يعـــرب عـــن سرهـــا جهـــرًا ووقـــتًا همهمـــه

وبـــه قـــي نحـــو صـــدر ضـــاربًا غالـــبًا حـــيث الـــتحلي أفحمـــه

لم يفـــارق قـــط عبديـــته لمـــح طـــرف وبـــذا قـــد قدمـــه

هكـــذا فلتعـــرف العـــارف يـــا طالـــب مـــنهج قـــوم قـــومه

ربـــنا صـــلي وســـلم كلـــما أســـلمت نفـــسي تـــسمى ملهمـــه

مـــع تحـــيات عـــلى خـــير الـــورى مـــن هـــواه للمعنـــى أعدمـــه

وعـــلى أل وصـــحب شرفـــوا أن لكـــل ربـــنا قـــد عظمـــه

وعـــلى الأتـــباع مـــا شـــكر سرى نحـــو حـــي الحـــي لمـــا أكـــرمه

أو شـــذا البكـــري في لـــيل الخفـــا إن تـــسليم الخفـــا قـــد ســـلمه

ويحق لمن دخل هذه الأرض أن يمرغ في ترابها الخد، ويعفر الوجه؛ إذ بحلوله فيها صار وجهًا من وجوه الحق، وأي وجه، وإن يتمسك بترابها، ويتمسك بأذيال أترابها، وأنشد بعض مراتبهم وأنشد:

غـــيري بحـــبل ســـواكم يتمـــسك وأنـــا الـــذي بـــترابكم تمـــسك

أضـــع الخـــدود عـــلى ممـــر نعـــالكم فكأننـــي بـــصعيدها أتـــبرك

بل المحب من يحبل تراب الكرام، عن أن يوطئ بالأقدام؛ للاحترام، وأنشدوا:

وَلَم يَـبقَ عِـندي للهَـوى غَـيرَ أَنَّنـي إِذا الـرَّكبُ مَـرّوا بي عَـلى الـدارِ أَشـهَقُ

أَصـونُ تُـرابَ الأَرضِ كانـوا حُلـولُها وَأَحـذَرُ مِـن مَـرّي عَلَـيها وَأُشـفِقُ

ولما كان أجل ما في الإنسان من حيث ظاهره؛ وجهه الذي يقع به المواجهة لعوالم الإحسان، والخد أعلا الوجه، المأمور بإكرامه في قول المقتفي عليه أزكى صلاة الله، وأزكى سلامه: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته» [1] وفي لفظ: «على صورة

(1) رواه مسلم (4/ 2017).

الرحمن» وفي رواية: «فإن ابن آدم على صورة الرحمن»[1] وفي أخرى: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن»[2].

وعنه ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الحسان، وكلها في «الجامع الكبير» الكبير الإحسان؛ فلهذا أراد العارف أن يتذلل بين يدي الولي الودود، وذكر تعفير الوجه، وإحناء العنق، وتمريغ الخدود.

ومن دعاء سيدي أحمد الرفاعي ﷺ ذي الفيض الممدود: اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك لفرط ذهم نواعم الخدود، ونكسوا رؤوسهم من الخجل، وجباههم للسجود ببركة صاحب اللواء المعقود، انتهى.

(وَمَنْ بِالْهَوَى): أي: وأسألك بالذي سبب ميل نفسه إليك، وإقفال قلبه عليك، فإن الهوى لغة ميل النفس إلى ما يلائمها، وإعراضها عما ينافرها، ويراد به عند الإطلاق مجرد الميل والمحبة، ويطلق أيضًا على العشق خاصة، وعلى إرادة النفس للسقم.

قال في «التهذيب»: السقام: المرض، والسقم، والسقم، وهم لغتان مثل حزن، وقد سقِم بالكسر يسقِم سقمًا فهو سقيم، وأسقمه الله، والمسقام: الكثير السقم، انتهى.

(فِي الحَالِ): أي في الوقت الذي جاء به، أو إن في بمعنى التاء؛ أي: بالحال الذي خص الله به الرجال أرباب الأحوال.

(أَسْقَمَا) أي: أمرض وأسقم المرض الذي لجسمه، أو روحه، أو سره عرض؛ سواء كان ذلك السقم سقم ذنوب، أو سقم شق جيوب، ورتق غيوب.

ومعنى أسقم السقم بالحال؛ أي: إفناؤه وإعدامه، وهذا أفضل على المعتنى به وإكرامه، فإنه لما قام به وصف الحب حتى أورثه القرب، وأذابه الهوى من الجوى، وألبسته الغرام حلة الأسقام، حتى صار من فرط السقم هباءة، وعاد لما أوحله الوجد حصنه، والخباء بعد ما أفناه عنه، واستخلصه منه، لو جاءه السقم لم يجده؛ لفنائه، ثم تمكن فغدا يسقم السقم

(1) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (1/ 268).

(2) رواه البخاري (2/ 902).

(3) رواه البخاري (2/ 902) بنحوه.

بدائه، وهذا من باب التصرف في المرض ورفعه عن نفسه وعن غيره إذا عرض.

وقد رأينا على هذا القدم رجالاً لهم هذا المقام، يجولون فيه مجالاً يحملون ثقل الأمراض عن أهل المهالك، ولا يؤثر في وجودهم بعناية شهودهم ذلك، وأحيانًا يظهر عليهم؛ لكن عن اختيار ولا اضطرار، ومن جملة الأسقام بل أجلها؛ الذنوب، وأمراض القلوب، ولهم التصرف فيها أيضًا، فضلًا من الحق وفيضًا، فإذا ورد عليهم واردها لم يجد له فيهم مساغًا، وربما حجبوا عنها فلم ترهم لانصباغهم بالنور انصباغًا، فيضعف وجودها نورهم، ويغشى شهودها حضورهم، وهؤلاء الرجال على أقدام أهل بدر، فلا تضرهم المعاصي؛ عناية من الله بهم، ورفعة قدر، فذنوبهم كالأطفال؛ لسبق المغفرة، فلا تؤثر فيهم بحال؛ للدلائل المسفرة، وقد ذكر الفارضي - قدس الله سره - الإعارة، وذكرًا صرح به في العبارة، فقال:

وَقُــلْ تَــرَكْتُ صريعــاً في دِيَــارِكُمُ حَــيّاً كَمَــيْتٍ يُعِــيرُ السُّقْمَ للسَّقَمِ

وقلت في المعنى:

ذاب الحــب والغــرام فأفنــى كــل كــلي حتــى بــه غــدت وهمــا

وبفــرط الــضياء لقــد صرت فــيه أكــسب الــسقم مــن سقامي سقما

وقلت:

وحــرمة العهــد والــتداني قــد كــان سقمي بالجــسم عــاني

والآن بالــسقم والــتغالي أرى أســقامي ولا تــراني

وقلت:

أفنيتنــي فــيك يــا حبيبــي عنــي وعــن منظــر العــياني

فلــو أتــاني رســول ســقم مــن شــدة المحــو لا يــراني

ولما توسل بأهل الانكسار، ومن بعدهم من الأخيار، وأراد أن يصفهم بأخص الأوصاف، فلم يكن أرفع من مقامات العبودية عند السادة الأشراف، فلذا فاه رجح الله

ميزان صفاه بقوله:

عَبِيدٌ وَلَكِنَّ الْمُلُوكَ عَبِيدُهُمْ وَعَبْدُهُمْ أَضْحَى لَهُ الْكَوْنُ خَادِمَا

قال الشارح: (عَبِيدٌ) جمع عبد، خبر مبتدأ محذوف تقديره هم؛ أي: هؤلاء الذين ذكروا عبيد، والتنكير للتعظيم؛ أي: عبيد، وأي عبيد استخلصوا فخلصوا من رق الغير؛ لحسن السير ومنه: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:279] أي: بحرب؛ أي: حرب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:77] وسلام عليه يوم ولد، وسلام على إبراهيم.

وعد في «الإتقان» من أسباب التنكير: إرادة الوحدة، وإرادة النوع، والتعظيم، والتنكير، والتحقير، والتقليل، انتهى.

(وَلَكِنَّ) حرف استدراك، وهي ثقيلة تعمل عمل إن؛ أي: ولكن هؤلاء العبيد ليسوا كغيرهم من عبيد الأجور، ولا كعبيد القصور والحور، بل هم عبيد اختصاص إذا صاحوا شياطين الأرض، وهم خصائص، وهم الذين هوان ذاك بيدهم، وهم الملوك؛ بل الملوك عبيدهم.

(الْمُلُوكَ) جمع ملك، اسم لكن؛ أي: لأنهم لما صححوا نسبتهم لمولاهم، وقاموا بحقوق العبودية لمن تولاهم؛ خدمتهم الأكوان، وأذعن لهم كل ذي سلطان، واحتمل الإطلاق ملوك الآخرة، والمقامات الفاخرة، فرب مخدوم خادم لمن هو فوقه، وربما أراد كل ذي سلطان؛ كالهوى، والنفس، والدنيا، والشيطان، فيستعبدهم الساري بصدق عبوديته للباري.

واعلم أن عبيد الاختصاص أحرار الباطن، لهم المزية على غيرهم في كل المواطن، إذا رفع الرافع أعلامهم، وتولى النافع إكرامهم وإعلامهم، فأهل الدنيا بهم يمطرون ويرزقون فينتفعون، وأهل المحشر إليهم يلتجئون؛ إذ فيهم يشفعون، وأهل الآخرة يحتاجونهم في طلب الرؤية، وفي الكثيب إليهم يجتمعون، فهم على الحقيقة القوم الذين بهم جلساؤهم لا يشقون ولا يتضعون، بل يرتفعون.

(وَعَبْدُهُمْ) أي: والحال أن عبد هؤلاء العبيد الباسطين ذراعي التوجه القلبي والقالب بالوصيد.

(أَضْحَى) أي: صار بحول الولي الحميد، (لَهُ الْكَوْنُ) من الفرش إلى العرش المجيد

(خَادِمًا) وهو واحد الخدم؛ غلامًا كان أو جارية؛ أي: لأنه لما انتسب لخدمة الحق على الحقيقة، وسلوكه أقوم منهج، وأعدل طريقة، واسقوه من خالص الشرب بأقداح القرب، وأدخلوه حظائر الإيناس، فاندرج في جملة الأكياس، أعرض عن اللون بقلبه وقالبه، راجيًا من ربه بلوغ مأربه، ومطالبه، مقبلاً على الكون في حالتي سلمه وحربه، راقيًا منبر التوحيد، يتلو حزب وروده على حزبه، مشربا ماء الصدق قلوب بشربه، فاتحًا أسماع استماعهم لدى أشرابه، وشربه غالبًا باب أطماعهم، معرفًا بجمعية اجتماعهم، جامعًا قلوبهم على الجامع، قامعًا لمن خالف أهل الذكر الجامع، ممدًا لهم بإمداد السلام، مدخلاً لهم باب السلام في دار السلام بسلام، فلما عاين الكون ما لديه، وما أنعم المنعم به عليه، توجه بالخدمة إليه، وقام قائمًا بأمر الله بين يديه، فهذا حال العبد لأولئك العبيد، فكيف بهم؟ نفعنا الله بهم، ومنحنا بهم التأييد.

ولما علم المؤلف أن لهم عند الله مزية وقدرًا أخذ يتوسل بهم؛ ليطلع التوسل في سماء قلبه من نورهم بدرًا، فقال: منحه الله بهم منحًا تظهر فجرًا، وتخفي من صاحبها إدعاء وفخرًا.

قال المصنف ﷺ:

إِلهِـي بِهِـمْ أَدْعُـوكَ يَـا سَـيِّدَ الْـوَرَى ... بِمَـنْ بِـتَجَلِّي القُـرْبِ يَـا حِـبَّ أَعْجَمَا

قال الشارح: (إِلهِي بِهِمْ) أي: لا بغيرهم؛ إذ تقديم الجار والمجرور يؤذن بالاختصاص.

(أَدْعُوكَ) أي: وأسألك، وأتضرع إليك، (يَا سَيِّدَ الْوَرَى) أي: يا مالك الخلق.

قال شارح «الدلائل» عند قول الماتن: اللهم إني أسألك بأنك مالكي، وسيدي، ومولاي.

وفي دعاء نبوي أخرجه الحاكم في «مستدركه»: «يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، يا من لا يؤاخذ بالجريرة، ولا يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، يا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المن، يا مبتدئ بالنعم قبل استحقاقها، يا ربنا وسيدنا، ويا مولانا، ويا

غاية رغبتنا، أسألك ألا تشوه خلقي بالنار»[1]، انتهى.

(بِمَنْ) أي: وأسألك بالذي تسبب (بِتَجَلِّي القُرْبِ) منك، (يَا حِبِّ) بكسر الحاء؛ أي: يا حبيبي، قال في «المختار»: والحِب الحبيب، انتهى.

(أَعْجَمَا) بفتح الهمزة؛ أي: أبهم حاله، وخفي مقاله، من أعجمت الكتاب خلاف قولك: أعربته، أو من أعجم الكتاب؛ إذ نقط فزال إعجامه؛ أي: إبهامه، فالمعنى على الأول لمن ثبت لدى القرب إبهامه لما علت أفهامه، وعز كلامه؛ إذ طنبت في أرض القرب خيامه، وعلى التأني بمن زال إبهامه مذ تيمت بتجلي القرب أفهامه، ويصح أن تكون بفتح الهمزة؛ أي: أعجم كلامه من أعجم فلان الكلام، ذهبت به إلى العجمة؛ غيرة على الأسرار أن تذاع لدى الأغيار، وإن كان من إعجام الحال فهو أيضًا وصف كمال؛ لأن ستر الأحوال من سمات المتمكنين من الرجال، أو على أنه مفعول لفعل محذوف هو: صار.

والمعنى: أسألك بمن صار بسبب تجلي القرآن أعجم؛ أي: في لسانه عجمة، والأعجم: هو الذي لا ينقح فلا يبين كلامه، وإن كان من العرب، وهو أيضًا الذي في لسانه عجمة، وإن أفصح بالعجمية، كذا في «التهذيب»، فالعارف من كل لسانه فلم يفصح عما حواه الجنان بيانه.

قيل لأبي يزيد البسطامي -قدس الله سره السَّامي: ما لنا لا نفهم كثيرًا مما تقول؟ قال: لأن الأخرس لا يفهم كلامه إلا أبوه؛ إذ العبارات قاصرة عن أداء ما يؤديه الكشف والذوق، فلهذا أعجم كلام أهل الله الآكلين لا من تحت الأرجل، بل من فوق، فلا يحسن التعبير عن هذه العلوم إلا بالإشارة، حتى بين أهل الخصوص فضلًا عن العموم.

قال سيدي محيي الدين قدس الله سره المكتوم في أول «فتوحاته» من علاقة العلوم اللدنية: أن عجمها العقول من حيث أفكارها، ولا يكاد أحد من غير أهلها يقبلها إلا بالتسليم لأهلها من غير ذوق وذلك؛ لأنها تأتي أهلها من طريق الكشف لا الفكر، وما تعود العلماء أخذ العلوم إلا من طريق أفكارهم، فإذا أتاهم علم من غير طريق مألوفة عندهم، انتهى.

واعلم أن أهل الله تعالى فيهم الأعلى والعالي، ولا بُدّ أن ينعجم حال الأعلى على من

(1) ذكره الحافظ في لسان الميزان (1/ 262).

دونه؛ لارتقائه المعالي، فإذا حدث بأمر ذاقه، أو شاهده، أنكر عليه من لم يكن وصل في حال سيره إليه.

ومن الرجال من يريد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ستره عن الكون وأهله، فيدلي عليه كنف ستره، ويرشفه في سره صرف نهله، فينعجم حاله على أهل الخصوص الأكابر الواقين درج أسرار النصوص، والصاعدين على تلك المنابر، فإذا اجتمع هذا المراد المستور مع أحد رجال الحضور، لم ير فيه شيئًا يدل على التقريب من القريب، ولا يكرف منه عرف أهل الحضرة السامي فوق كل طبيب، فتحكم عليه عند السؤال عنه أنه ليس له في مقام الولاية بحال، وربما ستر الحق أحوال هذا المستور من الرجال عن نفسه عناية أزلية، لا يتصورها فكر وخيال، وقد اتفق مثل هذا الحال للإمام الأكبري رفيع المنال فكان لا ينكر عليه أفراد زمانه؛ لعدم عبورهم على ما عثر عليه وأدركه بعناية؛ سيما لو وصل لمقام القربة الدالة على الفتوة الكامن بين مقام الصديقية الكبرى والنبوة.

ومن هنا تفهم قول بعض من بلغ شأن التحقيق: لا يصير الصديق صديقًا حتى يشهد فيه سبعون صديق بأنه زنديق، وسببه: انعجام الحال، وانبهام المقال، وهؤلاء الرجال هم الذين سترهم الحق عن أعين الخلق في الدنيا والآخرة، وألبسهم قباب النور خلف حجاب الأنس، فلا يعرفون ولا يعرفون، ومنهم الملامية الكرام الذين إنعجم حالهم، فلا فرق بينهم وبين العوام مع أنهم أعلا الفرق الإسلامية، لكن ستروا عن الخلق غيرة الإلهية، ولما توسل المؤلف بما قدر الحق أنه به يتوسل، وسبل ثوب الإعراض وللإقبال سبل، وعلم أن الدعاء لم يصبحه القبول، لا يعول عليه من لديه توسل؛ لأنه كبيت زنبور يشبه بيت النحل، لكن ما به عسل، فلذا قال حباه الله الجُد، وحماه من الكسل:

تَقَبَّلْ وَجُدْ وَاغْفُ وَسَامِحْ لِمُغْرَمٍ ... وَتُبْ وَتَحَنَّنْ يَا إِلهِي تَكَرُّمَا

قال الشارح: (تَقَبَّلْ) فعل دعاء، وكذلك ما عطف عليه، يقال: تقبله، وقبله قبولًا إذا رضيه، والمزيد من هذا الفعل أبلغ من المجرد، فلذلك آثره عليهم هنا، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران:37].

قال القاضي: يرضى بها في النذر مكان الذكر بقبول حسن، بوجه يقبل فيه النذاء، وهو إقامتها مقام الذكر، وتسليمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة.

ثم قال: ويجوز أن يكون مصدرًا على تقدير مضاف؛ أي: هذا على قبول حسن، وأن يكون تقبل بمعنى استقبل؛ كتقصى وتعجل؛ أي: فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن، انتهى.

وفي «المختار»: وتقبل الشيء وقَبله يقبله قَبولاً، بفتح القاف، وهو مصدر شاذ، يقال: إنه لا نظير له، وقد ذكرنا في «وضاء»: ويقال على فلان قبول إذا قبلته النفس، انتهى.

والمعنى: تقبل يا إلهي ابتهالي، وتضرعي، وتذللي بين يديك، وتخضعي، وما دعوتك به من التوسل بمقامات عوال، ورجال غوال، فتشرف القلب بحبهم، وقد رجوت الإجابة حيث توسلت بهم، أو تقبل عملي، ولا تخيب فيك أملي، (وَجِدْ)، وإنك الجواد الذي يعطي قبل السؤال، ويبلغ راجيه أقصى الآمال.

وفي الحديث الشريف: «**إن الله تعالى جواد يحب الجواد، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها**»[1].

(وَاعْفُ) يا عفو عن مذنب مغرم بشهواته، لبابك سعى، وقد حذف منه الواو للجزم بالدعاء، والعفو: هو الصفح، وترك عقوبة المستحق لها، ويتعدى باللام، وعن فلان عفي له ذنبه، وعن ذنبه.

وفي الحديث: «**أن الله تعالى عفو يحب العفو**»[2] ومن دعائه ﷺ: «**اللهم اعف عني فإنك عفوٌ كريم**»[3].

قال المناوي: فإنك ذو كرم، تحب الإفضال، والإنعام، والعفو، والفضل، ومنه قل العفو؛ أي: الفضل، وما لا يجهد بالنفق إنفاقه، أصله من عفو الشيء: وهو كثرته، ونماؤه، ومنه حتى عفوا؛ أي: كثروا، انتهى.

(وَسَامِحْ)، قال في «التهذيب»: السماح، والسماحة: الجود، ثم قال: وسمح به: جاد به وسمح له: أعطاه، وفي الحديث: «**السماح رباح والعسر شؤم**»[4].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (1/ 117).
(2) رواه الحاكم في المستدرك (4/ 424).
(3) رواه أبو يعلى في مسنده (2/ 300).
(4) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 145).

وعنه ﷺ: «اسمحوا يسمح لكم»(1) وفي رواية بالإفراد، وحيث ما أمرتنا بالسماح فأنت أولى به منا يا مناح، يا فتاح، فجد به.

(لِمُغْرَمٍ) قال في «القاموس»: والمغرم كمكرم أسير الحب، والمولع بالشيء، انتهى.

ولما أطلب المؤلف للمغرم في الجمال، المولع في الكمال، القبول، والجود، ذو العفو والسماح المقصود، طلب لنفسه التوبة من التواب، والتحنن من الحنان الوهاب، وإن عنى بالمغرم نفسه أيضًا، فيكون أراد المغرم في دنياه، وعاجله المشتغل بشهواته، وسهواته عن عقباه وآجله؛ لأن إدعاء وجود الغرام ممدحة نفس، وتزكية، وهو غير لائق لمن لم يحصل طريق التزكية، وإذا أصدرت عن كامل فهي تحدث بالنعمة لا دعوى، وقد يقع لأمور أُخر؛ كالتشبيه بغير النبيه، لا عن الحظ والهول.

وقد وقع التنازع في مغرم بين أربعة أفعال على السواء، كما تنازع فيه النفس، والدنيا، والشيطان، والهوى؛ لكنه مغرم بالغرام، أنف هؤلاء اللئام، لما عن الحق القوى.

(وَتُبْ) يا تواب بفضلك على عاص يخاف سطوة عدلك، وخصه بالإمداد والقبول؛ ليرجع إليك بالذلة راغبًا في الوصول، وتقدم الكلام على التوبة، (وَتَحَنَّنْ) أي: ترحم وتعطف.

قال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى: مجاز من الاختصاص بلطائف التقريب والاصطفاء، وهو بنا تكثير من حن، انتهى.

وفي الحديث: «من كان له قلب صالح تحنن الله عليه»(2) وفي «التهذيب»: والحنانة الرحمة، تقول: منه؛ حن عليه، يحن حنانًا، قال الله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: 13] عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال: لا أذى، والحنَّان؛ ذو الرحمة، ويقال: طريقنا حنان؛ أي: واضح، وحُن عني بالضم؛ صد، انتهى.

(يَا إِلَهِي تَكَرُّمًا)، فإنك الكريم الذي يعطي من غير مسألة ولا وسيلة، بل يبتدئ بالنوال قبل السؤال، ويمنح بلا حد، ولا إقلال، والتكرم في الحادث عن تكلف وافتعال.

قال الشاعر:

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (1/ 512).

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير (3/ 297).

يُعَيِّرُنِي أُمِّي رِجَالٌ لا أَرَى أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بِأَنْ يَتَكَرَّمَا

وفي القديم محض جود وأفضال، وفي ذكر التكرم رد على أهل الاعتزال، والعبد إن لم يكن أهلاً للعطاء بإجزال فالكريم أهل للبر والإحسان بدون إمهال.

لِعَبْدٍ غَدَا يُسَمى بِحُبِّكَ مُصْطَفَى خَلِيعَ عِذَارٍ فِي الْمَحَبَّةِ حُكِّمَا

قال الشارح: (لِعَبْدٍ) اللام بمعنى على، وقد جاء بلفظة عبد دون غيرها؛ لأن وصف العبودية أشرف الأوصاف، ولا يليق بالعبد إلا اسم العبد، وهذا جاء في الحديث الشريف: «أحبُّ الأسماء إلى الله تعالى ما تعبد له»[1] فما دامت مشاهدة ذلة عبوديته، دامت له مشاهدة سيده، وعزة ربوبيته، فكان عبدًا محضًا، علمًا، وحالاً، وتحققًا، ووجد حلها وحالاً.

وفي الحديث: «لا تطروني كما طرت النصارى عيسى؛ ولكن قولوا عبد الله»[2] وقد سماه الله تعالى هذا الاسم، وجعله السيوطي -رحمه الله تعالى- في «أنموذج اللبيب» من خصائصه ﷺ.

(غَدَا) أي: صار، (يُسَمى) أي: يدعى، وينادى، (بِحُبِّكَ) أي: بسبب حبك الذي أودعته الجنان، فلا يخلو منه إنسان، أو الخاص بأهل الإحسان، ممن حق له قدم العرفان.

(مُصْطَفَى) هو علم على المؤلف، وهذا الاسم علم، وصنع على الشكل الظاهر والصورة، وقد يكون صور كثيرة؛ لظهوره في العوالم المنيرة، فيسمى في كل عالم باسم يناسب مقامه، وحاله، ويدرك به الصانع نقصه، وكماله، فمن الرجال من يسمى بالنجم، ومنهم: البدر، ومنهم: القمر المنير، ومنهم: الشمس الضاحية، ومنهم: الضياء الأكبر... إلى غير ذلك.

وقد يكون للإنسان حقائق كثيرة، ولكل واحدة اسم ينفي الحيرة، كما أخبر بعض الكبراء عن أحد الفقراء: إنه له حقيقة تسمى سبب، وأخرى غندور، وأخرى السر الظاهر، وأخرى تسمى بمحمد، وأخرى النور الباهر، وغير ذلك مما يجل حصره، ويعز

(1) رواه الترمذي (5/ 133).

(2) رواه الدارمي (2/ 412).

نشره، وكلما علا قدره، وانجلى بدره تتجدد له أسماء بحسب ذلك، يخلعها عليه المالك، وربما سئل العارف عن اسمه فيتسمى بغير اسمه المشهور، وما تسمى إلا باسم حقيقة من حقائقه المرفوعة الستور، وقلت في مطلع قصيدة سابقًا

إنـــاء الـــسكر طـــافح وعبـــير المـــدام نـــافح

وقلت:

شرفـــت مـــسمعي فأنـــت صـــيغتي وصـــحبي لـــذاك نلـــت الـــتداني

وتـــرقيت بي عـــن الكـــون حتـــى خلـــف ظهـــر خلقـــت للأكـــوان

يـــا ســـائلًا صـــديق أحمـــد بـــشر لمجيـــئك بالـــصفا والـــتهاني

أنـــت في الأصـــل مـــصطفى يـــا لهـــذا قـــد تـــصافت لـــديك كـــل الأواني

إلى آخر القصيدة ...

وقلته فأثبته لمناسبة المقام، وتحدثًا بنعمة ذي الجلال والإكرام.

وأخبرني بعض من له بنا علاقة ونسب بأهل، ترى ذكر فلانًا الحاتمي ذو الحسب، قال: وكان بيدي بعض نظم من كلامه يفوق قلائد البحور، ففتحته متفاوتها؛ طالبًا رفع الستور، فوقع نظري على آخر بيت من أبيات أسوار الطهارة، وهو هذا البيت المقصود، فهذا ظهور العارفين، فإن تكن من أخوانهم تحظى بتقريب مصطفى، وأنشد قصيدًا مديحًا بسبب ما من قاله لفظ؛ لكن بالغ فلم يكن على مستحقه سقط، ومطلعها:

أيـا مـصطفى مـن نـور بهجـة مصطفى ومـــن هـــو في أفـــق الكـــمالات واجـــد

فأعرضت عن ذكرها؛ لأن من مدح بغير ما فيه كان كمن هجا، وقلت مخاطبًا للنفس: ليس ذا بعشك فلتدرج (خَلِيعَ) بوزن فعيل ويصح فيه الرفع على القطع، والنصب على تقدير أعني، والجر على أنه نعت لعبد.

(عِذَارٍ)؛ أي: خالعه لعدم الاصطبار، وهو كناية عن خلع الفوائد؛ للفوز بخلع الفوائد، مأخوذ من خلع عذار الدابة، تسرح كيف شاءت.

قال سيدي أبو مدين الغوث -قدس الله سره: من لم يخلع العذار لم ترفع له

الأستار، انتهى.

فمن خلع عذاره محا الحبيب أوزاره، وربما نور تجليه الخاص لفؤاده، زاره فكشف أستاره، ورفع مقداره، وأنشد الفارضي أعلا الله مناره:

خَلَعْتُ عِذاري واعتِذاري لابِسَ الخَلاعَةِ مسروراً بِخَلعي وخِلعَتي

وخَلعُ عِذاري فيكِ فَرضي وإن أبى اقتِرابي قَومي والخَلاعَةُ سُنَّتي

فمن خلع العذار لاحت له لوائح الأنوار، وفاحت عليه نوافح الأسرار، وغدا سارحًا في جنة المعارف، شارحًا معاني مباني جنة العوارف، وما عداه فمأسور قيوده، ومحصور حدوده.

وأنشد الجيلي الهمام -قدس الله سره- القدوس السلام في «أرباب السماع»:

خلع العذار متيم الأحشاء فعلى الحياة تحية من نائي

ثم قال: وجه السماع للناسك فيه؛ أي: في خلع العذار؛ خلع حب الدنيا، وجه السماع للسالك فيه؛ خلع صفات النفس بالتحول عنها، وجه السماع للمحب فيه؛ ظاهر اللفظ؛ وجه السماع للمجذوب فيه؛ خلع ما سوى الله تعالى من قلبه، يريد بالخلع هنا: رفع النظر، وبالعذار: الوجود كله؛ بمعنى أن العذار هو موجب للتقييد عن الأطراح، وقد يؤول بالوجود الذي يقيد الناظر، ويحجبه عن معرفة الله تعالى، انتهى.

فإن قلت هذا الكلام فيه تزكية للنفس، وهي غير لائقة بمن يناجي حضرة القدس، قلنا: خلع العذار صادر من كل أحد، فمن الناس من خلعه في حب الأخذ.

ومنهم: من خلعه في حب الجاه، والمال، والولد.

ومنهم: في دنياه، ومنهم: في عقباه، ومنهم: الخالع له في شهواته، ومنهم: من خلعه في شهواته، ومنهم: من خلعه في حب إنسان، ومنهم: في حب نيل إحسان فقد يكون المؤلف أراد أنه خلع عذار في غفلاته، طارح نفسه في ميادين عاداته، ويشهد له قوله:

(فِي المَحَبَّة) أي: في حال سبب المحبة النفسانية التي تقتضيها النشأة الإنسانية (حُكْمًا) من التحكيم؛ وهو التطبيب؛ أي: عولج ودوي من هذا المرض الذي على وجوده عرض، أو أنه أراد خلع العذار على بابه؛ أي: في مناجاة الحبيب لما قام ببابه،وأن المحبة

الثابتة في جنابه، النابتة بفؤاده، وأركانه، قد حكم فيها فلا تقهره فتظهر خوافيها، ولولا أن الله تعالى حكمه فيها لما أمكنه دفع ملاقيها فيها، وحيث تقرر هذا فلا دعوى، وإن أراد المؤلف التحدث بالنعمة فمنهم أقوى؛ سيما إن كان عن كشف وعيان متمثلًا في ذلك أمر الديان، وقلت في معنى التحكم:

لا يظهر الحب سري لسر سر سري ... ملكته نجيبني، جهري وسري

وقلت أيضًا:

تملك الأحوال صبا مذ تقابل ... ذاك مالكها على التحقيق

سمح الجميل له بنيل وصاله ... لما رآه كامل التصديق

ولما سمع المؤلف ـ غفر الله له ـ قول الصادق: «ابدأ بنفسك، فتصدق عليها»[1] دعا أولها، ثم ثنى لكل منتم إليه، فقال:

وَأَتْبَاعِهِ وَالسَّالِكِينَ طَرِيقَهُ ... وَكُلِّ الْوَرَى مَنْ فَضْلِ ذَاتِكَ عَمَّمَا

قال الشارح: (وَأَتْبَاعِهِ) جمع تابع؛ أي: وتب وتحنن على أتباعه؛ أي: المقتفين آثره، المتابعين خيره، وخير المقتدين به في السر لمعالم الخبر.

وعلى (وَالسَّالِكِينَ) جمع: سالك في طريق المالك، ومضى الكلام على السلوك، وأقسام أهله، (طَرِيقَهُ) الذي سلك عليه، وسلك فيه، انتهى.

وهو طريق الخلوتية الأعلام أهل الكشف، والرشف، والأخبار، والأعلام، على أن المؤلف ـ سامحه رب البرية ـ له نسبة لطريق القادرية، ظاهرية وباطنية، وكذلك الطريقة النقشبندية، وله نسبة للشاذلية باطنية.

ولهذا قال بعض أهل الارتفاع: لك انتساب إلى ثلاثين طريقة كبيرة ذات شموخ وامتناع، وتقدم التصريح بهذا عند قولنا في الترجمة الخلق في طريقة، فراجعه، وخص بالذكر سلاك طريقه، فإنهم إخوانه، وهم أقرب إليه من غيرهم، وقدم أتباعه؛ لأنهم أخص به من سالكي طريقه على يد غيره، ودخل في قوله: (وَالسَّالِكِينَ طَرِيقَهُ) جميع من

---

(1) رواه ابن أبي شيبة (6/ 457).

سلك هذا الطريق وغيره ممن انتمى إليه من طرائق أُولي التحقيق، فإنها من جملة طريقه العام ذي المدد التام.

ولقد قلت في مطلع قصيدة أودعتها الرحلة العراقية:

ألا إن نهجي نهج خير الخلائق ... إمام الهدى الداعي لأنثى الخلائق
فهيا اسلكوا يا قوم إن طريقتي ... خلاصة ما تحويه كل الطرائق
وإن رمتموا أسيرًا بها يا أولي النهى ... فخذوا بسيف الجد عنق العلائق
ولا تعرضوا عنه بواش وعاذل ... عسى فلتتركوا كالعوائق
وقد جاءني الإمداد من كل كامل ... دام لي الإسعاد من كل فائق
ولا سيد الأولى منه جدول ... بفيض وإسعاف همي لحقائقي
ولي خلقة الرضوان من عبد قادرًا ... أثنى بفضل الله من غير عائقِ
ولي منحة الذواق وافق فيوضها ... بمنة مولى الخلق من كل ذائق
وسحت فيوض الفضل تسقى لحافتي ... تسوق لها الأقدار أنعم بسائق
فكل إمام لي إمام وقدروه ... وكل طريق فهي بعض طرائقي
ويا ربنا صل وسلم على ... حبانا وحيانا تسنى الرقائق
وآل وأصحاب كرام أئمة ... مدا الدهر ما أبدى الرُّبا للشقائق
وما الإذن قد وافى بقول متيم ... إلا أن نهجي نهج خير الخلائق

(وَكُلٌّ) مفعول مقدم لعموم(الْوَرَى) ، (مَنْ فَضْلِ ذَاتِكَ) أي: برها وعطاءها.

وفي الحديث: «سلوا الله من فضله، وإن الله يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[1].

(عَمَّمَا) فعل دعاء، وأصله عممن؛ كإضربن، فحذفت منه النون، وعوضت عنها

(1) رواه الترمذي (5/ 565).

الألف؛ لأن النون الخفيفة تقلب في الوقف ألفًا.

ثم يتبع، والاتباع كالتبع، والتِّباع بالكسر: الولاء التالي؛ أي: هذا الورد، هذه الصلوات النبوية؛ أي: المنسوبة للنبي ﷺ بقوله؛ أي: التالي.[...][1].

قال المصنف ﷺ: **اللَّهم صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مَنْ تَشَرَّفَتْ بِه جَمِيعُ الأَكْوَان وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِدِنَا مُحمد الذِي أُظْهِرت بِه مَعَالِمُ العِرْفَان.**

قال الشارح ﷺ: **(اللَّهُم)** أي: يا الله **(صَلِّ)** فعل دعاء؛ أي: ارحم؛ لأن الصلاة من الله الرحمة، أو أثني، أو شرف، أو كرم، أو اجعل اللطف والرحمة المقترنة بالتعظيم المنبعث عن العطف والتكريم **(وَسَلِّمْ)**. قال شارح «الدلائل»: وفي معنى السلام ثلاثة أوجه:

أحدها: السلامة من النقائص والآفات، ثابتة لك ومعك، ويكون معنى السلام مصدرًا بمعنى السلامة.

الثاني: السلام مداوِم على حفظك ورعايتك، ومتولٍ له قائم به؛ بحيث لا يكل أمرك إلى غيره، ويكون السلام اسم الله تعالى.

الثالث: أن السلام بمعنى: المسالمة والانقياد، كما في آية: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:56]، فعلى ما اختير في الأصول، وهو مذهب المالكية والشافعية من جواز استعمال اسم اللفظ المشترك في جميع مفهوماته دفعة واحدة يصح للمسلم عليه ﷺ أن يريدها جميعًا، انتهى.

(وَبَارِكْ)؛ أي: وأفض بركات الدين والدنيا، أو أدم ما أعطيت من التشريف والكرامة والبركة: كثرة الخير ونماؤه، والزيادة منها، أو هي الثبات على ذلك، أو هي التطهير والتزكية من المعايب، أو هي من الزيادة في الدنيا والذرية، انتهى.

من الشرح المذكور **(عَلَى مَنْ تَشَرَّفَتْ)** أي: صارت مشرفة بعد خلوها عنه، وتحررها منه **(بِه)** أي: بنوره الذي وجدت بسببه، أو بذكره فيها، أو وجوده، ودعوته العامة ظواهرها وخوافيها، **(جَمِيعُ)** بالرفع؛ فاعل تشرفت، وهو لفظ يؤكد به، ويطلق على الجيش، والحي المجتمع، **(الأَكْوَان)**: جمع كون، وهي كثيرة جدًّا، لا تنحصر عدًّا وحدًّا، ولم يصرح باسمه الشريف الدلالة؛ لأن هذا الوصف لم يكن على الكمال إلا له، **(وَصَلِّ**

(1) ما بين المعكوفتين أبيات وجدت في المتن وسقطت في الشرح.

وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا) والسيد: هو الذي ساد في قومه وعشيرته.

وفي تهذيب «الصحاح»: ساد قومه يسودهم سيادة، وسوددًا، أزيدت الدال للإلحاق بفعل؛ مثل: جندب، ويرفع، وسيدودة مثل قيدودة، فهو سيد، وهم سادة، مثل سري وسراه ولا نظير لهما.

وقال أهل البصرة: وزن سيد فيعل، وقياس جمع فيعل فياعل، وجمعت العرب السيد، والجيد، على سيائد، وجيائد، بالهمزة على غير قياس؛ إذ الواو والياء الأصليتان لا يتغيران في الجمع كما في المعايش، وجمع على سادة؛ لأنهم جمعوا أسايد؛ مثل قايد وقادة، وتقول: سوده قومه، وهو أسود من فلان؛ أي: أجل منه.

قال الفراء: تقول هذا سيد قومه اليوم، وسائد قومه عن قليل؛ يعني به سيكون سيدهم، انتهى.

ومن أسمائه ﷺ: السيد، قال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى: فقد ورد إطلاقه عليه في أحاديث صحيحة كثيرة، كما في حديث الترمذي: «**أنا سيد ولد الشفاعة**» الحديث، وفي حديث الشفاعة: «**انطلقوا أنا سيد ولد آدم**»[1]، وفي حديث الصحيحين: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[2].

قلت وفي حديث: «**أنا سيد النبيين ولا فخر**»[3] وفي آخر: «**أنا سيد الناس إذا بعثوا، وسائقهم إذا وردوا، ومبشرهم إذا أبلسوا، وأما فهم إذا سجدوا، وأقربهم مجلسًا إذا اجتمعوا أتكلم فيصدقني، وأشفع فيشفعني، وأسأل فيعطيني**»[4] وفي آخر: «**أنا سيد الناس يوم القيامة يدعوني ربي فأقول: لبيك، وسعديك، والخير بيديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت رب البيت**»[5] كذا في «الجامع الكبير»؛ ثم قال: والسيد؛ هو الذي يسود قومه؛ أي: يتقدم عليهم بما فيه من خصال الكمال والشرف التام، وقيل: هو الكامل المحتاج إليه؛ فإطلاق العظيم المحتاج إليه غيره، وقيل: هو الذي برأي من قومه، وقيل: هو المالك الذي تجب

(1) رواه مسلم (4/ 1782).
(2) رواه البخاري (4/ 1745).
(3) ذكره المتقي الهندي في الكنز (11/ 434).
(4) ذكره المتقي الهندي في الكنز (11/ 435).
(5) رواه الحاكم في المستدرك (4/ 617).

طاعته، ولهذا يقال: سيد الغلام، ولا يقال: سيد الثوب، وقيل: هو الحليم، وقيل: السخي، ويطلق على الزوج، ومنه قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:25] هذا قول أهل اللغة في السيد.

وأما أهل التفسير فقال ابن عباس -رضي الله عنهما: السيد: هو الكريم على ربه عز وجل، وقال قتادة: السيد: العابد الورع الحليم.

وقال عكرمة: السيد الذي لا يغلب غضبه، وسيادته ﷺ أجلى وأظهر وأوضح من أن يستدل عليها، فهو سيد العالم بأسره من غير تقييد ولا تخصيص في الدنيا والآخرة، وإنما قال في الحديث: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[1]؛ لظهور انفراده بالسيادة والشفاعة من غيره، حين يلجأ إليه الناس في ذلك، فلا يجدون سواه، وجميع الخلائق يجتمعون أولهم وآخرهم، وأنسهم وجنهم، وفيهم الأنبياء والمرسلين، وتلك الدار دار الدوام والبقاء، فهي المعتبرة.

وقد كان ﷺ معلومًا بالسيادة نسبًا وطبعًا وخلقًا وأدبًا إلى غير ذلك، من المكارم قبل ظهوره بالنبوة، يعرف ذلك من اعتنى بالسير، وتعرف أحواله من الصغر إلى الكبر، صلوات الله وسلامه عليه.

والمراد بولد آدم في قوله: «**أنا سيد ولد آدم**»[2]: النوع الإنساني، وكذا كل جماعة سموا باسم أبيهم جاز إطلاق الابن عليه، وإطلاقه عليهم كما يقال: تميم له ولأولاده، وكذا يقال: بني تميم؛ لما يشمل تميمًا، وهو أبو القبيلة، وهو مجاز شاع حتى صار حقيقة عرفية.

واللفظ الآخر الذي هو: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[3] شامل لآدم، ولا إشكال من غير تكلف جواب، ويشهد لسيادته ﷺ على آدم عليه السلام أيضًا قوله ﷺ: «**آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائي**»[4] وحديث الشفاعة المشهور في تقديمه ﷺ وعلى غيره من أكابر الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظهوره بالسيادة عليهم من غير منازع، وقوله: «**أنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول من تنشق عنه الأرض**»[5].

---

(1) تقدم تخريجه. (2) رواه مسلم (4/ 1782).

(3) تقدم تخريجه. (4) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (1/ 16).

(5) رواه الطبراني في الأوائل (ص13).

وقوله ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد»[1] انتهى.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ في كتاب «الجواهر والدرر»: وسمعته ﷺ يقول: ينبغي إشاعة حديث: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[2] بين العوام وغيرهم؛ لأنه ﷺ ما قال ذلك؛ إلا ليعلم أمته أنه أول من يفتح باب الشفاعة، فيريحهم ذلك اليوم من الكرب والمشي، فلا يأتون قبله إلى نبي بعد نبي، بل يصبرون حتى يفرغ الناس من سؤال الأنبياء، ثم يأتونه ﷺ، هكذا أفهمنا الله تعالى من هذا الحديث.

فإن الأنبياء لا تزكي نفوسها إلا لغرض صحيح، ونظير ذلك مدح الملائكة، فإن تعظيمها أنفسها بين الملأ، ثم سجودها له أكمل من سجودهم، وهم مجهولون المقام، وإنما قال ﷺ: «لا فخر»؛ أي: لا لي بالسيادة، وإنما الفخر لي بالعبودية، فعلم أنه لا يأتي يوم القيامة لنبي بعد نبي إلا من لم يبلغه هذا الحديث، أو بلغه ثم نسيه، وأن تخصيصه بالسيادة يوم القيامة إنما هو من خصوص الأولين والآخرين فيه؛ فيكون سيد الكل من غير غيبة أحد ممن له السيادة عليه، انتهى.

(مُحَمد)، سيأتي الكلام على هذا الاسم الشريف في «المنبهجة» (الذِي أَظْهرت)؛ أبنت وأوضحت (به) أي: بوجوده، وظهوره، وهديه، ونوره (مَعَالِمَ العِرْفَان) جمع مَعْلَم؛ وهو الأثر يستدل به على الطريق، قال في «القاموس»: ومَعْلَم الشيء مفطنه فطنة وما يستدل به ؛كالعلامة، انتهى.

(العِرْفَان): هو المعرفة الذي ظهرت به آثار المعرفة الإلهية الخاصة والعامة بعد أن رآتها حتى بهرت أنوارها، وعمت أطوارها، وغير انتشارها، فما عرف الله من عرف إلا بواسطة جنابه، ولا دخل من دخل باب حصنها من حضرة القدس إلا من بابه، أو باب بوابه المختص منه باشتراكه.

قال المصنف ﷺ: [وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِكْ عَلى سَيدنَا مُحَمد الذِي أَوْضَح دَقَائِق القُرْآن وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِك عَلَى عَينِ الأَعْيَان وَالسَّبَب فِي وُجُودِ كُلّ إِنْسَان].

قال الشارح ﷺ: (وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِكْ عَلى سَيدنَا مُحَمد الذِي أَوْضَح) أي: أبان

(1) رواه الترمذي (5/ 585)، رواه أحمد(4/ 66).

(2) تقدم تخريجه.

وأظهر جوامع كلمه، ولوامع حكمه، (دَقَائِق) جمع: دقيقة، يقال: دق الشيء إذا غمض، والمسألة دقيقة؛ فهي دقيقة (القُرْآن) أي: معانيه الدقيقة، ومبانيه الرقيقة، والقرآن وزنه فعلان بمعنى مفعول من قرأت الشيء جمعته، أو من قرأت الكتاب قرأه، وقرآنا تلوته؛ لأنه مجموع ومتلو.

وقال السيوطي -رحمه الله تعالى- في «الإتقان» في النوع السابع عشر في معرفة أسمائه، وأسماء صوره ناقلاً عن كتاب «البرهان»: إن الله تعالى سمّى القرآن بخمسة وخمسين أسمًا سردها إلى أن قال: القرآن، فاختلف فيه، فقال جماعة: هو اسم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى وهو غير مهموز، وما فيه الهمز كثير، وهو مروي عن الشافعي، وأخرج البيهقي والخطيب وغيرها: أنه كان يهمز قرآن، ولا يهمز القرآن، ويقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأه؛ ولكنه اسم لكتاب الله تعالى مثل: التوراة، والإنجيل.

وقال قوم - منهم الأشعري: وهو مشتق من قرنت الشيء بالشيء؛ ضممت أحدهما للآخر، وسمي به؛ لقران السور والآيات والحروف، وقال: القرآن هو مشتق من القرائن؛ لأن الآيات يصدق بعضها بعضًا، وهي قرائن، وعلى القولين هو بلا همز أيضًا، ونونه أصلية، وقال الزجاج: هذا القول هو، والصحيح أن ترك الهمز فيه من مهموز، فقال قوم- منهم اللحياني : هو مصدر القرآن؛ كالرجحان والغفران، سمي به الكتاب المنزل من باب تسمية المفعول بالمصدر.

وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فعلان، مشتق من القراءة لمعنى الجمع، ومنه قرأ الماء في الحوض؛ أي: جمعته.

قال أبو عبيدة: وسمي بذلك؛ لأنه جمع السور بعضها على بعض.

وقال الراغب: لا يقال لكل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن، قال: وإنما سمي قرآنًا؛ لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها.

وحكى قطرب قولاً آخر: إنه إنما سمي قرآنًا؛ لأن القارئ يظهره ونسبه من فيه، أخذًا من قول العرب: ما قرت الناقة سيلا قط؛ أي: ما رمت ولدًا؛ أي: ما سقطت ولدًا؛ أي: ما حملت قط، والقرآن ما يلفظ به القارئ من فيه، ويلقيه؛ فسمي قرآنًا، قال: قلت:

والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي، انتهى.

ومعناه في الاصطلاح: الكلام المنزل للإعجاز على محمد ﷺ، المحفوظ من التغيير والتبديل، المشتمل على جميع ما حوته جميع الكتب مع الزيادة، الجامع لكل شيء، المستغني عن غيره، الميسر للحفظ، المنزل منجمًا على سبعة أحرف من سبعة أبواب، ولكل لغة.

قال شارح «الدلائل»: عدَّ هذه الأخيرة ابن النقيب.

قال صاحب «التحرير»: فضل القرآن على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلة لم تكن في غيره، وقال الحكيم في «المنهاج»: ومن عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة وحجة، ولم يكن مثل هذا النبي قط؛ إنما يكون لكل واحد منهم دعوة، ثم يكون حجة غيرها، وقد جمعها الله تعالى لرسوله ﷺ في القرآن، فهو دعوة بمعانيه بألفاظه، وكفى الدعوة شرفًا أن تكون حجتها معها، وكفى الحجة ألا تنفصل الدعوة عنها، انتهى.

ومن خصائصه: أن حامله إذا مات أوحى الله تعالى إلى الأرض: «**ألا تأكلي لحمه، قالت: إلهي كيف آكل لحمه وكلامك في جوفه؟**» وأن فضل حامله على غيره كفضل الخالق على المخلوق، ومن قرأه؛ فكأنما استدرجت النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه، وأن لحامله دعوة مستجابة، وإن قراءته أفضل العبادة سيما نظرًا؛ فإنه يمتنع بنظره، وأن من قرأه في المصحف كتب له ألفي حسنة، ومن قرأه في غير المصحف فألف حسنة، وأن فضله في الكلام؛ كفضل الله على سائر خلقه؛ لأنه منه خرج وإليه يعود، وأنه أحب إلى الله من السموات والأرض ومن فيهن، وإنه لو كان في أهاب ما مسته النار، وأن الله تعالى ليرفع به أقوامًا ويضع به آخرين، وإنه غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه، وأنه شافع مشفع، وما حل مصدق من جعله أمامه ناداه إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وإنه الدواء، وإن كل آية فيه درجة في الجنة، ومصباح في بيوتنا، وهو النور المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وأن من جمعه فتح بعقله حتى يموت، وعدد درج الجنة عدائه فمن دخل الجنة من أهل القرآن لم يكن فوقه درجة إلى غير ذلك من الخصائص التي لا تتناهى، الواردة في سنة الرسول الحبيب طه.

وعنه ﷺ: «**ألا من اشتاق إلى الله تعالى فليسمع كلام الله، وإن مثل القرآن كمثل**

جراب مسك؛ أي: وقت فتحه فاح ريحه»[1].

وعن سيد الأحباب: «القرآن كله صواب» وعنه ﷺ: «القرآن ذو وجوه؛ فاحملوه على أحسن الوجوه»[2].

وعنه ﷺ: «أن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد، وأن القرآن أنزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وضرب وأمثال، وأمر وزجر؛ فأحل حلاله وحرم حرامه، واعمل بحكمه وقف عند متشابهه واعتبر أمثاله، فإن كلا من عند الله وما يتذكر إلا أولو الألباب»[3].

وعنه ﷺ: «القرآن ألف ألف حرف، وسبعة وعشرون ألف حرف فمن قرأه صابرًا محتسبًا كان له بكل حرف زوجة من الحور العين»[4] إلى غير ذلك من الأحاديث الوافرة التي عن وجه فضائل جملته وتفصيله سافرة.

وقد تكمل كتاب «الإتقان» بما يوضح بعض دقائقه؛ فمنح الإيقان.

(وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِك عَلَى عَيْنِ الأَعْيَان) ؛ أي: حاسة رؤية أشراف الخلق، فإن أعيان القوم أشرافهم؛ إذ به يبصرون، وبإمداده يدركون ما غاب عنهم فيرتقون.

وأنشد سيدي علي وفا حياه الله منازل الصفاء في هذا المعنى:

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

لو أبصر الشيطان نور جماله ... في وجه آدم كان أول من سجد[5]

وقال في «صلواته النبوية»: «إنسان عين[6] المظاهر الإلهية ولطيفة روضات الحضرة القدسية مدد الأمداد وجود الجود وواحد الآحاد وسر الوجود».

وقال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى: ونقل عن سيدي عبد النور -يعني الشريف العمراني قدس الله سره- عن شيخه أبي العباس الحامي، عن شيخه أبي العباس ابن سلطان أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم؛ فقلت: يا سيدي يا رسول الله أنت مدد

---

(1) رواه الديلمي (1/ 138).
(2) رواه الديلمي (3/ 228).
(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير (9/ 26).
(4) رواه ابن حبان (1/ 150).
(5) في ديوانه (ص103).
(6) انظر: مختار الصحاح م: [أ. ن. س] (1/ 11).

الملائكة والمرسلين، فقال لي: أنا مدد الملائكة والنبيين والمرسلين، وسائر خلق الله أجمعين، وأنا أصل الموجودات والمبتدأ، أو المنتهى وإلى غاية الغايات ولا يتعداني أحد، قال: ورأيته أيضًا في النوم؛ فأجرى الله على لساني أني قلت له: السلام عليك يا عين العيون، ويا معدن السر المصون، انتهى.

أو يراد بعين الأعيان؛ أي: ذات الذوات، فإن العين تطلق على الذات، وتجمع على أعيان وأعين وعيون؛ أي: إنه ﷺ وجود الموجودات؛ إذ عنه كان ظهورها، ومنه نورها، وبه حضورها، وفيه حبورها، (وَالسَّبَب) هو الذي يتوصل به إلى غيره (فِي وُجُودِ) أي: إيجاد وإبراز (كُلِّ إِنْسَان).

قال في «تهذيب الصحاح»: ووزن إنسان فعلان من الأنس، وقال قوم: أصله انسيان على افعلان من النسيان؛ فحذفت الياء تخفيفًا؛ لكثرة جريانها على ألسنتهم، فإذا صغروها ردوها إلى التصغير لا يكثر، واستدلوا بقول ابن عباس: أنه إنما سمي إنسان؛ لأنه عهد إليه؛ فنسي، ويجمع على أناسي، ويقال للمرأة: إنسان، ولا يقال: إنسانة، والعامة تقوله. قال في «القاموس»: وسمع في شعر كأنه مولد:

وقـــد كـــستني في الهـــوى ملابـــسَ الـــصبِّ الغَـــزِلْ
إنـــسانةٌ فـــتَّانةٌ بـــدر الدُّجـــى مـــنها خَجِـــلْ
إذا زَنَـــتْ عينـــي بهـــا فـــبالدموعِ تغتـــسلْ

وخص الإنسان بالذكر وعني به الكامل؛ لأنه أشرف من غيره، فإذا وجد بنسبه الأشرف فغيره بالطريق الأولى.

قال شارح «الدلائل» رحمه الله تعالى ـ عند قول الماتن: والسيد في كل موجود دليل هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن عبد الرزاق: «**إن الأشياء مخلوقة من نوره ﷺ**».

ومثله حديث ابن مروان المالكي الذي أخرجه في فوائده عن ابن عباس، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري ﷺ، وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند البيهقي في دلائله،

وصححه قول الله تبارك وتعالى لآدم ﷺ: «لولا محمد ما خلقتك»[1].

وفي حديث آخر: «لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضًا»[2].

وفي حديث سلمان عن ابن عساكر قال: «هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذك حبيبًا، وما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا»[3] وقال البوصيري:

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنيا ضَرُورَةُ مَنْ ... لولاهُ لَمْ تَخْرجِ الدُّنيا مِنَ العَدَمِ

وعنه ﷺ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت النار»[4] رواه الديلمي.

قال المصنف ﷺ: [وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مَنْ شَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرِيعَةِ لِلْعَالَمِينَ وَأَوْضَحَ أَفْعَالَ الطَّرِيقَةِ لِلسَّالِكِينَ وَرَمَزَ فِي عُلُومِ الحَقِيقَةِ لِلعَارِفِينَ فَصَلِّ وَسَلِّمِ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ صَلَاةً تَلِيقُ بِجَنَابِهِ الشَّرِيفِ وَمَقَامِهِ المُنِيفِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا دَائِمًا بِاللهِ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ].

قال الشارح ﷺ: (وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مَنْ شَيَّدَ)؛ أي: أحكم وأتقن ورفع.

قال في «تهذيب الصحاح»: شاده يشيده تشييد أخصصه، والمشيد المعمول بالشيد والمشيد بالتشديد؛ المطول، قال الكسائي: المَشيد؛ للواحد من قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: 45] والمُشَيَّد؛ للجمع من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78]، انتهى.

قال القاضي -رحمه الله تعالى: في قصور وحصون مرتفعة، والبروج في الأصل: بيوت على أطراف القصر، من تبرجت المرأة إذا ظهرت، وقوى مشيدة وصفًا لها بوصف فاعلها؛ كقولهم قصيدة شاعرة، ومشيده من شاده القصر إذا رفعه، انتهى.

والمعنى: أنه ﷺ أسس وبني بإتقان، (أَرْكَانَ) جمع ركن بالضم الجانب الأقوى (الشَّرِيعَةِ) التي ليس بعدها شريعة.

---

(1) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (3/ 359).

(2) ذكره ابن حجر في لسان الميزان (3/ 359) بنحوه.

(3) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (1/ 289).

(4) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (1/ 46).

قال سيدي علي وفا ﷺ: إنما كانت شريعة محمد ﷺ ليس بعدها شريعة؛ لأنها نزلت من الفلك الثامن؛ وهو فلك ثابت؛ ولأنها جاءت بجميع ما جاء به الأنبياء قبله وزيادة، انتهى.

وهي مشرعة الماء، وهو مورد الشارب، والشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين، وقد شرع لهم يشرع شرعًا؛ أي: سَنَّ، انتهى.

وهي في الاصطلاح: الإتيان بالأمر مع التزام العبودية؛ إذ هي أوامر الحق ونواهيه، فمن قام على قدم الامتثال وأسس بنيانه على تقوى من الله الكبير المتعال كان قائمًا بالشريعة قد تفضل الحق عليه بالمجاهدة؛ إذ هي اجتهاد وعلم يبلغ الأمل ومرتبته اعلم يقين، واقتباس، وبيان، وأساس، وحفظ أنفاس، وأصل، وإسلام، ووصل، واستسلام، وقد أطلنا الكل

ام في «السيوف الحداد» عليها فراجعه والسلام، وقلنا في معنى حروفها:

شـــين الـــشريعة تـــشير والـــراء كمـــن رضي الجمـــيل نذيـــر

وإلـــيك بمـــن في المـــسير يـــومه والعـــين علـــم للـــضلال ينـــير

(لِلْعَالَمِينَ) بكسر اللام جمع: عالم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] قال القاضي -رحمه الله تعالى: العالمون هم الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي.

وعنه ﷺ أنه «تلا هذه أي قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، فقال: العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته، واجتنب سخطه»(1)، انتهى.

وعنه ﷺ: «العالم وأعين الله في الأرض»(2).

وعنه ﷺ: «إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن تكثر به الكنوز هاب من كل شيء»(3) وعنه ﷺ: «العالم سلطان الله في الأرض فمن وقع فقد هلك»(4).

وعنه ﷺ: «العالم والعلم والعمل في الجنة، وإذا لم يعمل العالم بما يعلم كان العلم

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (13/ 346).
(2) رواه الخطيب في الجامع (2/ 459).
(3) رواه الديلمي (3/ 71).
(4) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 371).

والعمل في الجنة وكان العالم في النار»[1].

قال المناوي ـ رحمه الله تعالى: فهذا العالم كان كالجاهل؛ بل الجاهل خير منه، ولهذا قال سفيان: أنا عملت بما أعلم، فأنا أعلم الناس، وإن لم أعمل به فليس في الدنيا أجهل مني.

قال أبو الدرداء ﷺ: لا يكون المرء عالمًا حتى يكون بعلمه عاملاً؛ لكن ليس المراد بالعالم العامل كونه لا يصدر عنه ذنب قط؛ لأن العصمة مقام الأنبياء؛ بل أن يكون محفوظًا حتى لا يصير على الذنوب، وإن حصلت فيه هفوات، أو زلات فلا تخرجه عن ذلك حيث تداركه مولاه بالإنابة سريعًا، فالعالم العامل لا يُصر؛ لأن النور الرباني المخامر لقلبه يمنعه من الإصرار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:21] أي: يسترجعوا من الشيطان ما اختلسه، ويستردوا منه ما افترسه؛ لانبعاث جيوش الاستغفار، والذلة، والخضوع، والافتقار، وانقشاع سحب الغفلة، والافتخار، وإشراق شمس البصيرة فلا تدعهم تقواهم يصرون على مخالفة مولاهم؛ بل ربما كان بعد المعصية أجمل مما قبلها؛ لعظم ما نشأ عن ذلك من الذلة، والانكسار، والالتجاء، والافتقار.

وهذا العلم هو الجملة في جريان المخالفة عليهم، ومن ثم قال بعض العارفين: من سبقت له من الله العناية لم تضره الجناية، فأصحاب علم الشريعة من أهل العلم الظاهر هم أصحاب السيف، وحراس الدين الظاهر سيوفهم على من يروم خرق سياج الشريعة مجردة، وكفوفهم تكف برشحات أقلامها أهل الإلحاد، فهي أسنة محددة، ولو لاذ بهم رضي الله تعالى عنهم حول حمى الدين؛ لكثرت أهل الدعاوى الباطلة من المعتدين، والتبس الأمر على العامة، وجاءت طامة ضلال بعد طامة، فإن الأسرار عند أهل الأنوار حقها الأسرار، فمن بها باح دمه الشرع أباح؛ إذ الحكم للظاهر، والله يتولى السرائر.

ومن المعلوم ـ عند خواص بحر العلوم ـ أن علوم الأذواق لا تسطر في الأوراق، وفوائد الأطواق لا ينادى عليها في عامة الأسواق؛ بل لها سوق خاص لا يدخله إلا الخواص، ولهذا قُتل الحلاج وكان في قتله لداء العامة علاج.

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 372).

وقال له شيخه الجنيد ذو المقام: فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك، وأمره بالاستسلام، قال: لم يثبت عليه ما يوجب القتل أبدًا، وقال في حقه الإمام الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني: عثر الحلاج وما وجد في زمانه من يأخذ بيده، ولو كنت في زمانه لأخذت بيده، وهذه شهادة من الشيخ يملئ فيه أنه برئ من الإلحاد الذي رجم فيه، وقلت سابقًا في الشريعة وإنها عين الحقيقة الرفيعة:

إن الشريعة مركز الأسرار ... فألزم حماها تحظ بالأنوار

وكذا الطريقة إن عكفت بحانها ... حليت عليك عرائس الأبكار

وهما لآثار الحقيقة يدنيان ... فتى صفا عن سائر الأكدار

من يدعي أن الحقيقة خالفت ... نص الشريعة فهو حشو النار

لكن هما متلازمان فلا ... تمل عن واحد باللوم من نكار

واحفظ على أدب الطريقة لا ... تجد عنها تعد إذا من الأخيار

واعلم بأن الذكر أعظم كاشف ... حجب السوي عن ناظر الأسرار

فالزمه وارع جميع آداب له ... تمس جليس الواحد الغفار

واذكر بكلك ثم كلك نازعًا ... بلباس ذلك حلة استنكار

وإذا جليت بحضرة المولى تكن ... متضرعًا عن سائر الأغيار

مستأدبًا مع أهلها أن يلحظوك ... حذار من ميل الفؤاد حذار

والبس ملابس أهل ديارك الحمى ... واخلع لباسًا نور بالأبرار

واشرب مدامًا روقت كاساته ... من خمر قدس لذ للحضار

فيه الكرام تمزقوا وتهتكوا ... وبه لقد خلعوا مصان عذار

إذ حققوا أن الصفاء بشرابه ... والمحتسي منه على منار

فلــذا بــه هامــوا جــوى وصبابة ـــ مــتلذذين بــــوحدة ونفــــار

مستوحـــشين بأنــــسه مــــن أنـــسه ـــ ســـكروا بكـــأس جمالــــه الخـــمار

لا يـــرغبون ســـوى ولا رغـــبنا لهــم ـــ في ذي الـــدنا الأرضي الـــبارئ

نـــصبوا خـــيامهم بـــأرض فـــنائهم ـــ فلـــذاك عافـــوا طـــيب بـــواري

يـــا صـــاحبي إن كـــنت نفـسك ناصـحًا ـــ يمـــم لهـــم تـــنجوا بـــدار قـــراري

مـــا العـــيش إلا ذا لقـــد فـــاز الـــذي ـــ في مـــنهج الأقـــوام أصـــبح ســـاري

واعـــرف طـــريق الجمـــع وانـــشق عـــرفه ـــ وأحـــضر وغـــب في ســـائر الأطـــوار

ثـــم الـــصلاة مـــع الـــسلام عـــلى النبـــي ـــ والآل واخـــصص ثانـــيًا في الغـــار

والـــصحب والأتـــباع ثـــم وتابـــع ـــ نهـــج الـــسلوك عـــلى مـــدا الأدوار

(وَأَوْضَحَ) أي: أبان وأظهر، (أَفْعَال) جمع: فعل، (الطَّرِيقَة)، قال في «الصحاح»: وطريقة الرجل مذهبه، يقال: ما زال فلان على طريقة واحدة؛ أي: حالة واحدة، انتهى.

وفي الاصطلاح: هي السيرة المخصوصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي في المقامات، وهي عمل وتخلق وتعيين وإيمان، ومرتقيها عين يقين، ولزوم حدود، ووفاء عهود مع كمال شهود، قال سيدي علي الكازروني ﷺ: من ادَّعى كمال الطريقة بغير آداب الشريعة فلا برهان له، ومن ادَّعى وجود الحقيقة بغير كمال الطريقة فلا برهان له به.

ومن الكلام عليها في ترجمة الورد: السائرين جمع: سائر وهو المسافر في أراضي الشهود النافر عن كل مبعد عن المقصود؛ فيستقر له هذا السفر عن الظفر فيدرك فيه ما لم يكن ناله، ويحصل ما لم يكن حصله فيبلغ آماله، والأسفار على رأي الحاتمي ذي الأسفار ثلاثة من الله، وإلى الله وفي الله، وألف فيها كتابًا ضمنه لُبابًا، وعند غيره أربعة وعدها بعضهم سبعة، وعقدنا لهم في الألفية فصل بمنح وصلاً، والسير غير منقطع؛ كما قلنا فيها، والسير دائم فلا ينقطع دنيا وأخرى؛ بل بها يرتفع والسائر أعم من المسافر، فكل مسافر

سائر ولا عكس؛ إذ من السائرين من يسير عن غفلاته إلى منازل مشاهداته.

ومنهم: السائر من ذي صفاته إلى سني سماته، ومن وقوف مع الأغيار إلى مواطن الأخيار، ومن شهود خلق محادثه حق، ومن فناء إلى بقاء، ومن ارتقاء إلى لقاء، ومن مشهد صفات إلى شهود ذات إلى غير ذلك مما لا يذوقه إلا السالك، وما تضح لهم ما هنالك إلا بواسطة زين الممالك؛ فنجوا من المهالك حيث بانت المسالك.

(وَرَمَز) أي: أشار وأرمز ، قال في «القاموس»: الرمز: ويضم الإشارة، أو الإيماء بالشفتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو الفم، أو اليد، أو اللسان يرمز ويرمز، انتهى.

وهذا الرمز من باب الغيرة الإلهية على الأسرار العلية، وقد أوحى الله تعالى لنبيه ﷺ ثلاثة علوم: علم أمر بينه؛ وهو علم الأحكام، وعلم خير بينه؛ وهو علم الأسرار ذات الأحكام، وعلم أمر بكتمه؛ وهو علم القدر، وفي الحديث: علم الباطن سر من أسرار الله تعالى، وحكم من أحكام الله ﷻ يقذفه في قلوب من يشاء من عباده، وعلم الباطن؛ كما قال الغزالي علم المكاشفة، وهذا العلم الذي من لم يكن له منه نصيب يخشى عليه سوء الخاتمة؛ كما نص عليه بعض أهل التقريب، وأقل نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله.

وعنه ﷺ: **«أن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا انطقوا به لا يذكره إلا أهل العزة بالله عز وجل»**(1).

وعنه ﷺ: **«العلم علمان علم في القلب وذلك العلم النافع، وعلم اللسان وذلك حجة الله على ابن آدم»**(2).

وعنه ﷺ: **«حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»**(3).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: يا رسول الله أحدث الناس بكل كلمة أسمع منك قال: «نعم إلا أن تحدث بحديث لا يبلغ عقول القوم ذلك الحديث؛ فيكون على بعضهم فتنة، ولما كان من العلوم ما هو معلوم.

ومنها: ما هو منفي مكتوم يدق فهمًا عن الأكابر فضل عن الأصاغر من أهل

---

(1) رواه الديلمي (1/ 210).
(2) رواه ابن أبي شيبة (7/ 82).
(3) رواه البخاري (1/ 59).

«المخابر» حتى نقل ابن الملاء في سيرته من كتاب «الرياض النضرة في فضائل العشرة» عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنت أدخل على رسول الله ﷺ، وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد فأجلس بينهما كأني زنجي لا أعلم ما يقولان لهذا استعملت الرموز والإشارة والكنايات في العبارات وأنشدوا:

ألا إن الـــرموز دلـــيل صـــدق ... عـــلى المعنـــى المغـــيب في الفـــؤاد

وكـــل العارفـــين لهـــا رمـــوز ... وألفـــاظ يـــدق عـــلى الأعـــادي

ولـــولا اللغـــز كـــان القـــول كفـــرًا ... وادى العالمـــــين إلى العـــــناد

وقلت:

ولمـــا عـــلى الأسرار غـــارت رجـــا ... لهـــا وضـــنوا عـــلى أغـــيارها

اســـتعمل الرمـــز ومـــن عـــز ... هـــا عـــزت وعـــزز أهلهـــا

ومـن حرصـهم في كتمها هجروا الغمزا ... لـئلا يـشير الطـرف أو حاجـب لهـا

فيلمح نذرا عادل رفاق اللمز، ومن هنا سميت الصوفية أهل الإشارة؛ لأنهم كثيرًا ما يستعملونها ليرمزوا في العبارة، وقلت سابقًا:

علـــم الإشـــارة في الـــضمير ... علـــيه أســـدلت الـــستاره

سر عـــــن الـــــسر اخـــــتفاء ... فـــيراه لا تجنـــي ثـــماره

قـــد كـــن في عـــيب الحـــشاء ... مـــن أيـــن تظهـــر العـــباره

مـــن يدعـــي كـــشف الغطـــاء ... عـــنه فدعـــواه خـــساره

شـــهد الـــبدر بدســـاره ... وعـــلى العـــلا أعـــلا مـــناره

فـــتراه عـــند ســـؤاله ... عـــنه يـــترجم بـــالإداره

ويظـــن ذلـــك هـــو ومـــا ... هـــو هـــو لمـــن فهـــم الإشـــاره

(فِي عُلُوم) جمع: علم، والعلوم لا تنحصر أصولها، وكلها لا تخرج عن علوم

الشريعة، ومن هذه العلوم لباب تضاف إلى الطريقة.

ومنها علوم تضاف إلى الحقيقة، والكل مورده بحر الشريعة الوثيقة (الحَقِيقَة) على وزن فعيلة، وهي اسم لما أريد به ما وضع له مشتقة من حق الشيء، إذا ثبت بمعنى فاعله، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في العلامة لا للتأنيث كذا في «التعاريف».

والمراد بعلوم الحقيقة: علوم حقائق الأشياء المشار إليها بحديث: اللهم أمر الأشياء كما هي عليه عيانًا، وعلوم الحقائق هي أعلامًا تدركه الخلائق؛ ثم أطلق علم الحقيقة في أكثر المواطن من حيث الإطلاع على علم الباطن، ولما سأل رابع الخلفاء ﷺ كميل بن زياد عنها ليفهم المراد منها، قال له مالك: والحقيقة قال: أو لست صاحب سر قال: بلى؛ ولكن ترسخ عليك مما يطفح عليَّ قال: ومثلك نجيب سائلاً، فقال ﷺ: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: محوًا لوهم مع صحو العلوم، فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل أهل التوحيد آثاره، فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: أطف السراج؛ أي: سراج الاستفهام فقد طلع الصبح؛ أي: صبح الأعلام.

وقال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في الباب64من «فتوحاته المكية» في معرفة الحقيقة: وهي سلب أوصافك عنك بأوصافه؛ لأنه الفاعل بك فيك منك، لا أنت ما من دابة في الأرض إلا هو أخذ بناصيتها:

إن الحقيقة تعطي واحدًا أبدًا ... والعقل بالفكر ينفي الواحد الأحدا

فالذات ليس له ثان فيشفعها ... والكون يطلب من آثاره العددا

والكل ليس سوى عين محققة ... لا أهل فيها ولا أبأ ولا ولدا

اعلم أن الحقيقة هي ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف، والتماثل والتقابل إن لم تعرف الحقيقة هكذا وإلا فما عرفت، فعين الشريعة عين الحقيقة والشريعة حق، ولكل حق حقيقة؛ فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما يترك في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في الباطن كما هو في الظاهر من غير مزيد؛ حتى إذا كشف الأمر لم يختل الأمر على الناظر؛ ثم قال: فما ثم حقيقة تخالف شريعة؛ لأن الشريعة من جملة

الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه؛ فالشرع ينفي ويثبت فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، وهو قول الحقيقة بعينه؛ فالشريعة هي الحقيقة، انتهى.

وقلت في معنى حروفها:

حـــاء الحقـــيقة تحقـــيق وإتقـــان والقـاف قلـب صـفاء ما فيه من سلوان

والـــياء سر عـــبر الحـــب مجـــتهدًا والقـــاف قهـــر الهـــوى إذ ذاك فـــتان

والهـــاء هجـــر لمـــا يقـــضي المتـــيم عـــن أحـــبائه فقـــد غـــير الحـــب وجـــدان

(لِلعَارِفِين) جمع: عارف، والمعرفة تضاد الجهل؛ وهذا لا يوصف الباري تعالى بها، وقد اعترض الخاتمي ﷺ في مواقع النجوم على من عدل تسمية العلماء بالله بالعارفين مع أن وصف العلم أشرف من وصف المعرفة وأتم؛ إذ وصف به نفسه ومدح أهله، وأمنن على خاصته به؛ ثم اعتذر عن أهل الطريق؛ إنهم غاروا مما رأوا أنه شاع في العالم أن يسمى عالمًا من كان عنده علم ما من العلوم، وإن كانت أكب على الشهوات وتورط في الشبهات؛ فأدركتهم الغيرة إن يشاركهم البطال في اسم واحد فلا تتميز المقامات، ولا يقدرون على إزالته من البطال؛ لإشاعته في الناس؛ فلا يتمكن لهم ذلك فإذا هم الأمر إلى تسمية المقام معرفة وصاحبه عارفًا، فإذا العلم والمعرفة في الحد هو الحقيقة على السواء ففرقوا بين المقامين بهذا القدر، فاجتمعنا والحمد لله في المعنى واختلفنا في اللفظ؛ إذ هذا الطريق لا يتصور فيه خلاف أصلاً، فإذا وجد فإنما هو راجع إلى الألفاظ خاصة؛ ولكنه في حقهم بالإضافة إلى من أثر تسمية الله على اصطلاحهم وقت غفلة جرت عليهم لغلبة الغيرة عليهم، فيرجى لهم مقصدهم توبة المقام وغيرتهم أن يحصل لهم ما حل لأهل الحضور منا، والحمد لله المنعم المتفضل، انتهى.

ملخصًا وسبق الكلام على المعرفة والعارف، وهذا العرفان للتقسيم والتعريف؛ وإلا فكل من الشريعة والطريقة والحقيقة عين إلا من لدى التوفيق.

(فَصَلٌّ): الفاء عاطفة، (وَسَلِّم اللَّهُمَّ عَلَيْهِ صَلَاة) منصوب يصل على أنه مفعول مطلق (تَلِيق)؛ أي: تلوذ وتعلق، قال في «تهذيب الصحاح»: ولاق به فلان؛ أي: لاذ ولاق به الثوب؛ أي: ليق، وهذا الأمر لا يليق بك؛ أي: لا يعلق بك وفلان لا يليق درهمًا

من وجوده؛ أي: ما يمسكه ولا يعلق به، انتهى.

(**بِجَنَابِه**) أي: ساحته وفنائه ومن معناه (**الشَّرِيف**)؛ أي: الرفيع المجيد، قال في «القاموس»: الشرف محركة العلو والمكان العالي والمجد، انتهى.

(**وَمَقَامِه**) المعلوم لديك يا قيوم (**المُنِيف**) الذي طال، وارتفع حتى أشرف على كل ذي مقام أرفع، فلم يمكن أن يساويه أحد من أهل القرب لدى الأحد؛ إذ هو عرش العروش، وسماء كل سماء، ومد العروش، ونقوش النقوش بفيض هما.

قال البوصيري: أدخله الله الحما، وله صان ورعا وحما:

كَـيفَ ترقَـى رُقِـيَّك الأَنبِـياءُ ... يَـا سَـماءً مَـا طَاوَلَـتْها سَـماءُ

لَمْ يُسَاوُوك فِي عُـلاكَ وَقَـدْ حَـا ... لَ سَـناً مِـنك دونَهـم وسَـناءُ

(**المُنِيف**) هو بفتح الميم من نافا وبضمها من أناف، قال في «القاموس»: ناف وأناف على الشيء أشرف، وأناف عليه زاد، انتهى.

وفي «التهذيب»: وناف الشيء ينوف طال وارتفع ذكره ابن دريد، انتهى.

(**وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا**) بعد سلام بإسلام شبه بها يقدر مؤكد لفعله، قال شارح «الدلائل»: حكى ابن عرفة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]، عن شيخه ابن عبد السلام أنه كان يقول: أن المصلي على النبي ﷺ لا يأتي في صلاته؛ ثم بالتأكيد الذي هو تسليمًا، وإنما يقول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويكفيه ذلك؛ لأنه ليس المقصود الإخبار للغير حقيقة فهو إنشاء لا إخبار، وإن معاصره الزهري كان يقول بزيدها كما في الآية، وقاله في محل آخر، وقيل: وإنما أكد السلام دون الصلاة؛ لأن الإخبار بأن الله تعالى، وملائكته يصلون على النبي أعني: عنه لدلالته على أنه من الشرف بمكان، انتهى.

وقلت: ويؤيد ما ذهب إليه الشيخ عبد السلام أنه ﷺ لم يذكر فيما وصلنا من الروايات والسلام.

ومنها: عدهن في يد جبريل، وقال: هكذا نزلت من عند رب العزة: «**اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وترحم على محمد، وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك**

حميد مجيد، اللهم وسلم على محمد، وعلى آل محمدكما سلمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» رواه البيهقي وضعفه والديلمي عن عمر.

ومنها: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمدكما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمدكما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علم» رواه عبد الرزاق عن محمد بن عبد الله بن يزيد.

ومنها: «جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد» رواه أحمد عن بريرة، وضعف إلى غير ذلك.

قال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى: عند قول الماتن كما صليت على إبراهيم؛ أي: الخليل عليه الصلاة والسلام بالتشبيه بإبراهيم؛ كما في جل النسخ المعتمدة وغيرها، ووقع في نسخة معتمدة على آل إبراهيم بالتشبيه بآل إبراهيم، وروايات الحديث في ذلك مختلفة، والذي في رواية أبي الهروي في صحيح البخاري: زيادة آل في الموضعين، وفي «الموطأ»: بالإثبات وعدمه -والله أعلم- وهناك سؤال يورده العلماء قديمًا وحديثًا وهو: أن القاعدة أن المشبه بالشيء أعلا رتبة من أن يكون مثله، وقد يكون أدنى، وإما أعلا فلا يكون، ومن المعلوم المقرر في القواعد أن نبينا ﷺ أفضل من إبراهيم، فكيف يخرج ظاهر هذا الحديث عن القاعدة المقررة؟ وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة كثيرة نذكر هنا ما رأيناه أقرب.

منها: أنه إنما قيل ذلك لتقدم الصلاة على إبراهيم، وقول الملائكة في بيته ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد؛ أي: كما تقدمت منك الصلاة على إبراهيم؛ فنسأل منك الصلاة على محمد بطريق الأولى؛ لأن الذي ثبت للفاضل ثبت للأفضل بطريق الأولى، وكذلك ختم بما ختم وهو قوله: «إنك حميد مجيد» والتشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة لا للقدر بالقدر فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء:163].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:183].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77].

ومنها: أن الدعاء منه للاستقبال، فما كان من خير قد أعطيه النبي ﷺ قبل الدعاء لم

يقع في التشبيه الزائد على ما كان عنده، فطلب أن يكون له مثل ما كان لإبراهيم وآله زيادة على ما خصه الله تعالى به قبل السؤال.

ومنها: رفع المقدمة المذكورة أولاً، وهي أن المشبه به يكون أرفع من المشبه، وأن ذلك ليس مطردًا؛ بل قد يكون التشبيه بالمثل؛ بل الدون كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور:35]، وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؛ ولكن لما كان المراد من المشبه أن يكون ظاهرًا واضحًا للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا لما كان تعظيم إبراهيم، وآل إبراهيم بالصلاة عليهم واضحًا مشهودًا عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد، وآل محمد بالصلاة عليهم ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله في العالمين؛ فالتشبيه المذكور ليس من باب إلحاق الناقص بالكامل؛ لكن من باب إلحاق ما لم يشتهر بمن اشتهر.

وقالوا أيضًا: في خصوص التشبيه بإبراهيم دون غيرهم من الأنبياء على جميعهم الصلاة والسلام أن ذلك لأبويه فكان أقرب إليه من غيره؛ ولأن التشبيه بالآباء في الفضائل مرغوب فيه ولرفعه شأنه في الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولما هو معروف هم في الملة الشريعة مما لا يحتاج إلى تعريف، ولا بيان له الذي موافقته في معالم الملة، وكان هذا ملحظ قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:78]؛ ولأنه ﷺ أراد أن يبقى ذلك كله إلى يوم الدين، ويجعل له لسان صدق في الآخرين؛ كما جعله لإبراهيم عليه السلام مقرونة بما وهب الله تعالى له ﷺ من ذلك، ولمشاركته له في التأذين بالحج، وإجابة لدعائه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:84]؛ ولأنه ﷺ أمر بالاقتداء به، ومما يعزي للشيخ أبي محمد المرجاني أنه قال سرًا: التشبيه بإبراهيم دون موسى عليهما الصلاة والسلام؛ لأنه كان التجلي له بالجلال﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:143]، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال؛ لأن المحبة والخلة من آثار التجلي بالجمال لا التسوية فيه، فيتجلى لكل منهما بحسب مقامه ورتبته عنده، انتهى.

(دَائِمًا)؛ أي: باقيًا مستمرًا لا انقضاء له، ولا انصرام على ممر الليالي والأيام. (بِاللهِ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ)، وهنا موقف يقف عليه التالي.

ويبتدئ بقوله (المصنف): [اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي زَيَّنَ

مَقَاصِيرِ القُلُوبِ وَأَظْهَرَ سَرَائِرَ الْغُيُوبِ، بَابِ كُلِّ طَالِبٍ وَدَلِيلِ كُلِّ مَحْجُوبٍ فَصَلِّ وَسَلِّمِ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسُ الأَكْوَانِ عَلَى الوُجُودِ].

قال الشارح ﷺ: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي زَيَّنَ)؛ أي: جمل وكمل وحسن، قال في «تهذيب الصحاح»: الزينة ما يتزين به، ويوم الزينة يوم العيد، والزين نقيض الشين وزانه يزينه بمعنى قال المحبون:

فيا رب إن صيرت ليلى هي المنى فزني بعينها كما زينتها ليا

وتزين وازدان بمعنى وهو افتعل من الزينة إلا أن التاء لما كان مخرجها لم توافق الزاي لشدتها، فأبدلوا منها دالًا فقالوا: من دان وإن أدغمت.

قلت: مزان وتصغير مزدان مزين؛ مثل: مخير تصغير مختار ومزيين إذا عوضت؛ كما تقول: في الجمع مزاين ومزايين، ويقال: أزينت الأرض بعشبها وأزينت مثله، وأصله زينت فسكنت التاء، وأدغمت في الزاي واجتلبت الألف بصح الابتداء، وقول الشاعر:

كأنك ديك ناتل الزين أعور

يعني: عرفه.

(مَقَاصِيرِ) مفعول زين، جمع مقصورة وهي الدار الواسعة المحصنة، أو هي أصغر من الدار كالقُصارة بالضم ولا يدخلها إلا صاحبها، كذا في «القاموس».

(القُلُوبِ) جمع قلب وهو الفؤاد، أو أخص منه، والعقل ومحض كل شيء، ومن الكلام عليه وتزيينه لها ﷺ بالإيمان والعرفان والإذعان والإيقان، وقد شبه القلوب بمدينة واسعة، وأثبت لها المقاصير تخيلاً وذكر التزيين ترشيحًا؛ فالاستعارة إذًا مكنية (وَأَظْهَرَ)؛ أي: أبان وأوضح. (سَرَائِرَ)؛ أي: بواطن جمع سريرة وهي ما يكتم.

قال في «المصباح»: السر الذي يكتم، والجمع: أسرار والسرير مثله، والجمع السرائر، انتهى.

وفي الحديث: «**قل اللهم اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة، اللهم إني أسألك من صالح ما توفي الناس من المال والأهل والولد غير الضال المضل**»[1]

(1) رواه الطبراني في الدعاء (4/ 45).

رواه الترمذي عن عمر، وأنشدوا:

إذا ظهـــرت مـــنك الـــسرائر تجـلى علـيك الله والليل عاكـــر

وألبـــسك التقلـيد والـــتاج والحـلي وفي المـــلأ الأعـــلى تـــدق البـــشائر

ومن حكم بعض العارفين: من صدقت سريرته انفتحت بصيرته. (الْغُيُوب) جمع: غيب وهو ما غاب عنك، وفي الاصطلاح: كل ما ستره الحق عنك منك لا منه وغيب الهوية، والغيب المطلق عبارة عن ذات الحق باعتبار اللا تعين والغيب المكنون، والغيب المصون عبارة عن السر الذاتي، وكنهها الذي لا يعرفها إلا هو، ولهذا كان مصونًا عن الأغيار مكنونًا عن العقول والأبصار، انتهى.

وقد أظهر ﷺ كثيرًا من الأسرار الغائبة عن العقول والإفهام، وأوضح جملاً من بواطن علوم لن تتطرق عليه الأوهام؛ فالدين وما عليه احتوى قد كان غائبًا فيظهره وقام فاستوى، وكم أخبر عن الله مستقبله، وأرشد إلى مطالع نجوم علوم خفيات أعمال أهلها مستقبله، فكل باطن غيب ظهر ففي باطنه المقدس، وكل ظاهر مريدًا فمن ظاهره الأنفس فجميع الخلق يلتمسون من نور جنابه، ويقتبسون من مشكاة اقترابه؛ ولهذا يشير قوله (بَاب) بالجر نعت لمحمد ﷺ، وتشبيهه بالباب فيه كمال المناسبة؛ لأن الباب هي الفرجة التي يتوصل بها من خارج إلى داخل حقيقة في الأجسام مجازًا في المعاني، وهنا في المعاني فهو ﷺ الباب الأعظم الذي لا يمكن أن يدخل داخل حضرة الله تعالى إلا بواسطته؛ كما أنه لا يمكنه دخول دائرة الإسلام إلا بالإقرار بنبوته.

قال سيدي أبو الحسن محمد البكري ﷺ: «وأنت باب الله»؛ أي: امرأ أتاه من غيرك لا يدخل (كُلّ طَالِب) نيل القرب من الله والإقبال على الله، فأي طالب رام معرفة الله من غير باب رسول الله ﷺ فقد ضل وتاه، ولحقه الاشتباه (وَدَلِيل)؛ أي: مرشد ومنجي.

(كُلّ مَحْجُوب) عن شهود المطلوب، ومن أسمائه ﷺ: دليل الخيرات، وقد دله على الطريق يدله دلالة ودلاله ودلوله والفتح أعلاء، انتهى.

(فَصَلّ): الفاء عاطفة، (وَسَلّم اللهُم عَلَيْه مَا طَلَعَت)؛ أي: ما ظهرت وبرزت ويجوز هنا ما طلع؛ لأن من ليس له فرج حقيقي؛ إذا تأخر جاز في الفعل التذكير والتأنيث، وإذا تقدم تحتم التأنيث في كمثله إذا طللت الثريا من الزرع من العاهة، وفي

آخر: إذا غربت الشمس فكفوا صبيانكم، وأنها ساعة، (شَمْس) مفرد شموس، قال في «المصباح»: الشمس تجمع على شموس، وكأنهم جعلوا لكل ناحية منها شمسًا، انتهى.

والمراد به: الكوكب المضيء النهاري الكائن مقره الطبيعي في السماء الرابعة، وهو أعظم الكواكب كلها جرمًا وأشدها ضوءًا، والقمر محله الطبيعي في الفلك الأسفل من شأنه أن يقبل النور عن الشمس على أشكال مختلفة لونه الذاتي إلى السواد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:5]، وفي الحديث الشريف: «**وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم، ولولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته**»[1] وعنه ﷺ: «**هل تدرون أي تغرب هذه، فإنها تغرب في عين حمئة إذا غابت؛ فإنها تذهب حين تذهب حتى تأتي العرش فتسجد بين يدي ربها ﷻ فتستأذن في الرجوع فيأذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك مستقرها**»[2].

(**الأَكْوَان**) جمع: كون؛ أي: الظاهرة فيها، ولما كانت عوالم الحق سبحانه وتعالى لا تحصى كانت الأكوان كذلك، ومن جملة العوالم عالمنا المقول فيه أنه احتوى على ستمائة عالم بحرية وأربعمائة برية، وكل عالم كون من أن الحق سبحانه وتعالى.

فلذا قال: شمس الأكوان، وأيضًا: فإن الشموس متعددة؛ فشمس عرفان، وشمس عيان، وشمس أمان، وإيمان، وإحسان، وإيقان، وتوحيد، وتجريد، وتغريد، ومحبة، وشربة، وقربة، وغيوب، وفتق جيوب، وقلوب.

قال سيدي أحمد بن عطاء الله رضي الله عنهما: ولقد أخبرني بعض المريدين، قال: صليت خلف شيخي صلاة فشاهدت ما أبهر عقلي، وذلك أني شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وأنبتت الأنوار من وجوده حتى أني لم أستطع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات قلوبهم؛ فأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟

الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها، ولا غروب؛ لذلك قال قائلهم:

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير (8/ 168).

(2) رواه الطيالسي في مسنده (1/ 62).

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

ونور الشمس يشهد به الآثار، ونور اليقين يشهد به المؤثر، ولنا في هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور وشمس اليقين أبهر نورا

وقال فيه بعض العارفين: لله عبادًا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم فمثلهم الكواكب كلما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها، وأين أنوار الكواكب من أنوار قلوب أوليائه! إن أنوار الكواكب تتكدر، وأنوار قلوب أولياته لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدي في الدنيا إلى الدنيا، وأنوار قلوب أوليائه تهدي إلى الله ﷻ، ولنا في هذا المعنى أمر تسير النجوم من السماء نجوم الأرض أبهر في الضياء فتلك تبين وقتًا؛ ثم تخفى، وهذي لا تتكدر بالخفاء هداية تلك في ظلم الليالي هداية هذه كشف الغطاء، انتهى.

(عَلَى الوُجُود) الحادث المشهود، والغائب الذي بالنظر إلينا مفقود، أو الوجود المعهود ظهور هذه الكواكب، أو يماثله ويضارعه ويكافئه في غير هذا العالم؛ كالأرواح توافيه، أو ما يفوق عليه بالنور أضعافًا، وانكشف خوافيه.

قال المصنف ﷺ: [وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِك عَلى مَنْ أَفَاضَ عَلَيْنَا بِإِمْدَاده سَحَائِب الجُود يَا الله يَا رَحْمَن يَا رَحِيم].

(وَصَلِّ وَسَلِّم وَبَارِك عَلَى مَنْ أَفَاضَ)؛ أي: أفرغ واسأل علينا؛ أي: على ظواهرنا وبواطننا وأستار ما لدينا (بِإِمْدَاده)؛ أي: بسبب عطائه وإغاثته وإسعافه، (سَحَائِب) قال في «القاموس»: والسحابة: الغيم، جمعه: سحاب، وسحب، وسحائب، انتهى.

(الجُود) بضم الجيم؛ وهو السخاء، قال في «القاموس»: والجواد السخي والسخية جمعه: أجواد، وأجاد، وجود؛ كعدل وجودة، وقد جاد جودًا واستجادة طلب جوده فأجاده درهمًا أعطاه إياه، انتهى.

وهو بفتحها، قال في «تهذيب الصحاح»: والجود: المطر الغزير، تقول: جاد المطر جودًا فهو جايد، والجمع: جود لصاحب وصحب، انتهى.

وفي ذكر سحائب الجود استعارة مكنية، وذكر الإضافة ترشيح، والسحائب تخيل.

(يَا الله يَا رَحْمَن يَا رَحِيم).

قال المصنف ﷺ: [اللَّهُم صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيدنَا مُحَمد صَلَاة تُدْنِي بَعِيدَنَا إِلَى

الحَضَرَاتِ الرَّبَانِيَّة وَتَذْهَب بِقَرِيبِنَا إِلَى مَا لَا نِهَايَة لَهُ مِن المَقَامَات الإِحْسَانِيَّة فَصَلِّ وَسَلِّم اللَّهُم عَلَيه صَلَاة تَنْشَرِح بِهَا الصُّدُور وَتَهُون بِهَا الأُمُور وَتَنْكَشِف بِهَا السُّتُور وَسَلِّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّين عَدَد 7 دَعْوَاهُم فِيهَا سُبْحَانَك اللَّهُم وَتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلَام وَآخِرُ دَعْوَاهُم أَن الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين].

قال الشارح ﷺ: (اللَّهُم صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمد صَلَاة تُدْنِي)؛ أي: تقرب (بَعِيدَنَا)؛ أي: البعيد منا معاشر التاليين، أو الحاضرين، والأمة الذي أبعدته المعاصي وأنسته الغفلة، يوم الأخذ بالنواصي (إِلَى الحَضَرَاتِ) جمع: حضرة وهي كثيرة متعددة (الرَّبَانِيَّة)؛ أي: المنسوبة للرب سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 79]، قال في «القاموس»: والرباني العارف بالله تعالى، انتهى.

(وَتَذْهَب)؛ أي: تلك الصلوات النبوية (بِقَرِيبِنَا) بإمدادها الوافي الوافر؛ أي: تسير بقريبنا الذي قربته أيدي عنايتك، وجذبته أكف هدايتك، وساعده ساعد الأقدار، وعطفت عليه عواطف الأقدار، فسار على نجب الصحابة الكبار، التي لا يحصرها حاصر، ولا يقدرها مقدار (إِلَى مَا لَا نِهَايَة لَهُ)؛ أي: ما لا انتهاء لوجوده، ولا غاية تنتهي لحدوده؛ إذ فيض الحق لا أمد له، ولا أثر، ولا حد له، ولا انقضاء فلا يدرك آخره، ولا تناهي مآثره ومفاخره من بيانه. (المَقَامَات الإِحْسَانِيَّة)؛ أي: المنسوبة لمقام الإحسان، أو لذا به، والإحسان لغة كما في «التعاريف» فصل ما ينبغي أن يفعل من الخير، وفي الشريعة: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26]، قيل: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله تعالى، ولا إحسان بعد هذا الإحسان، فكل نعيم دون زين اقترابه، وكل جحيم دون شين احتجابه، ولأهل النظر مراتب في اللذة والحضور على قدر التجلي على قدر المقامات، ويحسبها بكون التجلي، وما ثم إلا زيادة كشف ورشف وفوق لمن كان أهله هنا من فوق عن ذوق وطوق. (فَصَلِّ وَسَلِّم اللَّهُم عَلَيه صَلَاة تَنْشَرِح)؛ أي: تنفسح وتتسع، وتنكشف بها، قال في «تهذيب الصحاح»: الشرح الكشف،

(1) رواه البخاري (1/ 27)، ومسلم (1/ 37).

وشرح الغامض فَسَّره، انتهى.

(**الصُّدُور**)؛ أي: القلوب جمع: صدر، وهو ما حوالي القلب، وتسميته بالقلب مجازًا؛ إذ هو من باب تسمية المحل باسم الحال فيه، والشرح في الأجسام عبارة عن البسط، والتوسعة فيها، وهنا عن القبول والاستعداد للموارد الإلهية.

ومن فوائد الصلاة على السيد المختار: إنها تنور الظواهر والأسرار، وتعين على قضاء الحوائج والأوطار والنجاة من دار البوار، ودخول دار القرار (**وَتُهَوِّن**)؛ أي: تسهل (**بِهَا**)؛ أي: بتلك الصلاة الأمور الصعبة المتبعة المهولة المرعبة، (**وَتُنْكَشِف**)؛ أي: ترتفع وتزول، يقال: انكشف السير إذا ارتفع (**بِهَا السُّتُور**)، جمع: ستر، ويجمع على أستار، (**وَسَلِّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا**)؛ أي: لا قلة فيه مستمرًا دائمًا (**إِلَى يَوْمِ الدِّين**)؛ أي: يوم الجزاء من دانه يدينه جازاه، ومنه قولهم: كما تدين تدان، وهو اسم من أسماء يوم القيامة، ولها أسماء كثيرة آمين سبق الكلام عليها (**سبعًا**)؛ أي: يكرر التالي لفظ آمين سبع مرات، ولعل حكمة التكرار سبعًا كونها تستجيب في آخر الفاتحة، وهي السبع المثاني، فتكون مكررة على عدد آياتها؛ ثم يقول التالي: (**دَعْوَاهُم فِيهَا**) قال القاضي رحمه الله تعالى- أي: دعاؤهم سبحانك اللهم إنا نسبحك تسبيحًا.

قلت: وقال بعضهم: (**سُبْحَانَك**) اسم أقيم مقام المصدر، وهو التسبيح والتقدير، أسبحك تسبيحًا؛ أي: أبعدك عما لا يليق بحضرتك من أوصاف المخلوقين، (**وَتَحِيَّتُهُم**) ما يحيي به بعضهم بعضًا، أو تحية الملائكة إياهم فيها، (**فِيهَا سَلَام وَآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين**)؛ أي: أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله وكبريائه بحدوده ونعتوه بنعوت الجلال؛ ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، وإن: هي المخففة من الثقيلة، وقد قرئ بها وبنصب الحمد، انتهى.

وقال أبو بكر بن العربي المعافري في السفر الرابع من أحكام القرآن الآية الثانية قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:10].

فيها مسألتان: **الأولى**: في تفسير التحية، وفيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها الملك.

الثاني: أنها البقاء، قال: المعمر ابني أن أهلك فإني قد تركت لكم بنيه، وتركتكم

أولاد بيثا دارت زنادكم روية، ولكلما نال الفتى قد نلته إلا التحية يعني البقاء.

والثالث: السلام.

المسألة الثانية في تفسيرها قولان: **الأول**: أن الملك يأتيهم بما يشتهون فيقول لهم: سلام؛ يعني مسلم فيردون عليه، فإذا أكلوه قالوا: الحمد لله رب العالمين.

الثاني: أن معنى تحيتهم تحية بعضهم لبعض، وقد ثبت في الخبر كما بيناه: «**أن الله ﷻ خلق آدم؛ ثم قال له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلم عليهم فجاءهم، فقال: سلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال له: هذه تحيتك وتحية ذريتك من بعدك إلى يوم القيامة**»، وبين في القرآن أنهم تحيتهم في الجنة، فهي تحية موضوعة من ابتداء الخلقة إلى عمر غاية، وقد روى ابن القاسم عن مالك في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:10] أي: هذا السلام الذي بين أظهركم تتقابلون به، والقولان محتملان والأول: أظهر؛ لأنه ظاهر القرآن والله اعلم، انتهى.

وذكر الآية عقب الصلوات فيه إشارة وبشارة؛ فالإشارة: كونها تشير إلى الختام بلفظ آخر فناسب ذكرها آخرها، وأيضًا: فإن المصلي عليه آخر النبيين المفضلين لديه فناسب ذكر هذه الآية، والبشارة: كونها من أهل الإيمان الذين هداهم ربهم وأحلهم دار الإحسان، وما حصل لهم ذلك إلا بواسطة زين المهالك، وقد أخبر أمته المرفوع لهم به قدرًا أن من صلى عليه مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، ومن صلى عليه الله رحمه، ومن رحمه أدخله الجنة فكأنه يبشر تالي هذه الصلوات بدخول الجنة، انتهى.

وقد اتفق لي مرة أني لما وصلت مع الجماعة إلى تلاوتها استعجلت؛ فبينما أتلوها على هذه الكيفية، إذ أغفلت عيني فسمعت من يقول: لم تعجل في قراءة الصلوات النبوية؛ فصرت أمهل في قراءتها؛ إذا وصلت إليها من ذلك اليوم.

قال المصنف ﷺ: **[ثُمَّ يَقْرَأُ الفَاتِحَةَ لِحَضْرَتِهِ ﷺ وَلأَصْحَابِهِ وَآلِ بَيْتِهِ الْكِرَامِ وَلأَهْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلِمُنْشِئِ هَذَا الوِرْدِ الشَّرِيفِ ثُمَّ يَشْرَعُ فِي قِرَاءَةِ المُنْبَهِجَةِ وَهِيَ هَذِهِ]**:

قال الشارح ﷺ: **(ثُمَّ يَقْرَأُ الفَاتِحَةَ سِرًّا فِي نَفْسِهِ وَيَدْعُو اللهَ بِمَا يُحِبُّ وَيَهْدِي)**[1].

قال في «المختار»: والهدية واحدة الهدايا، يقال: أهدي له وإليه، والتهادي أن تهدي

(1) زيادة من نسخة في المتن.

بعضهم إلى بعض، وفي الحديث: «تهادوا تحابوا»[1]، انتهى.

قال المناوي -رحمه الكبير- في «الكبير»: قال ابن حجر: تبعًا للحاكم إن كان بالتشديد فمن المحبة، وإن كان بالتخفيف فمن المحاباة وذلك؛ لأن الهدية خلق من أخلاق الإسلام دلت عليه الأنبياء، وحثت عليه خلفاؤهم الأولياء تؤلف القلوب، وتنقي سخائم الصدور، وقال الغزالي: وقبول الهدية سنة؛ لكن الأولى ترك ما فيه منة، فإن كان البعض تعظم منته دون البعض رد ما تعظم، انتهى.

وعنه ﷺ: «تهادوا تحابوا وتصافحوا يذهب الغل عنكم»[2].

وعنه ﷺ: «تهادوا تزدادوا حبًا، وهاجروا تورثوا أولادكم مجدًا وأقيلوا الكرام عثراتهم»[3].

وعنه ﷺ: «تهادوا الطعام بينكم، فإن ذلك توسعة في أرزاقكم»[4] وعنه ﷺ: «تهادوا، فإن الهدية تذهب وحر القلب، ولا تحقرن جارة لجارتها ولو بشق من سن شاة»[5].

وعنه ﷺ: «تهادوا، فإن الهدية تذهب بالسخيمة ولو دعيت إلى راع لأجبت ولو أهدي إليَّ كراع لقبلت»[6].

وعنه ﷺ: «تهادوا، فإن الهدية توجب الحب وتذهب بنوائل الصدر»[7].

وعنه ﷺ: «تهادوا، فإن الهدية بالسمع والقلب»[8].

قال المناوي -رحمه الله تعالى- وفي رواية: «بالسمع والبصر»؛ أي: قبول الهدية تورث محبة المهدى إليه للمهدي؛ فيصير كأنه أصم عن سماع القدح فيه أعمى عن رؤية عيوبه ومنقصاته؛ إذ النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، ومن ثم حرم على القاضي قبولها، وعنه ﷺ: «الهدية تعور عين الحكيم»[9] قال الشارح؛ أي: تصيره لا ينظر إلا بعين الرضا فقط وتسمى عين السخط؛ ولهذا كان من دعاء السلف: (اللهم لا تجعل لجاعل

(1) رواه البيهقي في سننه الكبرى (9/ 169).
(2) ذكره المتقي الهندي في الكنز (6/ 110).
(3) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (2/ 116).
(4) رواه ابن عدي في الكامل (6/ 7).
(5) رواه الترمذي (4/ 441).
(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (6/ 479).
(7) لم أقف عليه.
(8) لم أقف عليه.
(9) رواه الديلمي (4/ 335).

لتاجر عندي ذمة يرعى منها قلبي فيصير كأنه أعور)؛ أو هو كناية عن كون قبولها؛ يعود عليه بالذم والعيب؛ أي: إذا كان حاكمًا، قال ابن الأثير: يقولون للردى من كل شيء من الأخلاق والأمور أعور، ومنه قول أبي طالب لأبي لهب لما اعترض على رسول الله ﷺ في إظهار الدعوة: يا أعور ما أنت، وهذا ولو لم يكن أبو لهب أعور، انتهى.

ولا ينبغي قبولها من كافر؛ خوفًا من ميل القلب له بالمودة والمحبة، وإذا كان الكريم لا يرضى بحمل أثقالها من مثله؛ بل يسعى في مكافأته بأضعاف ما أهدى، كيف يقبلها من كافر ذميم؟

والله تعالى يقول في كلامه القديم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:22]، ومن ادَّعى أنه يقبل ولا يميل فهي دعوى من غير دليل ثوابها؛ أي: ثواب الفاتحة؛ أي: ما له في مقابلة قراءتها من الأجر والجزاء، قال في «الصحاح»: والثواب جزاء الطاعة وكذلك المثوبة، قال الله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة:14]؛انتهى.

(**ولمؤلف هَذَا الوِرْد**)؛ أي: من صفه، ومصنفه من النعت بين الشيئين تأليفًا فتآلفًا ليكون التالي كافأه على ما أسداه إليه ففي الحديث: «**من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»[1]، وعنه ﷺ: «**من أسدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها فدعى عليهم استجيب له**»[2] وقد قالت الأشياخ: ينبغي للمزيد وأدام فتوجه بقوله: أقمت أمامي في الحقيقة فالورى قدامي، وكانت حيث وجهت وجهي، وحكي الأكبري قدس الله روحه: فبعلو المقام يعلو المشرب، وبعلوه يعرب المعجم، ويعجم المعرب، وشرب المريد من شرب إمامه فمن صفى شرب شيخه صفت أقداح مداده، وكم من شيخ وفي بصدق مريده فعثر به على تفريد التوحيد وتجريده، فإن المريد إذا صدق في طلبه فتح الله على قلب شيخه ما فيه ترقيه ليحظى بأدبه، وربما صار المسقي في هذا المقام ساقيًا، والمرقي بالمرقي راقيًا، والمريد مراد، أو المنادي مناديًا، أو الأسير سالكًا،

---

(1) رواه ابن حبان (8/ 199).

(2) ذكره المناوي في فيض القدير (6/ 61).

والمملوك مالكًا.

وقد أنشأ هكذا المعنى الفارضي قدس الله روحه الذكية، عن نفسه في «شرح اليوسفية»: أنه كان يتأدب أولاً بأشياخه، ثم إذا تقدم عليهم يتأدبون معه؛ إعطاءً للرتبة حقها، ومع هذا فللشيخ حق التقدم والإرشاد فالمريد وإن تقدم عليه رعاية أدب الأستاذ؛ فكما لا تزول الأبوة لا ترتفع البنوة، وإذا ثبتت لوازمها.

وينبغي للمريد الراغب في قرب الدار، ورفع الأستار عن وجوه الأبكار إذا رأى الحبيب وفقه للقيام في الأسحار، وأوقفه بين يديه يناجيه بلسان الافتقار والاضطرار أن يشكر مولاه على ما أولاه، ويشهد الفجر عن شكر الستار، ومن تمام شكر العزيز الغفار شكر من وصل إليه هذا الخير على يديه، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، وهذا مقام الكامل الأواه، ومن شكره الدعاء له ظهر في الغيب بالخلاص من ضيق الأقفاص الموقعة في الريب والغيب، وفي دعائه له دعى لنفسه، فإن الملك يقول له: ولك مثل ذلك.

والإيثار من صفات الأخيار، ومن إذا رأى محتاجًا إلى الدعاء يؤثر إخوانه وشيخه، ويهمل الدعاء لها لما فيه من شائبة الحظ والطريق، تخلق بأخلاق أولئك الفريق، والتصوف خلوة، فمن زاد عليك في التخلق زاد عليك في التصوف، وإذا عمل المريد بما علم أورثه الله علم مالا يعلم، وخلقه بأخلاقه، ومن عليه بإطلاقه، فإن من تخلق بأخلاق الله كان من أهل اصطفائه وولاه، وقلت في هذا المقام: فمن ظن الطريق يسافر فيه بغير تخلق لا تصطفيه فإن القوم بالأخلاق ساروا فطاروا؛ لذا قال بعضهم:

خـلي الـبال مـن شـغل التـصابي   ملـئ القلـب مـن وصـف الـسفيه

فجـد وجـد وقـل للـنفس جـدي   عـسى مـن تجهلـيه تعـرفيه

وللعهـد الـذي لا فـصم فـيه   لـه وفي حـذاري تخلقـيه

فمن جد وجاد وجد، ومن وجد قلبه سجد، ومن سجد قلبه انجذب.

وأنشد من أرشد ابن الفارض الأسعد:

فمَـنْ لم يجُـدْ في حُـبِّ نُعـمٍ بنفـسِهِ   ولـو جـاد بالدّنـيا إلـيه انتهـى الـبُخل

فلا بُدّ أن يجتنب البخل بل يلزمه أن يجود بروحه وماله وحرامه وحلاله.

والحرام النفس، والهوى، والدنيا، والشيطان، والحلال الروح، والسر، والقلب المصان، والحرام المطلق وقوف السالك مع أولئك، والحلال المطلق سيره مع هؤلاء الملائك؛ ثم يشرع؛ أي: يبتدئ التالي في قراءة «المنبهجة»، وتقدم وجه تسميتها بذلك.

ووجه المناسبة بين هذه الآية، وأول القصيدة: إن هذه الآية من كلام أهل الجنة، فإذا سمع المشتاق حن إلى تلك المنازل التي نورها فاق، ويتذكر أن تلك المواطن لا تنال إلا بصفاء البواطن وصفاؤها لا يدرك بالأماني؛ بل بالكد والجد دون تواني، فيرجع من دائرة الكسل والبطالة، ويزاحم إبطاله، ويقوم على أقدام الطلب ساعيًا لحمى الحبيب كي ما يبلغ الأرب.

وكان المؤلف -رحمه الله تعالى- لما علم أن سامع هذه الآية يجعل الله له في قلبه على نيل القرب من ربه آية تلاها على أسماعه؛ ليحرك ساكن الساعة، ثم قال: إن أردت إدراك الفائت، ووصل من تهواه قم نحو حماه واعبد كأنك تراه، وأضرم في الفؤاد نيران الاجتهاد، وقم من غفلتك، وأيقظ جوارحك لطلب بغيتك، فإن من أشغله المنام بعد عليه المرام، ولم تضرب في ساحة القرب له خيام، ولم ينعقد عن الغير منه صيام؛ حيث ثبت له فيه الهيام، وكان غافلًا عن المطلوب في الجلوس والقيام، وهذا حال من لم يطلب، فلم يبلغ لفقد الصدق المطالب، ووجد هوى له مقيد وعليه غالب، ومن كان كذلك أيها الطالب لم يحصل على مطلوبه في الغالب.

واعلم أن طريق القوم الذين هم في بحر اليقظة عوم، أو في بر الانتباه حوم عزيز صوم، اليوم فيه بألف يوم، والنوم فيه أفضل من قوم برفع اللوم، وعلامة الصادق أن ينصبغ بحلية أهله وهو ابن يوم، هو سلم به مرتقي الكثيب، درج التقريب، وينفتح له فيه باب التهذيب والتأديب، فيدخل منزل التثبيت، ويبدي كل أمر عجيب؛ ثم يرتقي عنه لنادي التأهيل والترهيب فيتلقونه أهل بالتوقير والترحيب، وهنا يلصق بالتنقيب على كل سر غريب؛ ثم لازال يرتقي على التدرب والترتيب إلى حين مشاهدة القريب في الكثيب وبعده، فالسر لا ينقطع للعدم انقطاع إمداد المجيب، لكن الطلاب وإن كثروا فالصادق النجيب عزيز وجود غريب، وليس كل طالب مسلوب صب صبيب، ولا كل مسلوب مخطوب رقيب، ولا كل مخطوب موهوب حال مهيب، ولا كل موهوب محبوب حسيب،

وسلوك الطريق بالحال، لا بسفساف المقال أيها الأديب، كله جد ما به مزاح؛ إذ هو كما قيل مزاح.

وقلت:

يـا مـن ظـريف القـوم رام سـلوكه لـدى حمـار حمـال بي مـزاحا

جـود سـيوف العـزم أن تهـوى اللقـاء فالـسير جـد لا تـشبه مـزاحا

وإذا قام سوق طلبك أيها المريد على ساق، وأقامك الحق من فراش الغفلة إلى محراب اليقظة، وساق، فليكن شهوتك قيامك به؛ لتفيق من رقادك، ويزول عنك كل مشتبه، فكم من قائم بنفسه نائم في سيره، لكن الطلاب وإن كثروا فالصادق النجيب، وكم من نائم عما عليه أبناء جنسه عزيز وجود غريب عن معارج قدسه، قائم يستقي من كؤوس تقريبه، وأنسه، وكم من قائم بربه قائم عن شهود غير حسه، وكم من نائم عن سدرة قربه، قائم بهواه مشغول بهمه، وكربه.

ولما كانت الجنة محفوفة بالمكارة والنار بالشهوات قال لطالبها: أتاركك الزهو خوف الوقوع في الهوات، قم نحو حماه لتدرك ما فات، وتنجو من الآفات، وقد جرى القلم حكم ما سطره القلم بهذه الأبيات، من غير إرادة مني لذلك حتى كان في الإثبات لها مقهور لحكمة يعلمها المالك، وهي هذه النهضات، قم للمكارة تاركًا الشهوات إن رمت أن تنجوا من السهوات، نحو الحمى يحم لعلك تحتمي، والعيش كل العيش في النهضات، بادر له قبل الفوات وخوف أن تقصيك عنه موانع الآفات، ودع التكاسل والتواني لا تقل عسى يا باغي القربات، وحياتك التسويف ليس بنافع بل ذاك ذا أعظم الداءات، كيف المطال وأنت تعلم أنك آل لمأمور بالإقبال في الأنات، والذي مضى ما كان قط براجع، وأقبل لتدرك سائر اللذات، طرق الحبيب كثيرة وطريق ترك النفس ذا من أقرب الطرقات، فانهض قربك لا بنفسك تحتظي بشهوده في معظم الأوقات، يكفي زمان قد مضى بتلهف للغير لم يكسب سوى الحسرات، واسمح بكل الكل واخرج عنك مل هونا فالأخذ الكأس والطاسات، واشرب إذا الساقي أدار مدامه صنت عن الأغيار في الحانات، تحكي الشموس بشعشعا في نهار وها فكن ما إن حييت موافي، وإذا قبلت بها ستحيا باللقاء وترى تجلي حضرة الحضرات، وتفك رمزًا معجمًا لم يدره إلا فتى قد غاب في

الغايات، بعزيمة تسموا على الغرامات، وترى الملحية تتجلى في خدرها، تسقى الظوامئ في الشمس في الحانات، يا مقعدًا ما سار نحو خيامها، قم نحو حي النفي والإثبات، والزمه كي تدخل به حصن المنى فيعود محمياً من الماهات، وإذا بدت ذات الخمائل بتجلي فاشطح إذا لم تستطع لثبات، فجمالها يقضي بسلب محبها وجلالها يقضي إلى الرحات، لا يستطيع الصب صب قد رأى ليلاء تجلى في بديع صفات، فبحقها حال المتيم كيف لو تبدوا عليه في التجلي الذاتي، كانت له تقي وعن حكم الفناء حتى يعد به من الأموات، ما هذه الغفلات يا راج الهدى تبغي الوصال وأنت في النزهات، هيهات أن يرقى حي البقاء، أو ليسقى من خمرة الحالات، إلا فتى خلع العذار ومحرمًا أمشي به سكرًا من الميقات، وبكعبة التحقيق طاف وحجره سبقا وأجرى أدمع العبرات، وإلى المقام لحمى ثعلب موقن يرجوا النجاة به من الغفلات، ولمروءة الأذكار روضة سرها قد قام يسقى من مخاف فوات، ولمروءة الأذكار روضة سرها يسقى فيبصر من جميع جهات، وعلى على عرفات معرفة اللقاء وسقى هناك عين حياتي، وأتى مني وله بها حصل المنا لما الغنى اختصه بهبات، ورمى جمار النفس في عقباتها فنجي بذا من حرقة الجمرات، والنفس ذكاها بذبح صفاتها، فذكاؤها يأتيه بالثمرات، هذا القيام أخا الهيام فلا تنم عنه تفز بغرائب السكرات، وله فسر بالابتهاج فإن من يأتيه حل بجنة الجنات، يأتيه حل بجنة الجنات نلنا به العالي من الدرجات، والآل والأصحاب ما شاذ شذًا قم للمكارة واترك الشهوات.

قال المصنف ﷺ: والقصيدة المشار إليها والمعول عليها هي هذه:

قُمْ نَحْوَ حِمَاهُ وَابْتَهِجْ وَعَلَى ذَاكَ المَحْيَا فَعُجِ

قال الشارح ﷺ: هذه القصيدة من بحر الجنب وهو السادس عشر، وقد أهمله الخليل، وأثبته الأخفش، ويسمى أيضًا: المتدارك، ووجه تسميته بالجنب قصر أجزائه، وتقطيعها يحاكي في السمع ركض الخيل، وحنيها، وتفصيله، فأعلن ثمرات مراتب،

وزحافه الخبن، وهو حذف الثاني الساكن فيصير فعلن، فإن سكنت عينه، فقيل: بالإضمار بعد الخبن؛ وهو إسكان الثاني المتحرك، وقيل: بالقطع حذف ساكن الوتد، وإسكان متحركه، وقيل: بالتشعيب؛ وهو حذف متحرك من وتد فاعلاتن.

وتقطيعها، قم نح/ وحمى/ واوب/ تهج/ وعلى/ ذاك ال/ مح يا/ فعج/.

(قُمْ): فعل أمر، والخطاب للحاضر في الذهن، أو الحس من الخطاب؛ أي: قم أيها الطالب الذي أقعد عن السير؛ لاشتغاله وقلبه ولبه بالغير، وغفلته عن طريق السعادة وغيبته عن غيب الغيب بعالم الشهادة ممتثلًا أمر ربك في قوله المتين: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]؛ أي: طائعين.

وفي الحديث الشريف: «**قال الله تعالى يا ابن آدم قم إلي أمشي إليك، وامش إليَّ أهرول إليك**»[1] رواه أحمد عن رجل.

والمراد من القيام هو الوقوف على أقدام الذل التام مع التجرد والغيبة عن جميع الأنام قلبًا وقالبًا؛ لبلوغ المرام، والتوجه إلى القادر العلام على الدوام في السير إذا السير إليه بقطع سهول وأعلام؛ بل هو أمر معنوي يدركه الساري بالذوق والأعلام، وإذا تحققت أيها المريد أن الولي الحميد بدل اللازم الذي ليس عنه محيد، فخذ عنق التعلل بعسى وسوف، واجعل مرادك الرجاء الممزوج بالخوف. (نَحْوَ) أي جهة وناحية، فإن لها سبعة معان نظمها بعضهم، فقال: للنحو سبع معان قد أتت لغة جميعها ضمن بيت مفرد كملا، قصد، ومثل، ومقدار، وناحية، نوع وبعض وحرف، فأحفظ المثلا. (حَمَاهُ) الضمير لله، معلوم من المقام، والحمى من قولهم: أحميت المكان؛ جعلته حمى، فهو محمي؛ أي: محظور على غير مالكه، وفي الحديث: «**لا حمى إلا لله ورسوله**»[2].

قال المناوي -رحمه الله تعالى- أي ليس لأحد الرعي في أرض مباحة، واختصاصه به كما كانت الجاهلية تفعله، قال الشافعي ﷺ: كان الشريف منهم إذا نزل بعشيرته بلدًا استعوى كلبًا فحمى خاصة بد من عواه، فلم يرعه معه أحد، فنهى الشارع عن ذلك؛ لما فيه من التضييق على الناس، وتقديم القوي على الضعيف.

ثم قال: وتفصيل المذهب أنه له ﷺ الحمى لنفسه، ولغيره، وللأئمة، وللمسلمين، لا لهم، كما حمى عمر البقيع؛ لنعم الصدقة وخيل الغزاة، وأما الآحاد فلا لهم ولا لغيرهم، هذا هو المصحح عند الشافعية، وعليه أبو حنيفة، ومالك، وتمسك البعض بظاهر الخبر؛ فمنعه لغير رسول الله ﷺ مطلقًا، وأجيب بأن المعنى الأمثلي مثل وأحمى رسول الله ﷺ من

---

(1) رواه أحمد في مسنده (32/ 104).

(2) رواه ابن حبان (1/ 345).

مصالح المسلمين، انتهى.

وعنه ﷺ من حديث: «ألا وإنّ لكل حمى ألا وإن حمى الله محارمه»؛ أي: المعاصي التي حرمها، ومنع التقرب منها؛ كالكبائر والصغائر، غير أن المنع عن الأولى أشد، وآكد، فمن ارتكبها استحق العقوبة، ومن ارتكبها ابتغاء مرضات الله تعالى نال المثوبة، وحمى الحق هو منزل التقريب المصان مقام الاستواء دون ميل مع غير، أو سوى؛ لكن نعت الجلال أقرب إلى السلامة من الجمال المؤذن بالكرامة، فإن كل جلال يعقبه جمال، وبالعكس دون احتمال؛ إذ هما حالان يتعاقبان على القلب، هكذا أجرت عادة الرب، والجامع بين المقامين من غير احتجاب بواحد عن ثاني، هو الجامع الفارق، والهاء مع إمداده الطارق بين المعاني.

يحكى أن الشبلي الإمام دخل على شيخه الجنيد المقدام وهو يصفق فرحًا بنظر الحق إليه، وتوالي الأعمال الصالحة عليه، فصبر حتى أفاق من سكرته، وهب من رقدة غفلته، وقال له بعد ما أخبره عن سبب فرحه، وذهاب ضباب ترحه: لا تخلوه من أحد أمرين؛ إما أن تكون داخل الحضرة، أو خارجًا عنها، فإن كنت خارجًا فإذا حصلت، وإن كنت فيها فهذا ليس من الأدب، فقال: أتوب يا أستاذ، فقال: تب والسلام، أو معنى هذا الكلام.

(وَعَلَى ذَاكَ)، ذا: اسم إشارة، والكاف للخطاب، ويؤتى بها للبعيد، كما هو في القطر الذي هو أرق من القطر، وأحلى من القطر المذاب (المَحْيَا)؛ أي: الحياة المسفرة بكل جميل، والكاشف بنورها عن كل مقام جليل؛ أي: وعلى ذاك الحياة الذي خص به حمى الجميل أيها النيل.

(فَعُجِ)؛ أي: فانعطف عليها، وأقم بها؛ إذ هو من عجت البعير أعوجه عوجًا، ومعاجًا، إذا عطفت رأسه بزمامه، وعاج بالمكان: أقام به، وهو بضم العين؛ لأنه من عاج يعوج، والأمر يأتي بما يأتي منه المضارع، وهذا الوجه المحياي الوجيه وجه مزاجه لكل نبيه مواجه من كل الجهات وجه رأيه، منتج للنجاة من الشبهات، ولما علم المؤلف أن قصد هذا الحمى الذي يذهب الظمأ، ويورث النماء لا يكن بدون العلائق، ورفع العوائق، وترك الأكوان بما فيها، وعدم الاشتغال بكدرها، وصافيها ناسب أن يرشد طالب دخول حمى الأمان؛ للنجاة من آفة الامتنان بقوله: ودع الأكوان؛ جمع كون؛ أي: اترك شهود

المكونات التي توقع في الهزال، واقصد منشئها الباقي الذي لم يزل ولا يزال، وأطلق نعم كل مكون، فدخلت الجنة بما فيها على القول بوجودها الآن، فلا تلتفت لرياضها الحسان، ولا حورها، ولا الولدان، فإن الوقوف مع شيء في هذه الطريقة قاطع للمريد عن السير في المقامات الوثيقة، ومع وقف مع حادث أحدث، ويلزمه التطهير بماء الإنابة، وسرعة الرجوع بخضوع وخشوع وذلة وكآبة.

وقلت: إن نظرنا مع حبنا أكوانا بلظى البعد حبنا أكوانا، وإذا لم نشهد هنا ألوانا لم يكن عاذل الهوى ألوانا، والذي بالجميل قد أولانا هو بالحمد والثناء أولانا، فالوقوف مع الأكوان بطريق الاستناد، أو الاعتماد، أو الاستحسان كل ذلك مانع من الرجحان في ميزان الخسران، وهو يقتضي الميل إليها، والحب فيما له بها، والحب يقتضي العبودية، والحق لا يرضاها منك إلا بنية صافية وافية، تعس عبد الدرهم والدينار، فإنهم تجردوا من الأكدار، فليدع الميل للأكوان، واستحلاء العادات الحسان عند نفوس حجبها الران عن مطالعات العيان أشد ضررًا بالقلوب من لدغ الدنانير، وأعظم في استجلاب الكروب؛ إذ مرض الجسم الذي بالذنوب منعوت أخف وطأة من مرض القلب الذي هو محل تجلي علام الغيوب.

ألا ترى سيدنا أيوب المخاطب الخاطب المخطوب، كيف قال لما وصل الدود إلى قلبه الموهوب بأسرار تطرب من ليس بمطروب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] فلما علم الله تعالى منه رغبته في عدم شغل قلبه عنه قال ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:84]، فالعاقل من عادى كل ما أشغله عن ربه، ولو كان الشاغل أعز محبوب من أهله وحزبه قال الله تعالى: حكاية عن الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا، أوفى صلاة وأوفر تسليم ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، فقاطع كل ما ألهاك عن مولاك، وواصل من قربك منه وأدناك، فإنه ما خلقك إلا لأجله، فلا تلتفت إلى غيره وأنت غزير بحر فضله، ولا تجنح في السر لسواه، وكن أواهًا في الحب حاملًا لو أهواه، ومما يعينك على ترك ملاحظة الأكوان حبك ارتقاء درج الرضا لحلول طلول العيان؛ فإذا أذبت خميرة خمره الوداد ساقتك باعثة الجذب إلى مواصلة السهاد، ومقاطعة ما يوجب الإقصاء والإبعاد، ولم يد الحب تسوقك حتى تلوح

في آراضي الفتوح بروقك، وهناك تخلع العذار، وتركع في جامع الانكسار ركعات الإنابة والاعتذار، وتبسط في محراب الابتهال أكف الضراعة مجريًا للدموع؛ كالسحاب الهطال وتستوحش في ذلك المحال من الأنيس، ويجعل في هذا المحال قوت روحك التسبيح والتقديس، وتجلس على بساط المباسطة، وتعرف سر الرابطة والواسطة، وتتوالى عليك سوابغ سوائغ النعم، وتعد ما مضى من عمرك سهلاً، وأنت من النعم، وتشهد بالشهود الذوقي العياني ما لا يفي به قلمي ولا ينطق به لساني، ولما كان الاقبال الكلي لا يكون إلا بالمدد الآلي، ولا تلوح اللوائح إلا بعد انتشاق العبير الفائح ذلك علي ما يساعدك في قطع المفاوز، وما به المفاوز، وما به المخاوف، والمتآلف تجاوز.

قال المصنف رحمه الله:

وَدَعِ الأَكْـــوَانَ وَقُـــمْ غَـــسَقَا وَاصْـــدُقْ فِي الـــشَّوْقِ وَفِي اللَّهَـــجِ

فقال الشارح رحمه الله: (وَدَعِ الأَكْوَانَ)، فإن من طبعت صور الأكوان في مرآته أحالت بينه، وبين الفوز بعظيم تجلياته.

قال ابن عطاء الله أمدنا الله بإمداداته: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل في شهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جناباته؟ أم كيف يرجو أن يفهم حقائق الأسرار ولم يتب من هفواته؟.

واعلم أيها الأخ في رضاعه لثدي الإسلام بلغك الله منزل السلام، ورزقك الاستسلام أن الطريق أوله تخلي، ويعبر عنه بمحو نقوش الأكوان من مرآة الفؤاد، فإن الكتابة فوق الكتابة لا تجدي نفعًا ولا تبلغ المراد، وأنشدوا:

إذا مـــا جـــئت تطلـــب دار لـــيلى بغـــير طـــريقها وقـــع الظـــلال

ومـــرآة البـــصيرة كـــيف يـــبدوا بهـــا يـــشق ومـــا حـــصل الـــصقال

فلا يزال الطالب بين محو، وإثبات تارة في الأفعال، ومرة في الصفات، وأوبه لا يقف عند مرتبة من المراتب، ولا يعرج على نقاش، ولا كاتب تعد بصر بصيرة؛ فلم يحجبه شهود الفعل عن الفاعل في كل ذرة، ولم تلهه الكثرة عن الوحدة بل؛ درج عرفانه في كل ذرة ذرة؛ فكلما نقشت أيدي الأوهام في قلب سطورًا محاها بصدق الالتجاء؛ فعاد لوح

سره بعد الظلام نورًا وأوسطه التجلي بكل كمال، والتزين بلباس الجمال في كل مقال وحال ومال بتجلي عما يشين، ويتجلى بما يزين فمن تجلي عن صفاته تجلي بسني إمداداته وصفاته، وهناك يتأهل للتجلي، وينعم عليه بالتملي فتهلكه تلك الأنوار، وتعنيه فضلًا عن الأغيار؛ فيمحي بعد صحوه، ويصحو غيب محوه، ويمحي ويصحو في صحوه ومحوه؛ فيعود صاحيًا ماحيًا؛ لجمعه بين الأضداد في منزل الأشهاد، وهذه ثمرة الخروج عن الأكوان، والدخول في حظائر العرفان مرتقيًا للتلقي مرتقيًا منبر الترقي منتظرًا بزوغ شمس اللقاء؛ حيث بان في البان بان الارتقاء، ولاح في النقاء علم النقاء والنقي.

(وَقُمْ غَسَقًا) أصل الغسق؛ الامتلاء، يقال: غسقت العين؛ امتلأت دمعًا، وقيل: السيلان، وغسق الليل انصباب ظلامه، وغسق العين سيل دمعه، ذكره القاضي، وهو منصوب على الظرفية الزمانية، والتنوين فيه عوض عن الإضافة؛ إذ أصله غسق الليل؛ أي: قم في وقت هجوم الظلام وانصبابه، وخص هذا الوقت بالذكر وخص عليه؛ لأنه غفلة الماهر، ومحل الخلوة لسر التنزل الباء، وتقدم في الخطبة والورد والكلام على السحر، وما اختص به من إمدادات فيضها للعقل سحر.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: من قام بالأسحار، ولزم فيها الاستغفار كشف له عن الأنوار، وأسقى من دن الدنو من خمار الخمار، وأطلعت في قلبه شموس المعاني والأقمار فيا ولد قلبي اعمل بما قلته تكن من المفلحين، واعلم أن الظلمة تضبط الحواس وتجمع همة القائم فيها المستوحش من الناس، وقد استحب الأشياخ أن يكون الذكر في عتمة ليلاً يستنير البصر؛ فتنصرف الحواس الظاهرة، ويبطل عمل الباطن الفاخرة، وربما ظهر للذاكر لمحة من لوائح الكشف، ولا تظهر أولاً إلا في غمة حتى تشتد وتقوى، وأول ما يقع للسالك اللوائح؛ ثم اللوامع؛ ثم الطوالع، وهذه للسالكين من أهل البداية ترد على بواطنهم أنوارها، وقد تظهر في الحس آثارها فيستوحش أولاً منها؛ ثم إذا ألفها حن إليها، وسأل في يسره عنها حال غيبتها، وإذا فرغت شمس المعرفة في سماء الفؤاد غربت نجوم تلك الأحوال السداد، فإنها ترد للتقوية والتمكين لأهل التلوين.

وأما أرباب اليقين فقد خلفوها وراء ظهورهم لما لمعت نور المعرفة في صدورهم، **والأولى**: سريعة الزوال، **والثانية**: أثبت، **والثالثة**: أشبه ثباتًا بقوة المحال، ولا ينبغي

الوقوف لديها ولا الشفوف إليها، وأشار بقوله: وقم غسقًا إلى إخفاء الأعمال؛ فيكون كتم الأحوال من الباب الأولى، فإن عمل السر أزكى لقربه من الإخلاص وتقريبه من دائرة الاختصاص هذا في الأول، فإذا صفت السرائر، وتنورت الضمائر، وصحت النيات، وصحت النفوس من سكرة توجب كبات، والأحوال المرضيات للبريات بقصد الإرشاد.

ومن هنا كان سيدي أبو مدين ﷺ يقول لأصحابه: أعلنوا بالطاعات كما يعلن أحدكم بالمعاصي فلكل مقام مقال، وكل مجال رجال فألحقا فيه الشفاء؛ سيما لأهل البداية من طلاب الهداية، وذلت بالموارد نفسه وزال حجبه وانمحى لبسه، فإن كتم نسمات الإحسان تدل على وسع البطان.

فإن قلت: أما سمعت أيها المحدث قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، قلنا: نعم، ويكفي في العمر مرة؛ كما وقع لثاني الخلفاء فيه الشفاء -قدس الله سره- حيث صعد المنبر وحمد الله وشكر، وأخبر أنه أفضل من على الغبر أغبر، ويكفي المريد ذكر موافقة لمربيه، فإنه لا يخفى عليه شيئًا من ظواهره وخوافيه، ولما كان القائمون أول الليل للتعبد كثيرين، وفي آخره كذلك، وفي الوسط قليلين دله على القيام وقت انصبابه؛ لأنه محل الوقدة الطيبة؛ فمن خالف هواه وقام فيه لربه لن يخيبه، والقيام لا بُدَّ له من باعث إما الغرام، أو الخوف، أو الرجاء، أو الأنس، أو وجود اللذة وفاء بحقوق الجذبة.

فلذا قال: (وَاصْدُقْ) بضم الدال وهو ضد ويدخل في الأقوال، والأفعال، والأحوال، والصدق في جميعها هو المقصد الأسنى والمورد الأهنى، وهو سبق الله في أرضه فما قابل به مريدًا عارضًا، أو قاتل به معارضًا إلا رجع صريعًا ورد وجيعًا وهو رأس المطالب، وعليه يبني أساسه الطالب قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، وعنه ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإنه باب من أبواب الجنة، وإياكم والكذب، فإنه باب من أبواب النار**»[1] وعنه ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور وهما في النار، وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإنه لم**

(1) ذكره المتقي الهندي في الكنز (3/ 346).

بؤت أحد بعد اليقين خير من المعافاة، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادًا أخوانًا كما أمركم الله»[1] وعنه ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يتحرى الصدق، وحتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[2] وعنه ﷺ: «عمل الجنة الصدق وإذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذ آمن دخل الجنة، وعمل النار الكذب، وإذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار»[3] وعنه ﷺ: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن فيه الهلكة»[4] وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سُئل عن الكمال فقال: «قول الحق والعمل بالصدق»[5] قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ [الزمر:33] يعني: محمد ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33] يعني: أبا بكر ﷺ، ويشهد له قوله ﷺ: «دعوا إلى صويحبي، فإني بعثت للناس كافة فلم يبق أحد إلا قال لي كذبت إلا أبو بكر، فإنه قال لي: صدقت»[6] وعنه ﷺ قلت لجبريل ليلة الإسراء: «أن قومي لا يصدقوني فقال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق»[7].

وعنه ﷺ: «يا أبا بكر إن الله سماك الصديق»[8] وهذه الصيغة صيغة مبالغة في الصدق؛ كالخمير والسكير، ودرجة الصديقين أعلا الدرجات بعد النبوة، قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69] ومدح الله بها بعض أنبيائه.

فقال ﷺ المتعال: فإن ما عداه سراب وخيال، ولقد قلت سابقًا: ما سوى الحق ذلك محض خيال؛ كخيال الإزار في التماثيل صورة تنجلي وتفنى، ومنشئها فباق وراق بغير زوال

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان (4/ 195).
(2) رواه البخاري (5/ 2261). (3) رواه أحمد في مسنده (2/ 176).
(4) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (1/ 51).
(5) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (1/ 51).
(6) ذكره المتقي الهندي في كنزه (11/ 555).
(7) رواه الطبراني في المعجم الكبير (19/ 369). (8) رواه الديلمي (5/ 307).

ساهر الطرق يرتجي قرب من يحب تحظى بوصل الوصال غص بحار القباء، وعن ذاك فأفنى غائص بحير الهلاك صب اللآلئ، فكن أسير الفؤاد من قبضة النفس، وعدا عن عشرة الأنذال، وإذا ما وقعت في شرك الشرك الخفي التجئ لأهل المعالي، وأدخل الحي في أهل التصابي، وتصابى ما بين تلك التمثال، واسق من كؤوسهم ما تضفي لا تنهياً يومًا بماء الزلال، ومعاريجهم إليها، فبادر لي ترى بالعيان ذاك الجمال بغية يعشه بلوح سناها، فيريك الجمال ضمن الجمال عاليًا قدرها رفيع منيع، والتداني من حيها ذاك غالب ليست بردة الكمال؛ فتاهت عاشقوها زهوًا على الأفعال من يدق من لذيذ طعم لماتها لم يكن للقيام عن ذاك سالي برزت تتجلى لأهل المصلى؛ فمنحتهم كفي شمس الزوال ما يداني مرآتكم إن قصدت فأصفاؤها بالذكر خير صقال كي بها تنقش العلوم جميعًا، وهي منقوشة على كل حال غير أن الصدأ تراكم حتى أن تغطت فيه العلوم الغوالي، فأغمضوا العين عن شهود سواها، وانبذوا قول سائر العزال، وافتحوا أذن قلبكم فهي صمت عن سماع الأغيار؛ فالفتح جالي، واسمعوا نغمة تفوق المنالي تسحر القلب فعل سحر الخلال لا تغيبوا عنها، وطيبوا تصيبوا وجه حي يجلي بكل المحال، فأشهدوه ولا تكونوا قد أضفتم أعماركم في المحال، واتقوا حسرة البعاد فهذي حرها فوق حر وقع النبال لو عرفتم ما أنتم طالبوه، وما بخلتم بالروح والأموال رب صل وسلم وكرم على من أرشد، والتائهين للإقبال، وعلى الآل والأصحاب جميعًا من تخلوا عن غير وصل الموالي، وتحلوا بالمكرمات، وجلوا رتبة المجد في مقام عند آل، وعلى كل تابع لهداهم شاهد الغير في السوي كالخيال.

قال المصنف:

وَالْـــزَمْ بَـــابَ الأُسْـــتَاذِ تَفُـــزْ وَتَكُـــونُ بِـــذَلِكَ حِـــلَّ نَجِـــي

ثم قال سامحه الكبير المتعال: (وَالْزَمْ)؛ أي: أمر من الملازمة؛ وهي مصاحبة الشيء، وعدم مفارقته، والاعتناء به.

(بَابَ الأُسْتَاذِ)، الباب: ما يتوصل منه إلى المقصود، وقيل: هي فرجة يتوصل بها من خارج إلى داخل، والأستاذ: هو بالذال المعجمة، والتاء المثناة من فوق، وأصلها كما فرقعت في النطق؛ فقلبت تاء؛ لقرب مخرجها وللخفة ولفظه فارسي معرب؛ لأن السين والذال لا يجتمعان في كلمة عربية، وهو عبارة عن العالم الماهر في صناعته وفنه.

وقيل: هو من يكتب عنه غيره، وقيل: هذه الكلمة كناية عن حذق الأمور؛ فيؤتى بها للتعجب والمبالغة في الشيء، والمراد به هنا: الداعي إلى أنه على بصيرة والساعي بالبواعث والدواعي لتنوير البصيرة، وهو الوارث المحمدي، والحارس لشرع الأحمدي فمن لازم بابه منحه لبابه، وسقاه شرابه فبلغ أرابه.

كان أبو بكر الوارق ﷺ يقول: من علامة المريد الصادق ألا يفارق شيخه حين يدخل معه في العهد، ولا يسافر إلا إن صحت له الإرادة فهناك أوائل البركة؛ لأن صارت الشيخ تكبلت فيه، وإذا تكبلت فلا براح، انتهى.

وشاور تلميذ أستاذه في زيارة أمه فقال له: يا ولدي إن كنت تريد الجنة فالجنة تحت أقدام الأمهات، وإن كنت تريد الله تعالى فعندي فقط، وقال رجل لعيسى ﷺ: أتأذن لي في دفن أبي فقال: دع الموتى يدفنون الموتى واتبعني، أو كما قال: وإن كانت ملازمة الباب توجب الاقتراب فما بالك بمن لازم البواب مصاحبًا للآداب، والوقوف بالباب يشعر بالحاجة والإلحاح في الطلب والذل لعز المطلوب والرغب، وإذا أطلق الأستاذ والواسطة والعياذ والملاذ ينصرف لأكمل الخلق وأعظمهم في الخلق، والخلق إذ غيره النواب والورثة والخلفاء، وهو المرشد الهادي المنقذ لكل الخلفاء.

فمن أراد سلوك طريق الأخيار، والاندراج في سلك فريق الأحرار المنزهين عن الإصرار، لا بُدّ له من واسطة يستخلص روحه من سجن القطيعة، ويسقيه الرحيق المختوم في غيومه وصبوحة، ويشهده أنوار تجليات قدوسه وسبوحه على أن يلزمه في الإقامة والترحال إلى أن يبلغ درجة الكمال ملازمة الظل للشاخص، وليكن طرف القلب له ناظرًا، وشاخص السر له شاخصًا.

وقالت الأشياخ: من لا شيخ له فالشيطان شيخه، ومن لا يحسن طبخه لا يحمد طبيخه، ومن لم يحيي يحي لم يحيى أبدًا، ومن وقع عليه نظرًا لمفلح ولم يفلح لم يكن مستعدًا، ومن لم تربه الرجال فهو اللقيط السقيط في المحال، ومن لم يؤمر على نفسه أميرًا لم يكن له الحبيب سميرًا، ومن لم يخرج عن حكم نفسه ويدخل ولو تحت حكم هرة لم تتسلم له الحيرة في كل مرة، ولو بلغ المجرة في مرة حيث الهوى أمره.

فالواجب على من وجد أستاذًا، أو لاذ به ملاذًا أن يقبل عليه بالكلية، ولا يجعل

للغير في قلبه بغية، وليجعله لها مواجهًا سرمدًا؛ لينال بنور قلب مربيه الهدى، وتتوحد منه العزيمة والهمم، وهذا أصل به يقرب الطريق على من أم، وكلما قوي أدبه، واشتد حبه؛ تحقق قربه، وانزاح كربه، وعلا نسبه، وعلا حسبه، وزال عجبه، والصادق لا بُدَّ وأن يكافئ على صدقه، والكاذب يجازى على نقض عهده، وعدم رعاية حقه.

قال القشيري رحمه الله تعالى: سمعت أحمد بن يحيى الأبنودي يقول: من رضي عنه شيخه لا يكافئ في حياته؛ لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ، فإذا مات أظهر الله عليه ما هو جزاء رضاه، ومن تغير عليه قلب شيخه لا يكافئ في حياة ذلك الشيخ؛ لئلا يرق له؛ لأنهم مجبولون على الكرم، فإذا مات ذلك الشيخ فحينئذ يجد المكافأة، انتهى.

وهذا واقع لأشخاص دون أشخاص، فمنهم: من له العقوبة والمثوبة كما أخبر هذا الأستاذ، ومنهم: من تعجل له ويحفظ الله قلب المريد عن التغيير، وقلب الشيخ من الرأفة، وهذا هو الغالب، كما هو مشاهد عنه المطلوب والطالب، وتأخير العقوبة من المكر الخفي، نعوذ بالله من مكره إنه البر الخفي.

ومن كلام سيدي أحمد الرفاعي قدس الله سره: من ليس له شيخ فشيخه الشيطان، وإن المريد ينال من الله تعالى ببركة شيخه بغير ما تأدب، وحفظ الحرمة، وراقب السر، وينبغي للمريد أن يعرف لشيخه الحق بعد وفاته، كما كان يعرف له الحق حال حياته، انتهى.

وللمريد معه آداب كثيرة ومع إخوانه، وفي نفسه تكسب الشريعة، وتمنع من التحريف أفردت بالتأليف، ولو استحضر المريد ما تقدم، أو ما يأتي في شرح هذا القصد؛ حصل الغنية ونال المنية.

واعلم أن ملازمة الباب كناية عن مطابقة الآداب، والانطراح لديه، والترامي كالميت بين يديه، مع اعتقاد مهارته في فن الإرشاد، وعلمه بما يحتاج له المريد، والمراد: إذ هو أسن القلوب والأرواح، كما أن غيره طبيب الأجسام والأشباح، فيلزم من سمع منه له أمن من ذاته علاجًا أن يتعجل استعماله؛ لينبلج له صبح الخلاص من ذلك المرض انبلاجًا.

وإذا أردت أن تعرف بعض سماته لتهتدي إليه بنعوته وصفاته، فهو الذي للشريعة

الغراء موافق، وللطريقة الكبرى موافق، وللحقيقة معاين كائن باين زاهد في سوى شهوده، بازل مجهوده في مرضات معبوده، يأمر البر ويأتمر به، وينهي عن الشر وقربه، كتومًا للأسرار سهيًا عن الأشرار، أحواله أكثرها قلبية حبًا في الحق، وأفعاله وأقواله قد جبلت على منوال الصفاء، ناهجًا نهج الكتاب والسنة، لا يأخذها إلا من عين المنة، يكشف لمريده الحجاب، ويرشفه زلال الرضاب، ويخلصه منه، ويغيبه عنه، يميل به عن حظ زوال الأدلال إلى حظ ميل الاعتدال، فتحج لكعبة قلبه الأسرار، وتسعى لسره الأنوار، وكل من ألقى لديه السلاح بلغ به سبيل النجاح.

(تَفُزْ): مجزوم في جواب الأمر، قال في «المختار»: الفوز: النجاة، والظفر بالخير، والفوز: الهلاك أيضًا وبابهما، قال: وأفازه الله بكذا ففاز به؛ أي: ذهب به، وقوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران:188] أي: بمنجاة منه، والمفازة أيضًا واحدة المفاوز، قال ابن الأعرابي: سميت بذلك؛ لأنها مهلكة، من فوز تفويزًا؛ أي: هلك، قال الأصمعي: سميت بذلك تفاؤلاً بالسلامة والفوز، انتهى.

وتكون الواو للاستئناف، وتكون مضارع كان الناقصة، واسمها أنت المستتر، وخبره بحي، ويصح جعلها تامة؛ أي: ويتخلفك بما تقدم، تتصف بالوجود بعد العدم، وتحيء بتقدير أنت نجي بذلك؛ أي: بسبب ملازمة باب الأستاذ، أو بكل ما تقدم من القصيدة.

(خِلِّ) بحذف ياء النداء، والخِل: الصديق، والخليل كذلك، والأنثى خليلة، وهو بكسر الخاء وتشديد اللام، بمعنى: يا خليل، ومضى الكلام على الخليل في «الورد»، وفي «الميمية».

(نَجِي)؛ أي: نجيا، ووقف عليه مع حذف الحركة، والألف على لغة ربيعية، قال في «المختار»: نجا من كذا ينجو، نجا بالمد، ونجاة بالقصر، والصدق منجاة، وأنجا غيره ونجا، وقرئ بهما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:92]، المعنى: لا تفعل؛ بل نهلكك، فأضمر قوله: لا تفعل، قلت: وهذا قول غريب، لم أعرف أحدًا من كبار أئمة التفسير قاله غيره ـ رحمه الله تعالى ـ وقال بعضهم: ننجيك؛ أي: نوقعك على نجوه من الأرض تطهرك؛ لأنه قال: ببدنك، ولم يقل: بروحك، انتهى.

قال المصنف ﷺ:

وَاخْـــرُجْ عَـــنْ كُـــلِّ هَـــوَى أَبَـــدًا وَدَعِ التَّلْفِـــيقَ مَـــعَ الْهَـــرَجِ

ثم قال ـ سامحه الله تعالى (وَاخْرُجْ) قال في «الصحاح»: وأما المخرج فقد يكون مصدر قولك أخرجه، والمفعول به اسم المكان والوقت، تقول: ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:80] وهذا مخرجه؛ لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالميم منه مضمومة، مثل: دحرج، وهذا مدحرجًا، فشبه مخرج ذات الأربعة، انتهى.

والخروج قد يكون عن المال، ويسمى صاحبه زاهدًا، وعن الأهل والعيال للإقبال على الكبير المتعال، ويسمى صاحبه عابدًا، وعن النفس والهوى، ويسمى صاحبه مجاهدًا، أو عن رؤية العبر والسوي، ويسمى صاحبه مشاهدًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:100] وعنه ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[1].

كل من خرج عن وصف ذميم، وتحلى بما يقابله من حميد كريم، فهو في طاعة مقصودة، وعبادة محمودة؛ ولذا قال: (عَنْ كُلِّ هَوًى) أي: ما فيه ميل للنفس وحظ، والهوى مقصور، جمعه: أهواء.

قال في «المختار»: وكل لفظه واحد ومعناه جمع فيقال: كل حضر، وكل حضروا على اللفظ، وعلى المعنى، وكل أو بعض معرفتان، ولم يجئ عن العرب بالألف واللام، وهو جائز؛ لأن فيهما معنى الإضافة، أضفت، أو لم تضف، انتهى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:40 - 41].

قال القاضي -رحمه الله تعالى: الهوى ميل النفس إلى ما تشتهيه، والمراد هنا: الاسترسال في الشهوات، ومطاوعة النفس في كل ما ترومه، سمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى الداهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، الهوى عن الخير مصادر للعقل مضاد ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المودة مهتوكًا

(1) رواه الترمذي (5/ 29).

ومدخل البشر مسلوكًا، انتهى.

وعنه ﷺ: «إياكم والهوى، فإن الهوى يصم ويعمي»[1]، وعنه ﷺ: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات:

فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية، وأما الكفارات: فانتظار الصلاة بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في السبرات؛ أي: الغدوات الباردة، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[2].

وعنه ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم من هوى متبع»[3].

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره-: شاهدت محدث الهوى في بعض المكاشفات ظاهرًا بالألوهية، قاعدًا على عرشه، وجميع عبدته خائفين عليه، واقفين عنده، وما شاهدت معبودًا في الصور الكونية أعظم منه.

وأنشد في «فصوصه»:

وحق الهوى أن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

وأنشد القصيري -رحمه الله تعالى- في شرحه على «الفصوص»:

عبدنا الهوى أيام جهل وإننا لفي غفلة من سكرنا بشرابه

وعشنا زمانًا نعبد الحق بالهوى من الجنة العليا وحسن ثوابه

فلما تجلى نوره في قلوبنا عندنا رحا في اللقاء وخطابه

فمرجع أنواع العبودية الهوى سوى من يكن عبد العز جنابه

ويعبده من غير شيء من الهوى ولا للنوى من ناره وعقابه

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (3/ 126).

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (6/ 46).

(3) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (6/ 118).

ويحتمل أن يكون أراد به المحبة؛ إذ يطلق الهوى عليها؛ لأنه يستعمل في الخير والشر بخلافها، وهو بهذا المعنى حجاب؛ إذ المحبة في أوصاف المحبوب.

قال أبو يعقوب السوسي -رحمه الله تعالى-: لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء عالم المحبة، وقلت في مطلع قصيدة لهذا المقام:

حجـــاب الهـــوى عـــنا متـــى زال يـــرفع بوصـــف المحـــاق

كـــي بـــه العـــبد يـــرفع فاحـــتمل هـــوى الـــنفس المذمـــوم

أي: متى يرفع بوصف الانمحاق، ويراد به في الاصطلاح: زوال الخضر، والحد من جسمانية العبد وروحانيته معًا؛ حتى ينصرف في العناصر وغيرها بحيث يرى البعيد كالقريب، وتطوى له الأرض والزمان المديد الرحيب، ويسمع تسبيح الأملاك، ونغمات الأفلاك.

وهذا ليس من مقدور البشرية، بل هو من فيض تجلي الألوهية، فإذا أراد الحق أن يشهد عبدًا من عبيد الاختصاص محق صفاته، وأبد له صفات قدسية يمكن بها إدراك ما أراد من أمور غيبية، وأسرار إنسية، فيتحقق عند ذلك بصفة المحق للآن والأنا، وهذه سابع رتبة يدركها السالك من رتبه مقام الفناء.

والمعنى: إذا أردت أيها المريد أن تدخل نادي النداء، وتجلس على منصة من أجاب النداء، وتلج في ميادين من قمر العداء وصعد درج الاهتداء، فاندرج في درج السعد، فانهج مناهج من اقتدى حتى عبر منزل الانتهاء بعد الابتداء، وأخرج عن كل هوى أبدًا؛ أي: دائمًا سرمدًا دون انقطاع؛ ليحصل لك الانتفاع والارتفاع.

(وَدَعِ التَّلْفِيقَ) مصدر لفق، قال في «المختار»: واللفق: هو أن يضم شق ثوب لآخر فيخطهما، وبابه نصر، وأحاديث ملفقة؛ أي: أكاذيب مزخرفة، انتهى.

والمراد به: أن يضم لها طريقه ما ليس فيه من طريق آخر، فيكون كمن يلفق في المذاهب، وهذا لا يصح بإجماع، وكذلك من لفق من طريقين أو أكثر ما وافق هواه لا يسمى سالكًا، فإنه لم يوف الطريق حقه، ولم ينل من إجهاد نفسه إلا المشقة، وطول الشقة.

نعم، من سلك طريقًا، ولم يجد للفتح لمعًا، ولا للفضل بريقًا له أن يطلب غيرها، فإن المقصود السير، والسلوك، والتدرج في منازل التحقيق والقرب من ملك الملوك، وكل

طريق لا يوصلك لذلك؛ فلا تقف عندها أيها السالك وزن بميزان سير أحوالك، فمهما رأيت الزيادة فاشكر الله المالك، وإن شهدت نقصًا فارجع إلى نفسك بالملامة في سلوك سبب التقصير الحائك، ولاية وها إلا كنت غاشًا لها بإهمالك.

(مَعَ الهَرَجِ) بتحريك الراء للوزن، والأصل فيها السكون؛ أي: ودع الفتنة والاختلاط، ويراد منها هنا: المال والأولاد لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:28]، وإن الاختلاط التعلق والاشتباك بهما، أو هو على ظاهره؛ أي: إذا رأيت الهرج الكامن بين يدي الساعة فدعه؛ أي: دع الدخول فيه ممتثلاً قوله ﷺ: «**إذا رأيت الناس قد مرجت[1] عهودهم، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا، أو شبك بين أنامله؛ فالزم بيتك وأمسك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة**»[2] رواه الحاكم عن ابن عمر.

وقد فسره في الحديث الشريف بالقتل فقال: «**إن بين يدي الساعة أيام الهرج؛ القتل، ما هو قتل الكفار؛ ولكن قتل الأمة بعضها بعضًا، حتى أن الرجل يلقاه أخوه فيقتله، ينتزع عقول أهل ذلك الزمان، ويخلق لها هيأ من الناس يحسب أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء**»[3] رواه أحمد ومسلم عن أبي موسى وعنه ﷺ: «**أنه بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر الهرج والمرج القتل**»[4] رواه الشيخان عن ابن مسعود، وأبي موسى.

ولما نصح وبالغ في النصيحة، ورشح إناؤه بكل وصية مريحة، وعلم أن هذا الزمان هو المشير إليه بقول سيد ولد عدنان: «**سيأتي على أمتي زمان يكثر فيه القراء، ويقل الفقهاء، ويقبض العلماء، ويكثر الهرج؛ ثم يأتي بعد ذلك زمان يجادل المشرك بالله المؤمن في مثل ما يقول**»[5] رواه الطبراني، والحاكم عن أبي هريرة، وأنه الزمان الذي تتأكد فيه العزلة والتزام البيوت إلى أن يأتي الأجل فيقضي على صاحبه فيموت، وإن الناصح عزيز وجوده، قليل شهوده، ليس فيهم من ينهضك حاله، أو يدلك على الله مقاله، وإذا لم يكن الأمر

(1) مرجت: اختلفت وفسدت.
(2) رواه الحاكم في المستدرك (4/ 315).
(3) رواه البخاري (6/ 2590).
(4) رواه البخاري (6/ 2590).
(5) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (1/ 187).

كذلك فهم هلكى، ومصاحبهم هالك.

إِيَّــاكَ أُخَيِّ تُــرَافِقْ مَـــنْ   لَمْ يَــنْهَكَ عَــنْ طُــرُقِ الْعِــوَجِ

قال محذرًا للسالك (إِيَّاكَ)؛ أي: احذر، تقول: إياك والأسد، وهو بدل من فعل كأنك قلت: باعد، وتقول: هناك، مثل: أراق وهراق، وتقول: إياك أن تفعل، أو تقول: إياك أن تفعل كذا بلا واو، كذا في «المختار».

(أُخَيِّ) تصغير أخ، حذف منه حرف النداء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:10] وهذا التصغير للتحبيب كما في: يا بني.

(تُرَافِقْ) أي: تتخذ رفيقًا، قال في «المختار»: والرفقة: الجماعة ترافقهم في سفرك، بضم الراء وكسرها أيضًا، والجمع: رفاق، تقول منه: رافقه، وترافقوا في السفر، والرفيق المرافق والجمع: الرفقاء، فإذا تفرقوا ذهب اسم الرفقة، ولا يذهب اسم الرفيق، وهو أيضًا واحد وجمع؛ كالصديق، قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]، انتهى.

(مَنْ) بمعنى الذي لم ينهك؛ أي: لم يزجرك ويصدك، قال في «المختار»: النهي ضد الأمر، ونهاه عن كذا ينهاه نهيًا، فانتهى عنه، وتناهى؛ أي: كف، وتناهوا عن المنكر؛ أي: نهى بعضهم بعضًا، ويقال: إنه لأمور بالمعروف، ينهى عن المنكر، على فعول، على طرق جمع طريق، ويجمع على أطرقة، وهو السبيل ممر العامة، واستعين للتسيير في سبل الخير، والصبر، غير أن طريق الخير مستقيمة؛ ما بها ميل، موصلة للمطلوب، والثانية: بالعكس العوج، قال في «القاموس»: عوج؛ كفدح، والاسم كعنب، ويقال في كل منتصب؛ كالحائط، والعصي فيها عوج، وفي نحو الأرض، والدين كعنب، وقد أعوج اعوجاجًا فانعوج، والأعوج السيئ الخلق، وقال في «المصباح»: كل ما رأيته بعينك مفتوح، وما لم تره فهو مكسور، انتهى.

وعليه قول الشاعر:

فَفِي المعَـاني اسْـتعملوا لفـظ العـوج   وفي المبَـاني اسْـتعملوا لفـظ العـوج

والمعنى: أحذر أيها الأخ عن مرافقة من يراك قد زغت عن طريق الهدى ووقعت في حبائل الردى، ولم ينهك عن ذلك، فإن صحبته تؤدي إلى المهالك، ورافق من يذكرك

إذا نسيت، ويلينك إذا قسيت، ويعرفك ينقصك، ويكرفك ريح، وقصك، وعقصك، ويبكيك بنصحه، وينكبك بذمه وقدحه، وأنشدوا:

مـــن لـــيس يكـــيه ناصـــحوه يـــضحكك مـــن حالـــه عـــداه

إذ بـــه حـــادث اللـــيالي مـــن لم يـــؤدبه والـــداه

ويـــسر علـــيك ولا يعـــسر ويـــبشر ولا ينفـــر

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي -قدس الله سره: سألت أستاذي عن قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» قال: يعني دلوهم على الله، ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على الله فقد نصحك، انتهى.

ولما كان شأن النفس الميل عن جادة الصواب، والكيل بالهيل من حبوب الاحتجاب، والراعي لها مأمور بأخذ عنانها للمقرب من الوهاب، والمدني بها من على ذلك الجناب حذره من صحبة عدو في صورة صديق، ورفيق بمرافقة غير رفيق، فإن من لم يكشف لك عن عيوبها كان لها عليك مهين؛ لاسيما أن مدحها على فعلها، فإن المدح الذي بغير سكين؛ لكن كلام المحب الناصح لا يقبله إلا القلب السليم الناصح، ولهذا ترى كل من استعمل النصح لإخوانه لم تجد له صاحبٌ؛ ولعدم قبول النفوس من غيرها النصيحة حيث أمسى إليه لها حاجبًا.

أنشد سيدي محيي الدين قدس الله سره:

لمـــا لـــزمت الـــبحث والتحقـــيقا لم يـــترك الي في الأنـــام صـــديقا

فالصديق عند النفس من أطلق لها السراح، ووسع لها في سلوك طريق شهواتها المراح، وأما من ضيق عليها وشدد استحق عليها الضرب بالمحدد.

وعن بعض الأكابر: لو قيل للنفس: اخرجي فاقتلي أكبر عدو لك، قتلت مرشدها، فإنه الساعي في تخريب عاداتها، وتعمير ما خربته بمراداتها؛ لكن ينبغي للمريد ألا يوافقها في الخطأ على من يسعى لصلاحها ورشادها، ويوقظها من رقادها، فإنها ظالمة، ومن أعان ظالمًا سلط عليه.

وكأنه استشعر من الطالب السؤال عن الطرق المستقيمة؛ ليسلك عليها،

ويتوجه إليها.

قال المصنف ﷺ:

إِقْنَعْ وَازْهَدْ وَاذْكُرُهُ كَذَا لَدِى بَابِ سِوَاهُ لَا تَلِجِ

فقال: (اِقْنَعْ)، قال في «المختار»: القنوع السؤال والتذلل، وبابه خضع، فهو قانع وقنيع.

قال الفراء: القانع الذي يسألك فما أعطيته قبله، والقناعة: الرضا بالقسم، وبابه سلم فهو قنيع، وقنوع، وأقنعه الشيء أرضاه.

وقال بعض أهل العلم أيضًا: القنوع قد يكون بمعنى الرضا، والقانع بمعنى الراضي، وأنشدوا:

وقالوا قد زهدت فقلت كلا ولكني أعزني القنوع

وقال لبيد:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع

وفي المثل: «خير الغنى القنوع، وشر الفقر الخضوع»، ويجوز أن يكون السائل سمي قانعًا؛ لأنه يرضى بما يعطى قل أو كثر، ولا يرده فيكون يعني الكلمتين راجعًا إلى الرضا، انتهى.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97].

قال القشيري ﷺ في أول باب القناعة: قال كثير من أهل التفسير: الحياة الطيبة في الدنيا القناعة، انتهى.

وقيل في معنى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:13] يعني: القناعة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:14] الطمع والحرص، وقيل: إن الطمع حروفه مجوفة؛ ولذا صاحبه لا يشبع، وعنه ﷺ: «**القناعة مال لا ينفذ**»[1] قال المناوي –رحمه الله تعالى:

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (10/ 256).

لأن القناعة تنشئ من غنى القلب بقوة الإيمان ومزيد الإيقان، ومن قنع آمد بالبركة ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإنفاق منها لا ينقطع إذ صاحبها كلها تقدر عليه شيء قنع بما دونه، ورضي فلا يزال غنيًا عن الناس، ولهذا كان ما يقنع به خير الرزق؛ كما في الخبر السابق، ومن قنع بما قسم له كانت ثقته بالله التي شأنها لن تنقطع لتأكد الوثاق.

وقال لقمان لابنه: يا بني الدنيا بحر عميق غرق فيه ناس كثيرون؛ فاجعل سفينتك فيها القناعة.

تنبيه: سئل بعض الصوفية عن مقام القناعة، هل يطلب من ربه القناعة بما أعطاه الحق له من معرفته؛ كما يقنع به نظيره من القوت؟

فأجاب: بأن القناعة المطلوبة خاصة بأمور الدنيا لئلا يشتغل بكثرتها عن آخرته لكونه مجبولاً على الشره، وأما القناعة من المعرفة بالقليل مذمومة بنص: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] بك وبأسرار أحكامك لا زيادة من التكاليف، فإنه كان يكره السؤال في الأحكام وإن قيل:

إن القناعة باب أنت داخله ... إن كنت ذاك الذي يرجى لخدمته

فاقنع بما أعطت الأيام من نعم ... إن الطبيعة لا قنع بنعمته

لو كان عندك مال الخلق كلهم ... لم يأكل الشخص غير لقمته

وقال آخر:

لا تقنعن بشيء دونه أبدًا ... وأشره فإنك مجبول على الشره

واحرص على طلب العلياء ليحظ بها ... فليس نائم ليل مثل منتبه

وقال آخر:

تسربلت أخلاقي قنوعًا وعفة ... فعندي بأخلاقي كنوز من الذهب

فلم أر خطا كالقنوع لأهله ... وأن يجعل الإنسان ما عاش في الطلب

وقال آخر:

ما ذاق روح الغنى من لا قنوع له ... ولو ترى قانعًا ما عاش مفتقرا

العـــرف مـــن يأتـــه تحمـــد ســـقيته مـــا ضـــاع عـــرف وإن أوليـــته حجـــرا

انتهى.

وعنه ﷺ: «كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا، وأقل من الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»(1).

وعنه ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشته كفافًا، وقنع به»(2) ﷺ: «أحبكم إلى الله تعالى أقلكم طعمًا وأخفكم بدنًا»(3).

وعنه ﷺ: «خيار أمتي القانع، وشراركم الطامع»(4).

وعنه ﷺ: «ابن آدم عندك ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، ابن آدم إذا أصبحت معافًا في جسدك آمنًا في سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا الصفاء»(5).

وعنه ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما أتاه»(6).

وعنه ﷺ: «من قنع بما رزق دخل الجنة»(7).

وقال حجة الإسلام حباه الله السلام ما يجب في دار السلام في أحبابه: قيل لبعضهم: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك؛ ولذا قيل: العيش ساعات تمر، وخطوب أيام تكر أقنع بعيشك ترضه، واترك هواك فأنت حر؛ فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودرر.

نقل عن البعض أنه قال: وجدت أطول الناس غمًا الحسود، وأهناهم عيشًا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشًا أرفعهم للدنيا، وأعظمهم

(1) رواه الطبراني في المعجم الصغير (2/ 218).

(2) رواه القضاعي في مسند الشهاب (1/ 361).

(3) ذكره المناوي في فيض القدير (1/ 175).

(4) رواه البزار في مسنده (7/ 190) بنحوه.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان (7/ 294).

(6) رواه مسلم (2/ 730). (7) رواه ابن شاهين في فضائل الأعمال (1/ 338).

ندامة العالم المفرط، وقد قيل: أرفه ببال فتى يمشي على ثقة أن الذي قسم الأرزاق يرزقه؛ فالعرض عنه تصون ليس يدنسه، والوجد منه جديد ليس يخلقه إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق في دهره شيئًا يؤرقه، وقيل:

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال

ونازح الدار لأنفك مغتربًا ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي

بمشرق طولًا أو بمغربها ... لا يحظر الموت من حرصي على بالي

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إن القنوع الغني لا كثرة المال

وأطال الكلام عليه فراجعه إن أردت أن تستوفيه، وأنشد أمين الملك ابن أبي حفص المنشئ:

لعمرك إن فضول المعاش ... بمذموم أعقابها لا تفي

وإن كنت قد نلت قدر الكفاف ... وصرت بميسور تكتفي

ولا يحسدنك إلا الملوك لأن ... القناعة كنز خفي

وقلت سابقًا:

دع الدنيا لأرباب المحال ... وسر بالجد في طلب المعالي

وأثواب القناعة فاذرعنها ... تنل شرفًا لدى الدارين غالِ

وجرد من فؤادك كل شين ... كحرص في الدنيا ذات الزوال

وصابر واصطبر إن رمت قربًا ... ونيل الوصل بل وصل الوصال

وفي التقريب كن مطمعًا وعما سواه ... اجعل فؤادك منه خال

ووافي إلهي في طلب الحما ... وهمي مدبرها جنح الليالي

هو شر ساق عرفك في سراها ... ولا تخش الردى باغي الغوالي

وإن يك عربد السكران منها ... فيسلم لا تلم كذوي الجدال

فلو أسقيت من كأس سقيها ... لهمت بها وملت كما الشمال

وصحت بمن ناوا عنها ... تعالوا وناديت الصبابة لي تعالى

ونحت وبحت مثل القوم حباه ... وقلت بقولهم في كل حال

فيا راجي اللقاء قل التواني ... وجانب فيه جانب كل سالي

وعل عسى وسوف فدع ... وبادر بصدق السير باق للمطال

عسى الأستار تكشف والغواشي ... فتفنى في مشاهدة الجمال

وفي كشف القناع فكن قنوعًا ... فإن الكشف من غير السؤال

وإن نار الهوى استعرت فبادر ... لأربـاب الرجاء أولي الكمال

دعاة الحق في سر وجهر ... هداة الخلق في حال وقال

ويا مولاي صل على التهامي ... وسلم ما ارتقت روح الموالي

وآل وأصحاب كرام بهم ... أنعم وأكرم من موالي

وأتباع لهم ما لاح لاح ... بشرب مسكر نسبت الدوالي

ثم قال: (وَازْهَدْ)، قال في «المختار»: الزهد ضد الرغبة، تقول: زهد فيه وزهد عنه من باب سلم، والتزهد التعبد، والتزهيد الترغيب، والمزهد بدون المرشد القليل المال، وفي الحديث: «**أفضل الناس مؤمن مزهد**»[1]، انتهى.

قيل: هو اسم مفعول بمعنى: مزهود فيه لقلة ماله ورثاثة حاله، وقيل: أنه اسم فاعل من أزهد في الدنيا إذا تخلى عنها للعباد، انتهى.

قال الإمام حجة الإسلام ﷺ في «الإحياء»: على حقيقة الزهد وبيان فضيلته قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ

(1) رواه البخاري (9/ 348) بنحوه.

﴿آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 79-80]، فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:54]، جاء في التفسير على الزهد في الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7] معناه: أيهم أزهد في الدنيا فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾[الشورى:20] إلى قوله: ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:20].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:131] إلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:131].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:3] وصف الكفار بذلك لمفهومه: إن المؤمن هو الذي وصف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة على الدنيا؛ ثم أنه أورد في فضله أشياء كثيرة وبين درجاته، وما هو من ضروريات الحياة الدنيا، وبين علاقات الزهد حتى وفَّى المقام حقه أنالنا الله في دار الكرامة نوافل فضله دون مشقة، وعنه ﷺ: «**الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن والبطالة تقسي القلب**»(1).

وعنه ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»(2).

وعنه ﷺ: «**ازهد الناس من لم ينس المقابر والبلى، وترك أفضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعد غدًا من أيامه وعد نفسه في الموتى**»(3).

وعنه ﷺ: «**الزهد أن تحب ما يحب خالقك، وأن تبغض ما يبغض خالقك، وأن تخرج من حلال الدنيا كما تخرج من حرامها، فإن حلالها حساب وحرامها عذاب، وأن ترحم جميع المسلمين كما ترحم نفسك، وأن تتحرج عن الكلام فيما لا يعنيك كما تتحرج**

(1) رواه القضاعي مسند الشهاب (1/ 188).

(2) رواه الديلمي (1/ 431).

(3) ذكره المناوي في فيض القدير (1/ 482).

عن الحرام، وأن تنحرج من كثرة الأكل كما تنحرج من المنية التي اشتد نتنها، وأن تخرج من حطام الدنيا وزينتها كما تخرج من النار، وأن تقصر أملك في الدنيا فهذا هو الزهد في الدنيا»[1].

وعنه ﷺ: «من زهد في الدنيا أربعين يومًا، وأخلص العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه»[2].

وعنه ﷺ: «من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيرًا وكشف عنه العمى»[3].

وعنه ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أُعطي زهدًا في الدنيا، وقلة منطق فاقتربوا منه، فإنه يلقي الحكمة»[4].

وعنه ﷺ: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال؛ ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك»[5].

قال القشيري ﷺ في «الرسالة»: واختلف الناس في الزهد فمنهم من قال: الزهد في الحرام؛ لأن الحلال مباح من قبل الله سبحانه وتعالى، فإذا أنعم على عبد بمال من حلال، وتعبده بالشكر عليه فتركه باختيار لا يقدر على إمساكه بحق أو به.

منهم من قال: الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة، فإن إقلال المال والعبد صابر في حاله راض بما قسم الله له قانع بما يعطيه أتم من توسعه في الدنيا، وأن الله سبحانه وتعالى زهد الخلق في الدنيا بقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: 77] وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والزهد فيها.

ومنهم من قال: إذا أنفق ماله في الطاعة، وعلم من حاله صبر وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر؛ فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم.

ومنهم من قال: ينبغي للعبد ألا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضول بما لا

(1) رواه الديلمي (2/ 300).
(2) ذكره المناوي في فيض القدير (6/ 44).
(3) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (1/ 72).
(4) رواه ابن ماجه (2/ 1373).
(5) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (8/ 57).

يحتاج إليه ويراعي القسمة، وإن رزقه الله مالًا من حلال شكره عليه، وإن وفقه الله على حد الكفاف في طلب ما هو المال؛ فالصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر إليه بصاحب المال؛ ثم سرد جملة من عبارات القوم فيه.

ونقل سيدي أحمد بن عطاء الله -رحمه الله تعالى- في كتاب «المنن» عن سيدي أبي الحسن الشاذلي -قدس الله سره- أنه قال: رأيت الصديق ﷺ في المنام فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟

قلت: لا أدري، قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو الحسن المرسي ﷺ: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ في المنام فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا، قال: خوف المذمة وحب الثناء، فإذا كان علامة حبها خوف المذمة وحب الثناء فعلامة الزهد، وبغضها ألا يخاف المذمة ولا يحب الثناء.

وقال سيدي أحمد بن موسى المعروف بابن عريف الصنهاجي -قدس الله سره الناجي في «محاسن المحاسن»: فأما الزهد: فهو للعوام أيضًا، فإنه حبس النفس عن الملذوذات، وإمساكها عن فضول الشهوات، ومخالفة الهوى وترك ما لا يعني من كل شيء، وهذا نقص في طريق الخواص؛ لأنه تعظيم الدنيا واحتباسها عن انتقادها، وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها، والمبالاة عين الرجوع إلى ذاتك، وتضييع الوقت في منازعة نفسك وشهود حسك وبقائك معك ألا ترى قوله لمن أعطاه الدنيا بحذافيرها ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص:39] عافا باطنه من شهودها، وظاهره من التعلق بها؛ فالزهد صرف الرغبة، وتعلق الهمة به، والاشتغال عن كل شيء ليتولى هو حسم هذه الأسباب، قيل: إن بعض المريدين سأل بعض الشيوخ، فقال: أيها الشيخ بأي شيء يدفع إبليس إذا قصدك بالوسوسة، فقال الشيخ: لا أعرف إبليس فاحتاج إلى دفعه من تناهى إليه فكفانا ما دونه، انتهى.

واعلم أن الزهد في الدنيا، والغيبة عن رؤيتها، وعدم الالتفات إليها والإعراض عنها جملة واحدة، وغض الطرف عن شهواتها متأكد على من كان قدوة يقتدي به لئلا يغتر به أتباعه فيقتدون به، قيل: كما لهم فلا يفلحون؛ لأن رفض الدنيا متعين على السالك إلى

أن يصير لا ميل له إلا لمقصوده، ولا توجد عنده إلا لمعبوده، وهناك إذا أمسك منها فلا بأس لتمكن المشاهدة من قلبه وسريان نورها في سرمدة إليه، وهناك يدرك الزهد في الزهد وينشد قول الوفاء اهمام عمه الله بالرحمة والإنعام:

تجرد عن مقام الزهد قلبي ... فأنت الحق وحدك في الشهود

أأزهد في سؤال وليس شيء ... أراه سواك يا سر الوجود

وقلنا هل المعارف والتقريب والمدد ... في الزهد قد زهدوا حتى إلى الأبد

إذ ليس يشهدهم إلا لموجدهم ... مولانا تنزه لم يولد ولم يلد

في حبه سلبوا لما به غلبوا ... ومازح الحب منهم باطن الخلد

سكرًا به شطحوا بالروح قد سمحوا ... بالباب ما يرجوا شوقًا إلى الأحد

قلوبهم عمرت وجدا وقد غمرت ... ودًا وقد أمرت بالسعي للصمد

الكون يخدمهم لما له خدموا ... ومن لهم خادمًا للمكرمات هدى

فالزم ركابهم تسقى شرابهم ... وانزل رحابهم فاللف فيه ندى

عن زهدهم والماء له شهدوا ... والغير ما قصدوا والسيد السند

غابوا بنور تجليه لسرهم ... فليس يلوون من وجه على أحد

وقيل: إن في الإنسان جزائها يزال يضطرب في طلب الدنيا، فإذا وجدت عنده سكن، وهذا كان كثيرًا من الصحابة والتابعين يدخرون ويقعون عندهم شيئًا من الدنيا.

ومن دعاء بعض السلف: اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا، فإن من زهد فيها، وحبها في قلبه لا يفيده إخراجها من يده، ومن كانت في يده ولم تكن في قلبه محبة لم يضره إمساكها شيئًا إن صرفها في وجوه الخير، وتمتع بها على قدر الضرورة. فهذه الدنيا نعمة المطية لله، أو الأخروية، ففي الحديث: «نعم الدار الدنيا لمن تزود فيها لآخرته حتى رضي ربه، وبئست الدنيا لمن صدته عن ربه، وإذا قال العبد: قبح الله الدنيا، قالت الدنيا:

قبح الله أعصانا لربه»[1].

وعنه ﷺ: «لا تسبوا الدنيا فنعم المطية للمؤمن، عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر»[2] وعنه ﷺ: «لا خير فيمن لا يحب المال يصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه»[3] وعنه ﷺ: «نعم العون على طاعة الله المال»[4].

وعنه ﷺ: «إذا كان آخر الزمان لا بُدّ للناس فيها من الدراهم والدنانير يقيم الرجل بها دينه ودنياه»[5].

وعنه ﷺ: «إن الفاقة لأصحابي سعادة، وأن الغنى للمؤمن في آخر الزمان سعادة»[6] وعنه ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا ينفع فيه إلا الدينار والدرهم»[7].

وعنه ﷺ: «يأتي على الناس زمان من لم يكن معه أصفر ولا أبيض لم يهنأ بالعيش»[8] وسبب ذلك: إن جل الناس الآن ناظرون إلى الدينار، وأهل الصدر الأول كان نظرهم إلى الدين؛ ليستغنوا بها عن أهلها، فإن من احتاج إليهم هان قدره لديهم، وقد انتهى الزهد في التابعين إلى ثمانية رجال، واشتهر أن من ذكرهم على ذا، وكتب أسمائهم وعلقها على ذي علة برئ بإذن الله تعالى.

ونظم بعضهم ذلك فقال: ثمانية في التابعين قد انتهى إليهم جميع الزهد؛ فافهمه ترشد، هم: الحسن البصري، ومسروق عامر أبو مسلم؛ ثم الربيع، والأسود، وليس ابن حبان إذا ما ذكرتهم على علة تبرئ، وذكرك يحمد، واذكره؛ الضمير راجع لله، واستوفينا بعض الكلام عليه فيما مر، فارجع إليه.

(كَذَاكَ)؛ أي: كما أوصيك بالقناعة والزهد، والذكر، أوصيك أنك (بِبَابِ سِوَاهُ)؛ أي: سوى المذكور على مر الدهور. (لَا تَلِجِ) بكسر اللام؛ لأن ماضيه ولج كوعد، والولوج الدخول؛ أي: فإن باب سواه لا يلجه الأواه؛ إذ ذاك لا يلج إلا لباب الذي لا يغلق،المفتوح الذي ليس له مفتاح يغلق.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (4/ 348).
(2) رواه الديلمي (5/ 10).
(3) رواه الديلمي (5/ 178).
(4) رواه القضاعي في مسند الشهاب (2/ 260).
(5) رواه الطبراني في المعجم الكبير (20/ 279).
(6) ذكره المتقي الهندي في الكنز (3/ 239).
(7) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (4/ 65).
(8) رواه الطبراني في المعجم الكبير (20/ 278).

قال ذو النون -قدس الله سره المصون: من طرق الباب فتح له، فقالت العارفة رابعة العدوية: ومتى أغلق حتى يفتح، فقال: شيخ جهل وامرأة علمت، فإنه لو أغلق الباب عن الطلاب لانقطع عنهم المدد وهلكوا إلى الأبد؛ بل بابه ما به رد ولا يخشى الواقف من صد، فإن من وقف بباب كريم محسان لا يؤوب بحرمان دون إحسان، ومن لم تظهر له الأشائر فلا ييأس، فقد ادخرت له الذخائر، فإذا كشفت الستائر يوم تبلى السرائر، وتظهر الضمائر شاهد ما يبهر السائر ويدهش الطائر من أرباب الله، وأمر فيود ذلك أن لو أطال الوقوف في تلك الحظائر للتكاثر عليه وزادات البشائر، ووجه المشاركة التي تبنى عنها الكاف في كذلك هو الترك، فإن القناعة ترك الطمع، والزهد ترك الدنيا والرغبة فيها، والذكر ترك الغفلة، والأمر الرابع ترك الولوج في باب السوي، فإن الدخول فيه مؤذن بالبعد والنوى والمعنى: كما لزمك ما تقدم لزمك ترك العبور في غير الباب الأعظم؛ ثم أن الناظم -رحمه الله تعالى- وعفا عنه لما علم أن من لم يلج باب الغير في السير حصل على الخير وزال الضير، وإن من أعرض عن الخلق لا بُدَ له من الإقبال على الحق؛ إذ وقوف الشفوف غير مألوف؛ فلذا دله على طلب الأعلى وأرشده إلى الأغلى.

قال المصنف ﷺ:

وَادْخُلْ لِلْحَانِ خَلِيلِي وَمِلْ نَحْوَ الخَمَّارِ أَبُو السُّرُجِ

فقال: حسن الله منه المقال (وَادْخُلْ لِلْحَانِ)، وأراد به ما هو أخص، فإن الحان يطلق على الحانوت سواء كان للخمار، أو لغيره بخلاف الخانة، فإنها خاصة به وهي التي أرادها هنا، قال في «الصحاح»: والحانات المواضع التي يباع فيها الخمر، والحانية الخمرة منسوبة إلى الحانية، وهي حانوت الخمار، والحانوت معروف والجمع حوانيت.

قيل: ومن قال: إن الحان جمع الحانة، وإن الحانة بيت الخمار فقد أخطأ مرتين مرة في زعمه أن الحان جمع الحانة لما عرفت أن حانة اسم لحانوت الخمار، والحان عام له ولغيره، ومرة في تفسيره حانة بيت خمار، وقد عرفت أنه حانوته، انتهى.

والمراد به هنا: محل سكر المحبة، فإنه يسكر كل نسمة صحبه فمن دخل حانها، وأدارت عليهم دنانها، وسقته حسانها خمرة إحسانها، وأبقته بها بعد ما أفنيته بعيانها هام وما عربد، وقام على أقدام الهيام يتعبد أوراد به موطن القربة الطيب الماء والتربة الخاص

بالخواص من أهل القربة الشاربين من صرفه أعظم شربة، وأهل هذا المقام يسقون من الرحيق المختوم؛ فيدركون به تناول كأسه كل سر مكتوم فيزدادون حبورًا إذ منحهم النور نورًا ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان:21] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:22] أو يراد به: نزل المعرفة المشرق يصم صاحبه على سر كل اسم وصفة الذي من دخله سكر إلى القيام، ولم يصبح في دار السلام، فإن خمره للنهي غالب وللألباب سالب ولصاحبه في يوم الكثيب مزيد ذوق، وربما تناوله الناسك بالجنة بجامع أنها دار المنة الذي يسكر نازلها من نهر خمرة اللذة المستغرق في حينه كل لذة؛ فيكسبه الشرب منه شهود النور الجمالي، وسفر له بالقرب عن مواجهة الوجه الكمالي، وربما تناوله السالك ينادي القلب المملوك للمالك ملكًا خاصًا يوجب له تسهيل المسالك، وتبديل المهالك، وتعديل المهالك، وتجميل الحوالك بجامع أنه بيت التجلي المسكر أهل التملي، ومتى طرق السالك باب القلب وأمسى له مفتوحًا نال إشراقًا، وإشراقًا، وأعراقًا، وأعراقًا، وفتوحًا، ويسقى هناك من الشراب القربي، ويترقى إلى اللباب الحبي عن آثار التجلي يبني فيهم بوصفه القويم سليم مسبي، ويدرك سر النفس اليمين والجانب القربي، وقد تناوله المحب بحضرة الغيب الماحقة كل شكر، ورب المظهر ماؤها المقدس من كل غيب والمظهر خمرها الأنفس كل عيب، والفاتق من توق كل حبيب، أو يتأوله يدبر الأزل الجامع لما علىٰ ونزل، وبالمقر السامي الأسنى المخصوص بالمعراج القدسي المحضر للغائب والمغيب للحاضر، والآتي بالغرائب الذي من سكر من شرابه، وانتقى من أكوابه أمكنه أن يسكر الوجود ويطرب كل موجود ومفقود عن الواحد بالشهود؛ إذ نقطة من خمرة لو مزجت بالبحور لأسكرت على ممر الدهور فيا الله العجب! ممن شرب من هذا المقام بالأقداح، وكتم سره عن الأغيار، وما باح ولا ناح؛ لكن هذا تأييد من جانب الله بالنص ثابت ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم:27].

وربما يناوله المجذوب الممدود بمنزل الشهود للجمال المعهود المطلق عن كل القيود والحدود المطلق من وثاق الخمود للوجود، والمعنى: أدخل أيها الطالب لحان شهود الجمال، وخذ بالراحة من راحة الجالب لكل راحة ودلال وغب غب غبك منه عنك نزوله غيبك، وتسلم به منه منك، وينفجر في سرك فجور الأنوار، وتتفجر فيه ينابيع الحكم

والأسرار فيمكنك هنا الإرشاد والدعوة إلى رب العباد؛ لوجود الاستعداد ببلوغ المراد، وقد يتناول كل واحد منهم غير ما أشرنا إليه؛ لأن الأذواق لا تتناهى، وكلها دالة عليه.

(خَلِيلِ): بحذف حرف النداء؛ أي: يا صديقي، ومل: فعل أمر من الميل فهو العدول، يقال: مال عن الحق؛ أي: عدل عنه؛ أي: أقبل وتوجه بكلك، وكلك أيها السيار نحو ناحية الخمار هو صاحب الخمر؛ كالنباذ فيتناوله الناسك بالقرآن العظيم والفرقان الكريم، فإنه مسكر للألباب بفصاحته وإيجازه، وبلاغته، وإعجازه، ويكون المراد من الميل ناحية العمل بأوامره واجتناب نواهيه، ومن لازم عمل بالكتاب العمل بسنة الأحباب، ويتأوله السالك بالمرشد الإمام، فإنه يسكر الطلاب برفيع الكلام، ويهيج الألباب بخطاب وقعه في القلوب كوقع السهام طيب أنفاسه يسقيك الحميا، وجلوسك معه يدير عليك كأس شهود المحيا، وقربك منه يمنحك عقار القرب، ونظرك إليه يغنيك بشرب أنعم من شرب ونظرك إليه يرقيك وبباب مولاك يلقيك، وقد يتأوله بسيد الأحباب، ومصباح الظلام الذي أسكر الأعلام جماله، وهيم الإفهام كلامه خمار حضرة القدوس، والساقي من الشراب الآلي سائر النفوس، وهو الذي سقى الأرواح من شراب معرفة الفتاح، وسقى الأسرار من شراب محبة الستار، وسقى العقول شراب النقول، وسقى الأجساد شراب الانقياد، وهو الساقي غدًا من الحوض كل متبع له في محبته حوض.

(أَبُو السُّرُجِ) بضم السين والراء المهملتين جمع سراج؛ أي: ذي الأضواء والسراج هو الحامل للنور، وهو في اللغة: المصباح الحامل للشيء من النار في فتيلة، ونحوها ليستضيئا به وتوصف به الشمس والقمر، وكل مضيء مجازًا بخلافه الشبه.

قال صاحب المنفرجة:

وظــــلام الليــــل لـــــه سرج   حتـــى يغـــشاه أبـــو الســـرج

قال الشارح: وهو الشمس جعلت إياها؛ لأنها الأصل، وبنورها يذهب نور تلك، انتهى.

وتناوله الناسك السرج: يا نوار العبادة، والسالك بنجوم الإرادة، والمحب بأقمار السيادة، والمجذوب ببزوغ شموس السعادة من بروج الشهادة، وامتدادها على القلوب بأنواع الإفادة، ومن أسمائه ﷺ: سراج، قال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى: فسماه الله

تعالى في قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:46] لوضوح أمره، وبيان نعوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به؛ فهو نير في ذاته منير لغيره فهو السراج الكامل في الإضاءة، ونقل عبارة أبي عبد الله محمد العربي الفاسي -رحمه الله تعالى.

ومنها: ووصف به ﷺ للشبه الحاصل؛ لأنه مستضاء به في ظلمات الجهالة وتقتبس من نوره أنوار البصائر، ولم تذكر أداة الشبه فهو استعارة، أو تشبيه بليغ، والتشبيه هنا إن كان بمطلق السراج فوجهه ظاهر، وقد تقدم ما فيه إشارة لما وراءه؛ لكون النور السراجي يذيل الظلمة الحسية، ويظهر الأشياء الخفية للأبصار، ونوره ﷺ يزيل ظلمة الجهل، ويظهر المعاني الخفية للبصائر، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: 10،11] وإن كان التشبيه بالسراج الذي هو المصباح ففيه مزيد الانتفاع والاقتباس بلا كلفة، ولا نقص، وإذا غاب الأصل بقيت الفروع، ونوره ﷺ اقتبس منه جميع الأنوار السابقة لظهوره الصوري، واللاحقة له من غير مانع ولا حجاب ولا كلفة، ولكما اقتبس منه ﷺلا ينقصه شيء، وفي غيبته الصورية لم يغب الاستمداد من نوره؛ بل هو موجود في الفروع المقتبسة الاستمداد من نوره؛ بل هو موجود في الفروع المقتبسة سابقة ولاحقة من الهمزية:

أنتَ مِصباحُ كلِّ فضلٍ فما تَصـ ... ـدُرُ إلا عن ضوئكَ الأضواءُ

وحيث كان نور الأنوار فهو أبو السرج المشرقة في الأدوار، وإذا مزج الساقي الخمرة الواصل أسكارها من أرض الجسم إلى التخوم وتشعبت، وظهر على وجهه حبب يشبه بالنجوم، وأنشد سيدي عمر ﷺ:

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُدِيرُهَا ... هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجم

وينسب إظهار هذه النجوم إلى الساقي ويكنى عنها بالسرج، فيقال له: أبو السرج، فإن الأب هو ما كان عنه ظهور الولد، وهذه إنما ظهرت بمزج الساقي.

وقال النيسابوري رحمه الله تعالى: السرج خمسة: واحد في الدنيا، وواحد في الدين، وواحد في السماء، وواحد في الجنة، وواحد في القلب؛ ففي الدنيا النار، وفي الدين المصطفى

ﷺ، وفي السماء الشمس، وفي الجنة عمر لحديث عمر سراج أهل الجنة، وفي القلب المعرفة، انتهى. وفي الحديث: «**اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة**»[1].

رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أنس؛ ثم لما كان من لازم دخول الحان، والميل إلى الخمار ذي الخمر الحلال المصان الشرب من تلك الخمور القديمة، والطرب غب الشرب من كاسات أمثلتها عديمة.

قال المصنف:

[وَاشْرَبْ وَاطْرَبْ لَا تَخْشَ سِوَى إِيَّاكَ أَنْ تَمِلْ عَنْ ذَا النَّهْجِ]

قال الشارح: قال مخاطبًا نديمه ومسامرًا حميمه: (وَاشْرَبْ) قال في «المختار»: شرب الماء وغيره بالكأس شربًا بضم الشين وفتحها وكسرها.

وقرئ ﴿ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ [الواقعة:55] بالوجوه الثلاثة أبو عبيدة، الشَّرب بالفتح: مصدر، وبالضم والكسر أسمان، والشرب من الماء: ما يشرب مرة، وهي المرة من الشرب أيضًا، والشرب بالكسر الحظ من الماء، والشرب بالفتح جمع شارب؛ كصحب وصاحب، انتهى.

(وَاطْرَبْ) الطرب خفة يقترب الإنسان لشدة حزن وسرور، (لَا تَخْشَ) أي: لا تخف، قال في «المختار»: خشي بالكسر خشية خاف فهو خشيان، والمرأة خشي، وهذا المكان أخشى من ذاك أشد خوفًا، وقول الشاعر:

ولقد خشيت بأن من تبع الهدى سكن الجنان مع النبي محمد

قالوا: معناه علمت، وقوله تعالى: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف:80] قال الأخفش: معناه كرهنا.

(سِوَى) أي: غير، فإن الشارب الطروب لم يخش من معاناة الخطوب، وكيف يخشى السوي من العنان عنهم لو (إِيَّاكَ) أي: احذر أيها الأخ في الله والمحب الأواه (أَنْ تَمِلْ) أي: تنجرف وتزيغ (عَنْ ذَا النَّهْجِ) أي: عن هذا النهج بسكون الهاء، والفتح لغة فيها: الطريق الواضح الذي أمرتك بسلوكه من أول القصيد إلى هذا البيت المفيد، فإنك

---

(1) رواه الديلمي (1/ 71).

إن ملت عن هذه الوصايا لم تدرك ما احتوت عليه زواياها من خبايا، وفاتك شهود وفاتك المعنوية، وما فيها من تحق وهدايا؛ فوجه وجه.

فوجه أيها المريد إلى المريد تفتح لك القضايا، وتظهر بهاء القدس النازل من حضرة الأقداس الطوايا، وسر بكمال التجريد وقف بالوصيد، وادخل حانة الشراب، وترامي على الخمار ليملأ منك بقديمه الوطاب، واستق من هذه الخمرة القدسية حان كونك ذا تعطش لرشف كؤوسها الأنسية، فإن غير الولهان المنهان لا يجد لذة خمرة العيان إذا الساقي كأسه أدار مزيات خمر السوي ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: 119] وإذا ثملت بتناول أقداح الصفاء، وأهملت بالخفاء عند أهل الجفاء فاطرب بهذا الإهمال، فإنه يبلغك الآمال، وإياك والعدول عن هذا الطريق الواضح الذي بنوره نور الغزالة فاضح، ولما كانت الغفلة عن الأحباب أعظم حجاب بمنع الاقتراب حذرك من الميل خوفًا من الانقلاب على الأعقاب والتردي في هذه العقاب، وحيث كانت النفس من شأنها السكر في أهواءها، وعدم الصحو لدائها ودواءها أخذ يخاطب الغافل الرافل في ثوب الزهو السافل بقوله:

كَمْ أَنْتَ كَذَا لَمْ تَصْحَ أَفِقْ وإلى الأَبْوَابِ فَقُمْ وَلِجِ

قال الشارح: (كَمْ) اسم ناقص مبني على السكون لازم الصدر، مبهم مفتقر إلى التمييز، وترد استفهامية، ولم تقع في القرآن خبرية بمعنى: كثر كما هنا، وتنصب في الأول: على التمييز، وفي الثاني: تجر كما تجر برب؛ لأنه ضدها، وتقع غالبًا في مقام الافتخار والمباهاة نحو: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النجم: 26] ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 11] وعن الكسائي: إن أصلها كما؛ فحذفت الألف مثل بم، ولم حكاه الزجاج ورده بأنه: لو كان كذلك لكانت مفتوحة الميم، انتهى.

ملخصًا من «الإتقان»: أنت أيها اللاهي بملاهي دار الدواهي، والساهي بارتكاب المناهي كذا متهاد في غفلتك متهاد في مشيتك؛ لسكرتك بشراب مهلتك لم تصح من سنة رقدتك، وتنبهه أجفانك ليقظتك، فبحق بغيتك لصلاح مهجتك أفق أيها النومان؛ فالعمر يومان يوم لك وهو ما صرفته في الطاعة، ويوم عليك وهو ما صرفته في الإضاعة؛ فأفق من هذه السكرة النومية، واقصد نحو السكرة العلية التي تقدمت الإشارة إليها، وعولت السالكون عليها.

فإن قلت: وهل يقدر العبد أن يأتي بشيء من هذه الأعمال إلا بحول الله تعالى الكبير المتعال؟ قلنا: نعم، غير أن للعبد جزاء اختيار ما يترتب عليه الثواب والعقاب، والعبد مأمور بالكسب وتعاطي الأسباب، مجبور في صورة مختار بلا ارتياب غير خالق الفعل؛ بل محل ظهوره، ووقع الخطاب والإحالة على المقدور مع عدم الإنابة لا تقع إلا من ممكور به فاقد وجود الإصابة، فمن وجد عنده داعية الإقبال على الله تعالى فهو الموفق السالك، وإلا فهو المخذول الهالك -نسأل الله تعالى السلامة من ذلك.

وينبغي للتالي أن يخاطب نفسه بقوله: (كَمْ أَنْتَ كَذَا لَمْ تَصْحَ)...إلخ؛ فإن العارف المحكم الأساس من أشغلته عيوبه عن رؤية عيوب الناس، وقد كان عمر بن عبد العزيز ينشد مخاطبًا نفسه -حيانا الله مدده ونفسه:

حتى متى لا ترعوي وإلى متى ... من بعد إن سميت كهلا

واستلمت اسم الغني لا ترعوي ... لنصيحة وإلى متى وإلى متى

قال الشارح: (وإلى الأَبْوَابِ) أي: وإلى أبواب الطاعات، والمراضي التي تمر بك من مولاك؛ فيمسي بها عنك راض، أو يراد بهم الشيوخ أرباب الرسوخ قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:189] فمن أتاها منها دخل ضمن رحابها، (فَقُمْ) إليها مبادرًا، فإنك مأمور باحترام نواميس الشريعة، والقيام بآدابها إلى الممات خوفًا من القطيعة؛ فإذا خرجت الروح الشريفة من هذه الجثة الكثيفة زال عنها التكليف الجسماني، ولم يبق إلا طاعة الاستلذاذ؛ كصلاة ثابت بن أسلم البناني، فإنه كان يقول في دعائه: (اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك الصلاة في قبره فأعطنيها)، فلما مات وسور عليه اللبن وقعت عليه لبنة، فإذا هو قائم يصلي؛ فما فارق أبواب الطاعات إلا ممكور به في سائر الحالات.

(وَلِجْ) بكسر اللام؛ أي: أدخل بنهضة وهمة ونشاط وعزم؛ ثم إن المؤلف -سامحه الوهاب- رجع من الغيبة للخطاب، وفتح باب المناجاة للأحباب بلسان ذلة وخضوع واكتئاب، فقال:

مَوْلَايَ أَتَيْتُكَ مُنْكَسِرًا ... وَلِغَيْرِكَ شَوْقِي لَمْ يَعُجِ

قال الشارح: (مَوْلَايَ) أي: يا مولاي، ويا مرامي (أَتَيْتُكَ) أي: أتيت أبواب عزك

(مُنْكَسِرًا) حال من أتيتك؛ أي: ذليلاً خاضعًا لعظمتك، وحقيقة العلم بعبودية النفس والتحقق بها، وهناك يثبت في العبد فقره واضطراره، وينبت تواضعه في أرض قلبه وانكساره، وقد مر الكلام على الانكسار.

فإن قلت: ما فائدة قول الإنسان باللسان أتيتك منكسرًا مع فقدان ذلك من الجنان والأركان؟ قلنا: المناجي لا بدَّ وأن يستحضر المناجي بحسب الإمكان، ومتى استحضر عظمته ذل له وهان؛ لعلمه بعظم سيدي ذي القوة والسلطان، وذكر الانكسار فيه إظهار تملق بين يدي الحنان المنان، والانكسار قُضَاده نُدَّر والمتخلقون به أندر؛ فلذا ذكرك به لتذكره في معرض مناجاتك، وتسأل مَنَّه؛ أي: يحققك ويخلقك به في سائر حالاتك فيكون قولك: أتيتك منكسرًا بحسب ظني في نفسي، أو من باب التمني؛ فإنك تعلم يا مولاي عني خلاف ما أبديت، وما له عني فحقق مقالي، وحسن بفضلك أحوالي وجه على قلبي بذلك، وتعطف عليه وسلكه أحسن المسالك.

(وَلِغَيْرِكَ) أي: لغير حب جمالك، وقرب وصالك (شَوْقِي) المسكن في فؤادي الذي انطوت عليه أكبادي (لَمْ يَعُجِ) إذا لم يتحرك بحب سواك، فإن غيرك لا يحب ومن أحبه فلجهله أحب، وعلى التحقيق ما أحب محب سواك ولا عبد عابدٌ إلا إياك؛ إذ حبك في القلوب مغروس، وقد جبلت على حب من أحسن إليها؛ فاستمالت النفوس؛ إذ لا انفكاك للأرواح عن حضرة الفتاح، وإن غاب الغافل عن ذلك، وغربه في أودية المهالك ألا ترى الغريق لكيف لا ينادي إلا بيا الله لصحة التجائه في طلب النجاة لما لم يجد سواه.

وهناك يتحقق العبد أن مولاه هو الإله المقصود، والولي المعبود، والقريب المشهود لأجل الشهود؛ لكن الميل يختلف باختلاف توحد العزيمة، وتشتت الهمة الكريمة؛ فمن جمعت همته على مولاه، وكان همه وقربه مناه، ورضاه غاية ما يترجاه كانت دعواه من كل الوجوه صحيحة وأدلتها رجيحة؛ إذ شواهد الحب لا تخفى، ونيران سقيها تتوقد فلا تطفئ بخلاف من كانت أقواله دعاوى فجرها كاذب؛ فهي مساوئ إذا لم يتخلص صاحبها منها بمدد له جاذب، فإذا حصل الجذب الإلهي سار بالمقصر فالتحق بالساقة، وأغرقه في بحر الحب فلم ينفك بعد ذلك عن الغاية للإفاقة، وربما صحا وهو سكران، وغفل وهو يقظان، ولا يأمن المكر الإلهي وأصل وليها، وهو في الغاية غير حاصل على

حاصل، ولما كان الوقوف مع الأعمال حجاب والغيبة عنها بمنشئها اقتراب.

أنشد الطالب ذا الالتهاب أن يقول بين يدي الوهاب:

وَأَتَـــيْتُ إِلَـــيْكَ خَلـــيًّا مِـــنْ صَـــوْمِي وصـــلَاتِي مَـــعْ حِجَجِـــي

قال الشارح: (وَأَتَيْتُ) معطوف على أتيتك؛ أي: قصدتك وتوجهت (إِلَيْكَ) أي: إلى أبواب جودك وعتبات شهودك (خَلِيًّا) أي: حالة كوني فارغًا (مِنْ) شهود (صَوْمِي) قال في «الصحاح»: قال الخليل: الصوم قيام بلا عمل، والصوم الإمساك عن الطعام، وقد صام الرجل صومًا وصيامًا، وقوم صوم بالتشديد وصيم أيضًا، ورجل صوّمًا؛ أي: صائم؛ ثم قال: وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ [مريم:26] قال ابن عباس: صمتًا، وقال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام، أو كلام، أو سير؛ فهو صائم، انتهى.

وقد جاء في فضله أحاديث كثيرة منها: «الصيام جنة، وحصن حصين من النار»[1] وعنه ﷺ: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور»[2].

وعنه ﷺ: «للصائمين باب في الجنة يقال له: الريان لا يدخل فيه أحد غيرهم، فإذا دخل آخرهم أغلق، ومن دخل فيه شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا»[3].

وعنه ﷺ: «الصائم في عبادة، وإن كان نائمًا على فراشه، وهو محسة للعروق، ومذهبة للإشراك لا يدخله رياء، وهو زكاة الجسد ويضق الضير، وهو شافع في صاحبه يوم القيامة وخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وله فرحتان: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[4].

وعنه ﷺ: «الصوم يدق الصبر، ويذبل اللحم، ويبعد من حر السعير إن لله مائدة عليها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون»[5].

---

(1) رواه أحمد في مسنده (2/ 402).
(2) رواه البيهقي في الشعب (3/ 415).
(3) رواه النسائي في السنن الكبرى (2/ 94).
(4) رواه مسلم (2/ 807)، والنسائي (2/ 91)، والبيهقي (4/ 270) بنحوه.
(5) رواه الطبراني في الأوسط (9/ 170).

وعنه ﷺ: «يوضع للصائمين يوم القيامة مائدة من ذهب يأكلون منها والناس ينظرون»[1].

وعنه ﷺ: «ثلاثة لا يسألون عن نعيم: المطعم، والمشرب المفطر، والمتسحر، وصاحب الضيف، وثلاثة لا يلامون على سوء الخلق: المريض، والصائم حتى يفطر، والإمام العادل»[2].

وعنه ﷺ: «إن الله ﷻ يوحي إلى الحفظة لا تكتبوا على صوام عبادي بعد العصر سيئة»[3].

وقال أبو القاسم ناصر الدين اليمني في كتابه «رياضة الأخلاق»: الصوم دواء لجملة قبيحة نحو: الحرص، والشره، والنهم، والشق، والفجور، واللغو، والكذب، وفضول الكلام، والغيبة، والنميمة، وجميع آفات اللسان، وربما يكون البخل، والحقد، والحسد، وإنه شيئًا صارف للكبر، والنخوة، والقسوة، والبلادة، والغفلة، ولما اختص بهذه المناقب، قال ﷺ مخبرًا عن الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[4]، انتهى.

وهو في الشرع: إمساك عن المفطرات حقيقة وحكمًا في وقت مخصوص من شخص مخصوص مع النية، وفي اصطلاح القوم: هو الإمساك عن رؤية غير الله تعالى.

وأنشد الجيلي ﷺ:

وصومي هو الإمساك عن رؤية السوي وفطري أني نحو وجهك راجع

واعلم أن صوم العوام: إمساك عن الشراب والطعام، وصوم الخواص الأخيار: كف عن شهود الأغيار، وصوم خواص الخواص: ترك السوي، والحجاب، والغيبة عن الموانع والحجاب، وصوم السالك عن اقتحام المهالك من ظلمات شهوات حوالك، وفطره ما به لكل ما يقرب من المالك، وصوم المحب: عن شهود غير محبوبه، والتملي بجمال غير مطلوب؛ جمال مطلوبه ماسك عن شهود سواه، ومن زفرة الشوق أواه، وفطرة تطلعه لبوارق طالعات أنواره، وطوارق بالغات أسراره طابت معانيه فاسلب معانيه،

(1) رواه الديلمي في الفردوس (5/ 484).
(2) رواه الديلمي في الفردوس (2/ 94).
(3) رواه الخطيب في التاريخ (6/ 124).
(4) رواه البخاري (6/ 2723)، ومسلم (2/ 807).

وصوم المجذوب عن شهود الوجود، وفقد وفاقد مفقود أمسك عن شهود الغير؛ إذ شهودهم في السير، فإن الوجود الحق إذا ظهر لغيره سحق ومحق فلا هو عند المكاشف إلا هو؛ فوجود الهو المطلق هو الوجود المحقق وسواه معدوم موهوم؛ لأنه بالحدوث مكلوم؛ فمن شهد أن الوجود للواحد الأحد الذي قام به كل شيء فقد وجد.

ومن قال: إن وجوده المقدور المفروض العديم عين وجوده القديم فقد ألحد، فإنه ليس هو إلا هو فما هو أنت ولا أنت هو، فإنك أنت أنت وهو هو، والقائل أنا هو، أو هو أنا قد أثبت أنيته، ووقع في شرك شرك، وعنا فمتى ظهر الوجود الباقي بطن الحادث؛ لعدم اجتماع العبد والرب في مرتبة واحدة، فإن العبد عبد وإن علا، والرب رب وإن تنزل، وأنشد شيخنا المغمور بالمدح القدسي جناب الشيخ عبد الغني النابلسي:

أنــت قــيد الوجــود إن غــبت غابــا   وإذا مــا ظهــرت كــنت حجابــا

أي: فمتى غبت عن شهود الوجود الخلقي ظهر لك الوجود الحقي وبالعكس، وإذا حجبت بشهود الخلق فلا صوم؛ بل غفلة ونوم عن مسلك القوم، وفطر المجذوب إلى المشاهد العلية رجوعه لمقام العبودية، ووقوفه على سر الفردية والواحدية والأحدية، وهذا الذي طاب من فم عرفانه خلوفه، وانفتحت لانتشاق شذا الحقائق أنوفه فسعد سعادة الأبد، وقلبه إلى الأبد مجد فصم أيها البطال صيام هؤلاء الأبطال، ولا تيأس إذ الطريق طال، فإن أسراره بدون العناية لا تطال، وكف عن غيبة الغيبة، فإنها مضنية مريبة، ولا تنظر لشيء بشهوة، ولا تبني خطابك وترى من الغير سهوة، وأمسك عن كل كذب ونميمة، فإن عاقبتها وخيمة، ومن لم يمسك عن كل صفة ذميمة لم يكن من أهل الصيام، فافهم هذا الكلام واجعله تميمة.

(وصلاتي) الصلاة في اللغة: الدعاء، وشرعًا: هي الأركان المعلومة والأفعال المخصوصة بشرائط محصورة، وأوقات مقدرة، المشتملة على فروض وواجبات وسنن ومندوبات، وهي أول ما افترض الله، وأول ما يحاسب به العبد، وهي تسود وجه الشيطان والفرقان بين الكفر والإيمان، وقربان المؤمن وصفوة الإيمان، وتاركها لا سهم له في الإسلام؛ لأنها علم الإسلام، وهي عامود الدين وموضعها منه موضع الرأس من الجسد، وإنها مفاتيح الجنة، ونور في القلب، وشفاء من كل داء من أدواء الصدور، قال

الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [العنكبوت:45] وأحب الأعمال إلى الله، والمرء في صلاة ما انتظرها والرحمة تواجهه مادام فيها، وهي نور المؤمن وخير موضوع؛ فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر، وسجود العبد مطهر ما تحت جبهته إلى سبع أرضين، وأقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد، ومن من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله بها درجة وحط بها خطيئة.

وعنه ﷺ: «ما من حالة يكون عليها العبد أحب إلى الله من أن يراه ساجدًا يعفر وجهه في التراب»[1].

وعنه ﷺ: «للمصلي ثلاث خصال: يتناثر البر من عنان السماء، وينادي مناد: لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل»[2].

وعنه ﷺ: «تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله ﷻ على النار أن تأكل أثر السجود»[3]، وأنشدوا:

يا رب أعضاء السجود عتقتها ... من فضلك الوافي وأنت الواقي

والعتق يسري في الفناء يا ذا الفناء ... فأفض على الفاني بعتق الباقي

وعنه ﷺ: «أن العبد إذا قام يصلي أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقيه؛ فكلما ركع أو سجد تساقط عنه»[4].

وعنه ﷺ: «إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف حتى ينقلب، أو يحدث حدث سوء»[5].

وعنه ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جاري عذب على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، فما يبقي ذلك من الدنس»[6].

(1) رواه الطبراني في الأوسط (6/ 158).

(2) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (1/ 199) بنحوه.

(3) ذكره القرطبي في التفسير (3/ 275).

(4) رواه ابن حبان في صحيحه (5/ 26)، والبيهقي في الكبرى (3/ 10).

(5) رواه ابن ماجه في سننه (1/ 327) بنحوه.

(6) رواه مسلم في صحيحه (1/ 463).

وعنه ﷺ: «إن الصلوات الخمس يذهبن بالذنوب كما يذهب الماء الدرن»[1].

وعنه ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله تعالى بصلاة رجل مع صلاة إلا قال الله تعالى أشهد؛ كما إني غفرت لعبدي ما بينهما»[2].

وعنه ﷺ: «أفضل الرباط الصلاة ولزوم مجالس الذكر، وما من عبد يصلي؛ ثم يقعد في مصلاه إلا لم تزل الملائكة تصلي عليه حتى يحدث أو يقوم»[3].

وعنه ﷺ: «إذا تطهر الرجل؛ ثم مر إلى المسجد يرعى الصلاة كتب الله له كاتبه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه»[4].

وقد جاء في فضلها وفضل صلاة الجماعة، ولزوم المساجد أحاديث كثيرة منيرة لعنق الكسل منيرة، والقصد: تنبيه النبيه إلى الدواء عليها، وأدائها بشروطها، وأدائها ليكون ممن أقامها وسعى إليها.

واعلم أن الصلاة في الاصطلاح: هي الوصول لمنازل الحصول، فإنها الوصلة بين العبد وربه وأهله الذين هم على صلاتهم دائمون؛ لأنهم عن الغفلة معزولون، وفي الجمال والكمال مهيمون، غلب عليهم الوصف الملكي: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] لو قرضوا بالمقاريض ما تركوا؛ إذ يأمن من آداب الشريعة؛ لأنهم العلماء العاملون، وهؤلاء الذين إذا شرع أحدهم في الصلاة ما تشتهي الصلاة أن تفارقه حتى يرفع بها إلى عليين.

ومنهم: الذين إذا انصرف منها تبعه من عوالم الله ما لا يحصيه إلا الله.

ومنهم: الذين إذا انصرف لم يتبعه أحد؛ لغيبته في الأحد عن كل أحد.

ومنهم: الذي يستغرقه التجلي مادام فيها.

ومنهم: من يصحبه ذلك إلى الصلاة الأخرى، وهذا هو الكامل في الشهود الممدود، وأنشد الجيلي المورود -قدس الله سره المصمود:

---

(1) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (1/ 151).

(2) رواه البيهقي في الشعب (3/ 45).

(3) رواه الديلمي في الفردوس (1/ 356).

(4) رواه ابن خزيمة في صحيحه (2/ 374).

أصلي إذا صلى الأنام وإنما صلاتي بأني لاعتزازك خاضع

أكبر في التحريم ذاتك عن سوى واسمك تسبيحي إذا أنا خاشع

أقوم أصلي أي أدوم على الوفاء بأنك فرد واحد الحسن جامع

وأقرأ من قراءة حسنك آية فذلك قراءتي إذا أنا راكع

وأسجد أي أفني وأفنى عن الفناء وأسجد أخرى والمتيم والع

(قمْ حِجَجِي) الحجج بكسر الحاء: جمع حجة، قال في «المختار»: الحج في الأصل: القصد، وفي العرف: قصد مكة للنسك، وبابه: رد فهو جامع، وجمعه: حج بالضم؛ كبازل وبذل، والحج بالكسر الاسم، والحجة بالكسر المرة الواحدة، وهي من الشواذ؛ لأن القياس الفتح، والحجة أيضًا السنة، والجمع: الحجج بوزن العنب، انتهى.

وقيل: الحج القصد إلى معظم لا مطلق القصد كما ظنه بعضهم، وشرعًا زيارة مكان مخصوص في زمن مخصوص بفعل مخصوص، انتهى.

وعنه ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قالوا: يا رسول الله ما بر الحج؟ قال: «إطعام الطعام وإفشاء السلام»[1].

وعنه ﷺ: «الحج يكفر ما بينه وبين الحج الذي قبله، ورمضان يكفر ما بينه وبين رمضان الذي قبله، والجمعة تكفر ما بينها وبين الجمعة التي قبلها»[2] وعنه ﷺ: «من حج واعتمر فمات من سنته دخل الجنة»[3] وعنه ﷺ: «من خرج حاجًا، أو غازيًا؛ ثم مات في طريقه كتب الله له أجر الغازي والحاج والمعتمر إلى يوم القيامة»[4].

وعنه ﷺ: «من مات في طريق مكة في البدءة، أو الرجعة وهو يريد الحج، أو العمرة لم يعرض ولم يحاسب دخل الجنة»[5].

وعنه ﷺ: «من خرج حاجًا، أو معتمرًا فله بكل خطوة حتى يؤوب إلى رجله ألف

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (3/ 480).

(2) رواه الديلمي في الفردوس (2/ 148).

(3) رواه ابن عساكر في تعزية المسلم (1/ 69).

(4) رواه البيهقي في الشعب (3/ 474).

(5) لم أقف عليه.

ألف حسنة، ويمحى عنه ألف ألف سيئة، ويرفع له ألف ألف درجة»[1].

وعنه ﷺ: «الحاج في ضمان الله مقبلاً ومدبرًا، فإن أصابه في سفره تعب، أو نصب غفر الله له بذلك سيئاته، وكان له بكل قدم يرفعه ألف درجة في الجنة، وبكل قطرة تصيبه من مطر أجر شهيد»[2].

وعنه ﷺ: «الحاج يشفع في أربعمائة من أهل بيته، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[3].

وعنه ﷺ: «ما أهل مهل قط، ولا كبر مكبر قط إلا بشر بالجنة»[4].

وعنه ﷺ: «ما أمعر حاج وقت»[5].

وعنه ﷺ: «إن للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين سبعين حسنة، وللماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة»[6].

وعنه ﷺ: «إن الملائكة لتصافح ركاب الحاج وتعتنق المشاة»[7].

وعنه ﷺ: «أديموا الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»[8].

وعنه ﷺ: «كثرة الحج والعمرة يمنع العيلة»[9].

وعنه ﷺ: «حجوا تستغنوا، وسافروا تصحوا»[10].

وعنه ﷺ: «من حج وعليه دين قضى الله عنه»[11].

وعنه ﷺ: «إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته، فإنه مغفور له»[12].

---

(1) لم أقف عليه.

(2) رواه الديلمي في الفردوس (2/ 149).

(3) ذكره الهيثمي في المجمع (3/ 212).

(4) ذكره الهيثمي في المجمع (3/ 224).

(5) ذكره الهيثمي في المجمع (3/ 208).

(6) رواه الطبراني في الكبير (12/ 75).

(7) رواه البيهقي في الشعب (3/ 474).

(8) رواه الطبراني في الأوسط (5/ 170).

(9) رواه الديلمي في الفردوس (3/ 301).

(10) رواه الديلمي في الفردوس (2/ 130).

(11) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (5/ 17).

(12) ذكره المناوي في فيض القدير (1/ 437).

ومن دعائه ﷺ: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»[1].

وعنه ﷺ: «أربع حق على الله تعالى عونهم: الغازي، والمتزوج، والكاتب، والحاج»[2].

وعنه ﷺ: «من أهل بحج، أو عمرة من المسجد الأقصى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[3]. إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في فضل الحج الذي أفضل أعماله العج والثج، وهو في اصطلاح القوم: قصد الحق متجردًا عن الشواغل متطهرًا من علله، فإن فيها شغل شاغل، وما من أمر ظاهرًا لها وله باطن، وما من حكم إلا له ظهور في موطن ومواطن، وما من حديث أو آية إلا ولذلك سر تدركه علمًا، أو كشفًا أرباب الدراية.

وقد تكلم على أسرار العبادات حجة الإسلام في «إحيائه» -أحسن الله إليه- والأكبري في «فتوحاته المكية» بما لا مزيد عليه؛ فراجعهما تظفر بالعجب العجاب، ولب اللباب في تلك الأبواب، وكل من راعى في عباداته الإشارات الباطنية الغير المنافية للنصوص الظاهرية أدرك الزيادة في حاله، وبلغ بملاحظتها منتهى آماله.

واعتبر ما وقع للشبلي مع تلميذه المبارك عبد الله بن المبارك في حكايته الغريبة النهج، وسردها الحموي في الباب الثالث والسبعين المعتمد؛ لأنه أراد الحموي الذي هو صاحب الشبلي، وهو صاحب الحكاية عن نفسه.

قال لي الشبلي: عقدت الحج؟. قال: فعلت نعم. قال: نسخت بعقدك كل عقد عقدته منذ خلقت مما يضاد ذلك العقد؟ فقلت: لا، فقال لي: ما عقدت.

ثم قال: نزعت ثيابك؟ قلت: نعم. فقال: تجردت عن كل شيء؟ فقلت: لا، فقال: ما نزعت. ثم قال: تطهرت؟ قلت: نعم. فقال: زال عنك كل علة بتطهرك؟ قلت: لا، قال لي: ما تطهرت. ثم قال لي: لبيت؟ قلت: نعم، فقال لي: وجدت جواب التلبية بلبيتك مثله؟ قلت: لا، فقال: ما لبيت. ثم قال لي: دخلت الحرم؟ قلت: نعم، قال: اعتقدت في دخولك الحرم ترك كل محرم، قلت: لا، قال: ما دخلت. ثم قال لي: أشرفت على مكة؟

(1) رواه البيهقي في الكبرى (5/ 216).

(2) رواه الديلمي في الفردوس (1/ 374).

(3) رواه أبو داود في سننه (2/ 143).

قلت: نعم، قال: أشرف عليك حال من الحق لإشرافك على مكة؟ قلت: لا، قال: ما أشرفت على مكة. ثم قال لي: دخلت المسجد؟ قلت: نعم، قال: دخلت في قربه من حيث علمت؟ قلت: لا، قال: ما دخلت المسجد. ثم قال لي: رأيت الكعبة؟ فقلت: نعم، فقال لي: ما رأيت ما قصدت له؟ فقلت: لا، فقال لي: ما رأيت الكعبة، فقال: أرسلت ثلاثًا ومشيت أربعًا؟ فقلت: نعم، فقال لي: هربت من الدنيا هو ما علمت فيك أنك فاصلته، وانقطعت عنها، ووجدت بمشيك الأربعة أمنًا مما هربت منه فأردت شكرًا لذلك؟ فقلت: لا، قال: ما رملت. ثم قال لي: صافحت الحجر وقبلته؟ قلت: نعم، فزعق زعقة وقال: ويحك أنه قيل: من صافح الحجر فقد صافح الحق تعالى، ومن صافح الحق تعالى، فهو في محل الأمن. أظهر عليك أثر الأمن؟ قلت: لا، فقال: ما صافحت.

ثم قال لي: وقفت الوقفة بين يدي الله تعالى خلق المقام، وصليت ركعتين؟ قلت: نعم، قال: وقفت على مكانتك من ربك فرأيت قصدك؟ قلت: لا، قال فما صليت.

ثم قال لي: خرجت إلى الصفا فوقفت بها؟ قلت: نعم، قال: أي شيء عملت؟ قلت: كبَّرت سبعًا، وذكرت الحج، وسألت الله القبول، فقال لي: كبَّرت بتكبير الملائكة، ووجدت حقيقة تكبيرك في ذلك المكان؟ قلت: لا، قال ما كبَّرت.

ثم قال لي: نزلت من الصفا؟ قلت: نعم، قال: زال كل علة عنك حتى صفيت؟ قلت: لا، قال: ما صعدت ولا نزلت.

ثم قال: هرولت؟ قلت: نعم، قال: فررت إليه، وبريت من فرارك، ووصلت إلى وجودك؟ قلت: لا، قال: ما هرولت.

ثم قال: وصلت المروة؟ قلت: نعم، قال: رأيت السكينة على المروة فأخذتها، أو نزلت عليك؟ قلت: لا، قال: ما وصلت إلى المروة.

ثم قال لي: خرجت إلى منى؟ قلت: نعم، قال: تمنيت على الله غير الحال التي عصيته فيها؟ قلت: لا، قال: ما خرجت على منى.

ثم قال لي: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: خفت الله في دخولك وخروجك، ووجدت من الخوف ما لا تجده إلا فيه؟ قلت: لا، قال: ما دخلت مسجد الخيف. ثم قال: مضيت إلى عرفات؟ قلت: نعم، قال: وقفت بها، قلت: نعم، قال: عرفت

الحال التي خلقت من أجلها، والحال التي تريدها، والحال التي تصير إليها، وعرفت المعرف لك هذه الأحوال، ورأيت المكان الذي إليه الإشارات، فإنه الذي نفّس الأنفاس في كل حال؟ قلت: لا، قال: ما وقفت بعرفات.

ثم قال لي: نفرت إلى المزدلفة؟ قلت: نعم، قال: رأيت المشعر الحرام؟ قلت: نعم، قال: ذكرت الله ذكرًا أنساك ما سواه فاشتغلت به؟ قلت: لا، قال: ما وقفت بالمزدلفة.

ثم قال لي: دخلت منى؟ قلت: نعم، قال: ذبحت، قلت: نعم، قال: رميت كل جهلك عنك بزيادة علم ظهر عليك؟ قلت: لا، قال: ما رميت.

ثم قال لي: حلقت؟ قلت: نعم، قال: نقضت حالك عنك؟ قلت: لا، قال: ما حلقت.

ثم قال لي: زرت؟ قلت: نعم، قال: كوشفت بشيء من الحقائق، أو رأيت زيادة الكرامات عليك للزيارة، فإن النبي ﷺ قال: «**الحجاج والعمار زوار الله، وحق على المزور أن يكرم زواره**»[1]؟ قلت: لا، قال: ما زرت.

ثم قال لي: أحللت؟ قلت: نعم، قال: عزمت على أكل الحلال؟ قلت: لا، قال: ما أحللت.

ثم قال: ودّعت؟ قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودّعت وعليك العود، وانظر كيف تحج بعد هذا فقد عرفتك، وإذا حججتك فأجهد كما وصفت لك، قال الشيخ: فاعلم أيدك الله أني ما سقت هذه الحكاية إلا تنبيهًا، وتذكرة، وإعلامًا أن طريق أهل الله على هذا مضى حالهم فيه.

والشبلي هكذا كان إدراكه في حجه، فإنه ما سأل إلا عن ذوقه هل أدركه غيره أم لا؟ وغيره هذا، وقد يدرك ما هو إعلام منه، وأدون فما منهم إلا له مقام معلوم فما اخترعت في عباراتي؛ أي: التي ذكرها في أسرار الحج وغيره من أسرار العبادات هذه العبارات طريقة لم أسبق إليها إلا أن الأذواق تتقارب بحسب ما تكون عناية الله بالعبد في ذلك، انتهى.

ومن الرجال الذين في قنديلهم من دهن العناية زيت إذا طافوا بالبيت يتراون الله،

---

(1) ذكره الغزالي في الإحياء (1/ 152).

فيغيبون عن البيت شهود رب البيت.

ومنهم: الذين يطوف بهم البيت، وأنشد ما حصل في بيت دال على أنه من أهل البيت، ومنشده من أهل البيت وهو قوله:

كل قطب يطوف بالبيت سبعًا وأنا البيت طائف بخيامي

ولقد أخبرني الحي الميت القائل لي زليخا المعالي

هيت لك البالغ درجة الوجد إن فلم يقل علي وليت وكتم ما وجد فلم يخبر عنه، وكتب أنه مر في بعض أزقة هذه الدار المضيقة فاعتنقته من خلفه حقيقة فنظر، فإذا هي جارية جميلة الصفات لم يكن عندما رأى بها لغيرها التفات فسألها، وقد عاين من حسنها سلبه، فقالت له: أنا الكعبة.

وقال الأكبري -قدس الله سره- في الباب المتقدم في فضل الطواف: ولنا في ذلك جسم يطوف، وقلب ليس بالطائف ذات تصل، وذات ما لها صارف، يدعى وإن كان هذا الحال حليته هذا الإمام الهمام، ألهمهم العارف هيهات هيهات ما اسم الزور يعجبني قلبي له من خفايا مكره خاتف، ولقد نظرت يومًا إلى الكعبة وهي تسألني الطواف، وزمزم تسألني التضلع من مائه؛ رغبةً في الاتصال بالمؤمن، سؤال نُطقَ مسموع بالأذن لما لحقنا من الحجاب بها؛ لعظيم مكانتها من الحق عما نحن عليه في أحوالنا من القرب الإلهي، الذي يليق بذلك الموطن في معرفتها، فأنشد بها مخاطبًا ومعرفًا بما هو الأمر عليه، مترحمًا عن المؤمن الكامل:

يا كعبة الله ويا زمزمه كم تسألان الوصل صه ثم مه

إن كان وصل بكما وقعًا فرحمة لا رغبة فيكمهْ

ما كعبة الله سوى دارًا ذات الستارات التي المعلمه

ما وسع الحق سماء ولا أرض ولا كلم من كلمه

وراح للقلب فقال اصطبر فإن قلبنا المحكمه

منكم البناء وإلى قلبكم منافيًا بيتي ما أعظمه

فـــدمن عـــلى كعبتـــنا حـــبكم وحبـــنا فـــرض علـــيكم ومـــه

يـــا أعظـــم البسيت عـــلى غـــير ســـؤال يـــا عـــبدي بـــأن تلـــزمه

قـــد نـــور الكعـــبة تطـــوانكم فـــيها وأثـــواب الـــورى مظلمـــه

مـــا أصـــبر البـــيت عـــلى شرككـــم لـــولاكم كـــان كـــتم مـــثامه

كلفكـــم فـــما تواصـــيتم بالـــصبر أيـــضًا وبالمـــرحمه

مـــا أعـــشق القلـــب بـــذاتي ومـــا أشـــيد وحـــبًا ومـــا أعلمـــه

وكان بيني وبين الكعبة زمان، وقد ذكرت بعض ما كان بيني وبينها من المخاطبات في جزء سميناه تاج الرسائل، ومنهاج الوسائل، يحوي فيما أظن على سبع رسائل، أو ثمان من أجل السبعة أشواط، لكل شوط رسالة تجلت إلى الصفة الإلهية التي تجلت لي في ذلك الشوط؛ ولكن ما عملت تلك الرسائل، ولا خاطبتها بها إلا لسبب حادث، وذلك أني كنت أفضل عليها نشأتي، وأجعل مكانتها في مجلي الحقائق دون مكانتي، وأذكرها من حيث ما هي نشأة جمادية في أول درجة من المولدات، وأعرض عما خصها الله به من علو الدرجات؛ وذلك لأرقي همتها، فلا تحجب بطواف الرسل، والأكابر بذاتها، وتقبيل حجرها، فإني على بينة ترقي العالم علوه وسفلة مع الأنفاس؛ لاستحالة ثبوت الأعيان على حالة واحدة، فإن الأصل الذي يرجع إليه جميع الموجودات وهو الله وصف نفسه أنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

فمن المحال أن يبقى شيء من العالم على حالة واحدة زمانين، فتختلف الأحوال عليه؛ لاختلاف التجليات بالشؤون الإلهية، وكان ذلك مني في حقها لغلبة حال غلب عليَّ، فلا شك أن الحق أراد أن ينبهني على ما أنا عليه من سكر الحال، فأقامني من مضجعي في ليلة باردة مقمرة فيها رش مطر، فتوضأت وخرجت إلى الطواف بانزعاج شديد، وليس في الطواف سوى شخص واحد فيما أظن فصل فيما جرى من الكعبة في حقي تلك الليلة، وذلك أني لما قبلت الحجر، وشرعت في الطواف، فلما كنت في مقابلة الميزاب من وراء الحجر نظرت إلى الكعبة فيما تخيل لي قد شمرت أذيالها، واستعدت

مرتفعة عن قواعدها، وفي نفسها إذا وصلت بالطواف إلى الركن الشامي أن تدفعني بنفسها، وترمز لي عن الطواف بها، وهي تتوعد بي بكلام أسمعه بأذني فجزعت جزعًا شديدًا، فأظهر الله لي منها حرجًا وغيظًا بحيث لم أقدر أبرح من موضعي ذلك، وسر بالحج ليقع الضرب منها عليه جعلته كالمجن الحائل بيني وبينها، وأسمعها والله وهي تقول لي: تقدم حتى ترى ما اصنع بك، كم تضع قدري، وترفع من قدر بني آدم! وتفضل العارفين عليَّ، وعزة من له العزة لا تركتك تطوف بي، فرجعت مع نفسي، وعلمت أن الحق يريد تأديبي، فشكرت الله على ذلك، وزال عني جذعي الذي كنت أجده، وهي والله فيما تخيل لي قد ارتفعت عن الأرض بقواعدها مشمرة الأذيال؛ كما يشمر الإنسان ذيله إذا أراد أن يثب من مكانه يجمع عليه ثيابه، هكذا أخيلت لي قد جمعت ستورها عليها لتثب عليَّ، وهي في صورة جارية لم أر أحسن منها، ولا يتخيل فارتجلت أبياتًا في الحال أخاطبها بها، وأشر لها عن ذلك الحرج الذي عانيته منها، فما زلت أثني عليها في تلك الأبيات، وهي تتسع وتنزل بقواعدها على مكانها، وتظهر السرور بما أسمعها إلى أن عادت إلى حالها كما كانت، وأمتنني وأشارت إليَّ بالطواف، فرميت نفسي على المستجار، وما في مفصل إلا وهو يضطرب من قوة الحال إلى إن سرى، وصالحتها وأودعتها كلمة التوحيد عند تقبيل الحجر، فخرجت الشهادة عند تلفظي بها، وأنا أنظر إليها بعيني في صورة ملك، وانفتح لي الحجر الأسود مثل الطاق حتى نظرت إلى قعر طول الحجر فرأيته نحو ذراع، فسألت عنه بعد ذلك من رآه من المجاورين حتى احترق البيت فعمل ما لفظه، وأصلح شأنه، فقال لي: رأيته كما ذكرت في طول الذراع، ورأيت الشهادة قد صارت مثل الكبة، واستقرت في قعر الحجر وانطبق عليها، وانسد ذلك الطاق وأنا أنظر إليها فقال لي: هذه أمانة عندي أرفعها لك يوم القيامة أشهد لك بها عند الله، هذا قول الحجر، وإذا أسمع فشكرت الله، ثم شكرتها على ذلك، ومن ذلك الوقت وقع الصلح بيني وبينها، وخاطبتها بتلك الرسائل السبعة:

بالمستجار استجار قلبي لما أتاه سهم محادي

يا رحمة الله للعباد أودعك الله في الحماد

يـــا بـــيت ربي يـــا نـــور قلبـــي يـــا قـــرة العـــين يـــا فـــؤادي
يـــا سر قلـــت الوجـــود حقًـــا يـــا حرمتـــي يـــا صـــفاء ودادي
مـــا قـــبلة أقـــبلوا إلـــيها مـــن كـــل ربـــع وكـــل وادي
ومـــن بقـــي فمـــن ســـما ومـــن فنـــي فمـــن مهـــادي
يـــا كعـــبة الله يـــا حـــياتي يـــا منهج الـــسعد يـــا رشـــادي
أودعـــك الله كـــل آمـــن مـــن فـــزع الهـــول في المعـــاد
فـــيك المقـــام الكـــريم يـــزهو فـــيك الـــسعادات للعـــباد
فـــيك الـــيمن التـــي كـــستها خطيتـــي حلـــة الـــسواد
ملتـــزم قـــيك مـــن يـــلازم ســـواه يـــسعد يـــوم التـــنادي
ماتـــت نفـــوس شـــوقًا إلـــيها مـــن ألم الـــشوق والـــبعاد
مـــن حـــزن مـــا نالهـــا عليهم قـــد لبـــست حلـــة الحـــدادي
لله نـــور عـــلى ذراهـــا مـــن نـــوره للفـــؤاد يـــادي
ومـــا يـــراه ســـوى حـــزين قـــد كحـــل العـــين بالـــسهادي
يطـــوف ســـبعًا في أثـــر ســـبع مـــن أول الليـــل للمـــنادي
لغـــيره مـــا لهـــا انقطـــاع رهـــين وجـــد حلـــف اجـــتهادي
ســـمعته قـــال مـــستغيثًا مـــن خائـــف البـــيت آه فـــؤادي
قـــد انقـــضى ليلـــنا حنيـــنًا ومـــا انقـــضى في الهـــوى مـــرادي

انتهى.

ويؤيد تفضيل الشيخ ﷺ نشأته عليهم قوله ﷺ: «القد شرفك الله، وعظمك،

وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك»[1] يعني: الكعبة، رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر ﷺ.

وعنه ﷺ: «مرحبًا بك من بيت ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك»[2] رواه البيهقي وأبو داود عن ابن عباس.

وعنه ﷺ: «لا إله إلا الله ما أطيبك، وأطيب ريحك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك الله جعلك حرامًا، وحرم من المؤمن ما له ودمه وعرضه، وأن يظن به سيئًا»[3] رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعنه ﷺ: «يا كعبة ما أطيب ريحك، ويا حجر ما أعظم حقك، والله للمسلم أعظم حقًا منكما»[4] رواه العقيلي في الضعفاء عن أبي هريرة.

وعنه ﷺ: «يؤتى بالحجر الأسود، وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد»[5] رواه الحاكم والبيهقي عن الإمام علي ﷺ.

واعلم أن مقام توحيد الأفعال يقضي بعدم رؤية الأعيان؛ لأن من شاهد الفاعل فيه غيره، وأنه بين يدي سيده؛ كالميت بقلبه كيف يشاء خلص من ورطة الشرك الخفي، وهو بنسبة له لغيره للخلق، وسلم من داء العجب بالأعمال والرياء فيها؛ لأنه لم يشهد له عملاً يعجب، أو يرائي فيه؛ بل يشهد المنة والفضل لمن أقامه في طاعته، وخلع عليه خلعة التوفيق لها، ونزع عنه ثوب الخذلان الذي كساه لمن أقامه في مقام العصيان.

حكي أن الواسطي لما دخل نيسابور سأل بعض أصحاب أبي عثمان، فقال: بماذا كان يأمركم شيخكم؟

قال: كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير، قال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلّا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها؟ انتهى.

ودليل مقام توحيد الأفعال قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وفي الحديث:

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (6/ 36).
(2) رواه البيهقي في الشعب (3/ 444).
(3) رواه الطبراني في الكبير (11/ 37).
(4) رواه العقيلي في الضعفاء (1/ 187).
(5) رواه البيهقي في الشعب (3/ 451).

«إن الله صانع كل صانع وصنعته»[1].

قال المناوي رحمه الله تعالى: مع صنعته فهو خالق للفعل والفاعل لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات:96] وبهذا أخذ أهل السنة، وهو نص صريح في الرد على المعتزلة، وكمال الصنعة لا يضاف إليها، وإنما يضاف إلى صانعها، وهذا الحديث قد احتج لما اشتهر بين المتكلمين والفقهاء من إطلاق الصانع عليه تعالى...إلخ.

حتى أن من تحقق في هذا المشهد بالذوق الذي يذوقه الخواص لا يطالب في أعماله بالإخلاص؛ لغيبته بربه عنها، ومن رأى إخلاص نفسه فما أخلص ولا خلص منها.

قال سيدي رسلان الدمشقي -قدس الله سره المصان: كلك شرك خفي، وما يبين لك شركك إلا إذا خرجت عنك؛ فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت فتستغفر منك، وكلما وجدت بأن الشرك يتجدد في كل ساعة ووقت توحيدًا، وإيمانًا فما دمت أيها المريد مشتغلاً برؤية أعمالك، وصالح أحوالك عن مولاك الذي بالحول والقوة أولاك، فأنت محجوب عن المطلوب إذ الشاغل عنه حجاب، ولو كان من أرفع الأسباب.

قال أبو العباس المرسي ذو التعريف والتشريف ﷺ: اللطف حجاب عن اللطيف؛ أي: نظرك للطفه، وقوف منك مع وصفه، والوقوف مع الصفة حجاب عن الموصوف.

ثم إن المؤلف -سامحه العليم- أراد بعد التخصيص دخول دائرة التعميم ليخلص من داء الشرك الوخيم، فقال طالبًا تحقيق داء الخروج القويم:

وَكَذَا عَلْمِي وَكَذَا عَمَلِي وَكَذَاكَ دَلِيلِي مَعْ حُجَجِي

قال الشارح: (وَكَذَا) أي: وكما أتيتك خاليًا عن شهود ما تقدم أتيتك خاليًا عن نسبة وصف العلم لي؛ لعلي أقدم عَلْمِي المضاف إليَّ بالنسبة المجازية، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النور:19]، وقال تعالى حاكيًا عن الملائكة الكرام: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:32]، ومن كان علمه بربه، ثم رد ما استفاد منه إليه رأى نفسه خاليًا من العلم كمن استفاد مسائل علمه؛ ثم ردها لأصحابها لم ير نفسه عالمًا بل جاهلاً، فكل علم قام بنا فهو الذي أوجده فينا؛ فالعلم

---

(1) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (3/ 538).

حقيقة له وهو العليم لا غيره، فإنه الذي ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:12] فأحاط بجميع صفاتنا فانمحت بظهور آثار صفاته، فلم يبق بأيدينا منها إلا النسبة المجازية، وهو خالقها فرجعت إليه.

(وَكَذَا عَمَلِي) وتقدم الكلام على العمل أوائل التوسلات، (وَكَذَاكَ دَلِيلِي) الدليل ما يستدل به لتقربه المدلول، وهو على قسمين: عقلي، وسمعي (مَعْ حُجَجِي) بضم الحاء: جمع حجة، والحجة: البرهان؛ أي: وأتيتك خليًا مما استدل به واحتج به؛ لأنك الموجد له، ومن كل ما فيه شائبة منك والقوم لا يرون لهم ملكًا، وإن أضافوا لهم ذلك حسنًا بلسانهم بقلوبهم مشاهدة لها للمالك الحقيقي ملاحظة دوام الافتقار إليه، وأنه صفر اليدين فقير لا شيء له، ويعلم الله تعالى من ليعطيه بقدر خلوص نيته وصفاء سريرته؛ فالعبد لا دليل له ولا برهان؛ بل الله الحجة البالغة والسلطان؛ ثم لما وصف نفسه بالخلو عن الأعمال، والأقوال، والأفعال تحقق في فقره وعجزه وذله دون غيره؛ فلذا قال خفف الله عنه الأثقال:

لَا أَمْلِكُ شَيْئًا غَيْرَ الدَّمْـ ـعِ مَخَافَةَ أَنْ يُغْشَى وَهَجِي

قال الشارح: (لَا أَمْلِكُ شَيْئًا) من سائر الأشياء؛ إذ حقيقة الملك التصرف في المملوك، ولا تصرف الإله تعالى ولا ملك سواه؛ إذ هو المالك لكل ما عداه، وأنشد الأواه:

الملك لله من يظفر بنيل مني يسرده قسرًا ويضمن بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة فوق البسيطة كان الأمر مشتركا

والشيء هو الموجود على الراجح، وهو أنكر النكرات، ونصب على المفعولية والمعنى: ليس لي تصرف في شيء من الأشياء ولا ولاية على شيء، وإن صرفني، أو ولاني؛ فبطريق النيابة، والخلافة، والقارئة المستردة.

(غَيْرَ) أداة استثناء ويوصف بها، والاستثناء بها عارض كما أن الوصف بالأعراض، وقد تكون بمعنى: لا كما في قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [البقرة:173] فعلى الاستثناء تقربها إعراب ما بعد الأوان وصفت أعربتها إعراب ما قبلها تقول: ما جاءني

غيرك، وما جاءني أحد غيرك، وهي هنا منصوبة؛ لأن موصوفها منصوب، (الدَّمْعِ) وهو ماء العين، وقد يجري لفرح، أو ترح، والدمعة: القطرة منه، فإني أملكه وأتصرف فيه بحيث أكفكفه، وعن عين الوشاة أخفيه، وهو عند أهل التهام يدعى النهام.

وقلت من قصيدة:

قد تم طوقي عما ما كان في خلدي ... وحان صبري لما حان مسراك

وعده الفارضي الفائق من العوائق:

وانظُرْهُ عنّي إنّ طرْفي عاقني ... إرسالُ دمعي فيه عن إرساله

وعده بعضهم من العوائق؛ لمنعه شهود الحبيب حيث لا مانع.

وقلت في هذا المعنى:

من بذا المحبوب يجلي ... ومحا بالقرب عيني

غبت فيه عن وجودي ... وشهودي نعمت أيني

وبه أبقيت لما ... بالفناء أذهب عيني

وعداتي البين راموا ... لي عن بدري وزيني

ولقد أعددت منهم ... يوم وصلٍ ماء عيني

ثم علل سبب ملكه الدمع وتصرفه في إخفائه بقوله: (مَخَافَةَ) مصدر خاف منصوب على أنه مفعول لأجله، قال في «المختار»: خاف يخاف خوفًا وخيفة ومخافة فهو خائف، وقوم خوف على الأصل، وخيف على اللفظ، انتهى.

(أَنْ يُغْشَى) أي: يظهر الدمع الذي من شأنه إظهار الأسرار للأغيار، وإذاعتها بين الأشرار، (وَهَجِي) أي: توقدي والتهابي بغير أن غرامي المثير لاكتئابي، والمعنى: إنما سترت دمعي عنه انسكابه الدامي؛ خوفًا من أن يزيغ غرامي بين لوامي فيسعون في انقطاعي عما به ارتفاعي، وانتفاعي، وحصول اجتماعي، وكشف قناعي، فإن الدفع ساع في إذاعة سري، ولا بُدَّ أخفي أمري مراعي، وأنشد العباس بن الأحنف في ذلك قوله:

لا جزى الله دمع عيني خيرًا ... وجزى الله كل خير لساني

بـــاح سري فلـــم يكـــتم شـــيئًا ورأيـــت اللـــسان ذا كـــتمان

كـــنت مـــثل الكـــتاب أخفـــاه طـــي فاســـتدلوا علـــيه بالعـــنوان

واعلم أن ستر الحال مطلوب عنه أرباب القلوب، فإنهم لا يجر على الظاهر؛ بل على ما به القلب يسمى بالظاهر، وتختلف الأحوال بحسب المقاصد والعمال فمن الناس من يبكي فلا يضحك، ومنهم: من يضحك فلا يبكي، ومنهم: من لا يبكي ولا يضحك، ومنهم: من يبكي تارة ويضحك أخرى، ولكل مقام رجال، ولكل بحسب الاختصاص مجال.

ولما كان المناجي لمولاه من شأنه الحضور ورؤية عدم الوفاء بحقوقها؛ بل القصور وقد فاه اللسان بما أعتق الجنان من الخروج عن رؤية أعماله، ومعلوماته، وسائر أحواله ومنازلاته؛ بل عن كل شيء ما خلا الدمع المصان في الأجفان المملوك بالكتمان في ميزان الرجحان فلا يبديه إلا حب قاهر أو خوف باهر.

وكان الحبيب طالبه بالدليل على ما ادَّعاه، فقال -سامحه الله ووفقه للعمل بما إليه دعاه:

هَـــلْ غَـــيْرُ جَـــنَابِك يُقْـــصَدُ لَا وَجَمَالِـــكَ ذِي الْحُـــسْنِ الْـــبَهِجِ

قال الشارح: (**هَلْ غَيْرُ جَنَابِك يُقْصَدُ لَا**) هل: حرف استفهام إنكاري كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ ﴾ [فاطر :3]، وأقام نفسه مقام سائل؛ ثم أحالها بلا النافية وأكد القسم.

فقال: (**وَجَمَالِكَ**) أي: وحق جمالك وصاغ القسم به؛ لأنه من أوصاف النداءات لا يجوز القسم إلا بالله وصفاته، ومضى الكلام على الجمال، وقيل: إن الحسن يرجع إلى الصورة والجمال إلى الهيئة، وحكي عن الأصمعي: أن الحسن في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم، ولا يوصف الجميل بالحسن؛ بل بالجمال؛ لأنه ضد الجلال، وهو تعالى ذو الجلال والإكرام، قال الفارضي الهمام:

سَـــقَتني حُمَـــيَّا الْحُـــبِّ راحَـــةَ مُقلَتـــي وَكَـــأسي مُحَـــيَّا مَـــن عَـــنِ الْحُسنِ جَلَّـــتِ

(**الْبَهِجِ**) أي: المسرور، قال في «المختار»: وبهيج به فرح، وبابه طرب فهو بهج بكسر

الهاء أيضًا، وبهجه الأمر من باب قطع وأبهجه؛ أي: يسره والابتهاج السرور، انتهى.

والمعنى: ليس غير جنابك يؤتى إليه، ويلتجئ به، ويقول عليه: لا وحق جمالك الذي هو كناية عن مجموع صفاتك الحسنى، وينبوع أسمائك الحسنى فجمالك صاحب الحسن المسرور، وربما اختص به بالنسبة إليك يا نور النور، وإذا كان غيرك لا يقصد، ونجوم إمدادات سواك لا ترصد، فقاصد الغير في السير ضير وقع في قفص طير.

فلذا قال منحه الله سلوك سبيل الخير والمبر:

مَنْ يَقْصِدْ غَيْرَكَ فَهُوَ إِذًا بِظَلَامِ الْبُعْدِ تَرَاهُ فُجِي

قال الشارح: (مَنْ) شرطية جزم الفعل بها، وهو (يَقْصِدْ) أي: يأت طالبًا، (غَيْرَكَ) أي: سواك (فَهُوَ) أي: ذلك القاصد الخير الرشيد المنادي من كل بعيد (إِذًا) أي: حيي إذا كان قاصد الغير (بِظَلَامِ) إنما للملأ به والظلام ضد النور، ومن الكلام عليه (الْبُعْدِ) عن المحبوب، وهو ضد القرب من المطلوب (تَرَاهُ) يا من لا تراك العيون، ولا تخالطك الأفكار والظنون، ولا تصفك الواصفون، والرؤية هنا بمعنى: العلم، وهو تعالى البصير العليم بما كان وما يكون المطلع على سر العبد، ونجواه في كل حركة وسكون الرقيب الشهيد الذي أمره بالكاف والنون القائل في كتابه المكنون وهو ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:218]، وأضاف الرؤية إليه تعالى؛ لأنه البصير على الحقيقة بطوايا المقاصد، وخبايا زوايا من هو لثمرات أعماله حاصد.

والقصد لغيره مرض من أمراض القلوب ولا يطلع عليها إلا علام الغيوب، وعنه ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، واحسب نفسك مع الموتى واتق دعوة المظلوم، فإنها مستجابة**»[1] رواه أبو نعيم في «الحلية» عن زيد بن أرقم، وعنه ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»[2] رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن عمر، وأحمد، والشيخان، وابن ماجه عن أبي هريرة، وحق لمن علم أن مولاه يراه، وأقبل على غيره معرضًا على إحسانه الواصل إليه، وخيره أن يأخذ

(1) ذكره المناوي في الترغيب (1/ 164).

(2) رواه البخاري (1/ 27)، ومسلم (1/ 37).

ظلام البعد بغتة، فإنه فارق وصفه ونعته أن العبد لا يقصد غير مالكه، وإن ضيق عليه رحيب مسالكه.

(فُجِي) أي: فهو مفجوء؛ إذا بظلام البعد حال كونك تراه يا علام الغيوب يا سلام بعينك التي لا تنام، قال في «الصحاح»: فاجأه الأمر مفاجأة وفجاء، وكذلك فجئه الأمر، وفجئه الأمر فجأة بالضم والمد، انتهى.

أي: جاءه بغتة، ومنه حديث: «**موت الفجاءة أخذة أسف**»[1]، وفي رواية: «**راحة للمؤمن، وأخذة أسف للفاجر**»[2] فمن اشتغل بالغير عن مولاه، وفرح بما أعطاه، وأولاه أخذه بغتة بغفلته، وقابله بجفوته، يا عجبًا كيف يطمع في التقريب من قصد غير الحبيب؟ أم كيف يرجوا الوصول من هو بتوجهه المغير مفصول؟

فلو نبهت أيها الوسنان من رقادك، وجردت سبق عزمك في ميدان جلادك لكريت على القواطع فشردتهم، وفي تيه التمزيق بددتهم؛ لكن الأماني أوقعتك في البطالة، والتقصير أراك في وجهتك الإطالة، وأشهدتك النفس صعوبة المرتقي، فمالت بك إلى الملالة، وخوفتك من المخاوف، وأحالتك على الاستحالة، وأنستك بوحشتها حتى أنستك إليه اللازم بعثرتها، وفي هذه الوهاد بفجاء ظلام البعاد؛ فلا تنفع المواعظ من ليس من قلبه واعظ، ولا يفيد التذكير مع لاه في ملاهي التدبير، فتوجه أيها الأخ بخالص جنابك، واستعبد كل أركانك فعسى أن يرفع الحجاب، وتهدى طريق الصواب، وتنزع أثواب التعلل، وتقبل على المولى بوصف التذلل لا لتدلل؛ فطالب السوي في الدركات هوى، وطالب غير الله في الأرض كلها لطالب ماء من سراب بقيعة، فإنه تعالى الموجود الذي من طلبه وجده، ومن وجد في كل حال غيره فقده، ومن فقده أبعده، ومن أبعده طرده، ومن طرده جحده، ومن جحده أعبده، ومن لم يجد غيره فقد وجده، ومن وجده أشهده، ومن أشهده استعبده، ومن استعبده أرشده، ومن أرشده أسعده، ومن أسعده هداه وله أفرده، ومن أفرده نجاه من الهلاك وسدده وشدده؛ فلذا قال مستدلاً على ما قصده أيده الله، وفي جنة شهوده أبده:

---

(1) رواه البيهقي في الكبرى (3/ 378).

(2) رواه البيهقي في الكبرى (3/ 379).

مَنْ أَنْتَ تَضِلُّ فَذَاكَ مِنَ الَّـ ـهُـلَّاكِ وَمَنْ تَهْدِي فَنَجِي

قال الشارح: (مَنْ أَنْتَ تَضِلُّ) قال: إنه تعالى كذلك ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر:31] والضلال: ضد الهداية، ولكل منهما بداية وتوسط ونهاية، والضلال هو الحيرة، وهو مقدم على الهداية؛ لأنه مرتبة أجمال وهي مقدمة على التفصيل، وهما عبارة عن السر النوني، والأمر القلمي.

قال سيدي محمد القونوي -قدس الله سره السوي- في «شرح الفاتحة»: بعدما تكلم على سر تقدم حكم ضلالة الإنسان على هدايته، ولما قدر الإنسان على الصورة، وظهر نسخة وظلاً، جاءت نسخته على صورة الأصول التابعة لأصله لا جرم كانت ضلالته مقدمة على هدايته؛ كما أخبر سبحانه وتعالى عن أكمل النسخ، وأتم الناس تحققًا وظهورًا بالكمال الإلهي الإنساني بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:7] أي: كنت بحال من لم يتعين له وجه الصواب، والأولوية فيما ذا فغيته لك وميزه عن غيره ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء:113] فكملت في مرتبة الهداية وغيرها، وامتلأت حتى فضت فهديت، وكملت، وانبسط منك على غيرك فتقدى بك خيري إلى الكون، وبي خيرك فسبحان الذي خلق الإنسان وهداه النجدين؛ ثم اختار له الصراط السوي الاعتدالي

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113]، انتهى.

والنجدين: طريقي السعادة والشقاوة ومنتهاهما إليه ﷺ غير أن طريق صاحب السعادة ينتهي به إلى القرب، والشقاوة إلى البعد، وهو تعالى الآخذ بناصية كل من الناجي، والهالك، والأخذ في الأول: كرامة وعناية، وفي الثانية: إهانة وغواية، والهداية على قسمين: هداية توفيق، وهداية بيان وتحقيق، والأولى: اصطفاء، والثانية: ابتلاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:35] وتسمى الأولى: مطلقة، والثانية: مقيدة، والمطلقة أشار إليها بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56] وإلى الثانية بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:52].

والمقيدة على نوعين: هداية عوام وهداية خواص، والأولى: هي باتباع شرع النبي ﷺ الذي هو عليه في ظاهره، والثانية: سلوك طريقته التي هو عليها في باطنه، ولا يمكن سلوك الطريقة الثانية بدون الأولى، والأولى: هداية إلى الله تعالى، والثانية: هدى الله، وقد اختلف في هدى الله فقيل: هو الإيمان، وقيل: هو العلم، وقيل: الدليل، وقيل: الكتاب، وقيل: البيان، وحقيقة الهداية: التوفيق، والإضلال: الخذلان، والضلال الحيرة؛ كما مر وهي تشمل أهل البداية والتوسط والنهاية، فحيرة أهل البداية عليه، وحيرة أهل التوسط فيه، وحيرة الكمل في وجوه الحيرة التي لا مفر منها ولا براح؛ فالأولى: تزول بالعيان، والثانية: تزداد بالبرهان، والثالثة: لا ينفك عنها الإنسان.

فَذَاكَ أي: الذي أضللته (مِنَ الْهُلَّاكِ) جمع: هالك، قال في «المختار»: ويجمع هالك على هلكي وهلاك، انتهى.

(وَمَنْ تَهْدِي) أي: ومن خصصته بالهداية ومنحته إياها فضلاً منك مقرونًا بالرعاية، (فَنَجِي) أي: فهو نجي، وفي البيت جناس من التقابل بين الضلال والهدى، والهلاك والنجاة، ولما كان الهدى والضلال بيد الكبير المتعال، وهو الفعال لما يريد لزم العبد الرشيد الخوف الشديد من تقليب القلب نعوذ بوجه الرب من الطرد والسلب، وعدم الأمن من المكر، فإنه دليل الخسران بنص القرآن ومن لازم الخوف، والخشوع، والخضوع، وانسكاب الدموع.

فلذا ناسب أن يقول، والنار تؤجج بين الضلوع:

وَدُمُوعُ الْعَيْنِ تُسَابِقُنِي ... مِنْ خَوْفِكَ تَجْرِي كَاللُّجَجِ

قال الشارح: (وَدُمُوعُ) جمع دمع، ومر الكلام عليه في الميمية (الْعَيْنِ) وهي الجارحة، وتطلق على الشمس وعين الركبة والراحلة والذهب والذات والكبير و﴿ عَيْنٍ جَارِيَةٍ ﴾ [الغاشية:12] والحرف إلى غير ذلك (تُسَابِقُنِي) المسابقة مفاعلة؛ أي: تبادر بسكبها، وأنا أبادر لأخذها بالأطراف لأسترها عن الأطراف، وسبب هذه المسابقة كائن (مِنْ خَوْفِكَ) يا مولاي، فإنك قلت: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:175] فالخوف نتيجة الإيمان، ولو أعطى صاحبه الأمان، ويشهد لك قول الفاروق المصان: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، قال السهروردي في «معارفه»: الحاوي على الدرر

الثمان يعني: لو كتب له كتاب الأمان حمله على صرف المعرفة، وتعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف من حق العظمة، انتهى.

والخوف من منازل العامة سبق، والقلب إذا دخله سلطان الخوف انتقل كل واحد من الجوارح فيما أمر به، فالسمع بالاستماع لمواقع نجوم الإنذار، واللسان بالذكر والاستغفار وسكنت الأعضاء وخشعت بخشوع القلب من التدبر والاعتبار، والعين بسكب الدموع القرار فلم يبق للعبد جارحة إلا وهي في ميدان الرجوع لربها سارحة، فهذه علامة دخول الخوف الجوف، وهو من منازل العامة ويزول بحلول طلول دار الوصول، والبقاء بخلاف الهيبة فإنها باقية وبها يحصل الارتقاء، وسبق الكلام على الخوف.

(تَجْرِي) أي: تسيل من محاها بمعصرات رياح الخوف (كاللُّجَجِ) أي: كأمثال اللجج جمع: لجة، ولجة الماء بالضم معظمه؛ كذا في «المصباح»، وهذا من باب المبالغة والمغالاة، وهما واقفان في كلام العرب ومعدودان من أنواع البديع.

فإن قلت: أليس هذا البيت يناقض ما تقدم من ملك الدمع، قلنا: لكن المسابقة الناشئة من الخوف لا يمكن منعها من الجريان؛ لأن الإناء إذا امتلأ فاض فكم تمكن الكتمان، وقد يقال: أن الدمع الذي يمكن أن يتصرف في إخفائه دمع الحب، وأما دمع الخوف فلا؛ لأنه مجري الدموع، قالوا: بل فكتمها غير قابل، وربما يقال: إن كتم الدمع إنما يكون في حالة الصحو؛ فإذا استغرق المحب عن نفسه تواردات الخوف غاب عن تدبير حسه فجرت الدموع؛ إذ ليس من قدرته بعد الغيبة الرجوع إلا إذا أمكنه الحق من ذلك؛ فهذا أمنا منه تعالى لا بحول وقوة من السالك، أو يقال: إن ملك الدمع فيما إذا كان الوارد أضعف من صاحبه في القوة، وهما متساويان فيها، والمسابقة فيما إذا كان الوارد أقوى من صاحبه، فيكون الملك وعدمه بحسب الموارد والأحوال إلا في كل حال.

وكأنه لحظ أن عازلاً يعزله على ما هو بصدده، ويلومه حسدًا على ما يراه من حسن مدده؛ فقال مخاطبًا من لحبه ووشمه، وسعيه بالعزل:

يَـــا عَـــاذِلَ قَلْبِـــي وَيْـــلَ فَـــدَعْ عَـــذْلِي وَاقْـــصِرْ عَـــنْ ذَا الحَـــرَجِ

قال الشارح: (يَا عَاذِلَ قَلْبِي) أي: يا لائمه عن حبه وهو لاه عنك بموارد قربه،

ويكن أصله (وَيْلَ) لك وهي كلمة توبيخ؛ أي: إن لم تدع عزلي ويل لك وهي كلمة عذاب.

ونقل في «المختار» عن عطاء بن يسار: أن الوَيْل وادٍ في جَهنّم لَوْ أرسِلَتْ فِيه الجِبَالُ لَماعَتْ مِنْ حَرِّهِ، انتهى.

وعنه ﷺ: «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر حريقًا قبل أن يبلغ قعره»(1) رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، والحاكم عن أبي سعيد بخلاف ويح، فإنها كلمة رحمة، وقيل: هما بمعنى واحد، فَدَعْ عَذْلي فإنه لا يجدي نفعًا؛ بل يثير من العداوة نفعًا، وبعض العشاق من يتطلب العزل؛ لأنه فيه ذكر المحبوب، فهو جد وما عداه هزل.

قال الفارضي قدس الله سره:

أدِرْ ذِكْـرَ مَـن أهْـوى ولـو بمَـلامِ ... فـإنّ أحاديـثَ الحَبـيبِ مُدامـي

لِيَشْهَدَ سَـمْعي مَـن أُحـبُّ وإن نـأى ... بطَـيفِ مَـلامٍ لا بطَـيفِ مَـنام

وقال في الثانية:

يَـراها عـلى بُعـدٍ عَـنِ العَـينِ مسـمَعي ... بطَـيْفِ مَـلامٍ زائـرٍ حـينَ يَقظَتـي

فيغْـبِطُ طَـرْفي مـسمَعي عِـندَ ذِكـرها ... وَتَحْـسِدُ مـا أفنَـتْهُ مِنِّـي بَقِيَّتـي

(وَاقْصِرْ) من الاقتصار؛ أي: أقل من ذلك فإنك لم تذق مذاقه، ولا عرفت التباعد واحتراقه، وإن كنت تريد إصلاح فساده؛ فهو قد اختاره على رشاده، فحظك أيها الكريم العناء وحظه الهناء من وصال حبيبه وبلوغ المنى؛ فيكفيك ما فيك من نار حسد تكويك، ويكفيه ما فيه من حظ يظهره، وحظ يخفيه (عَنْ ذَا) أي: هذا (الحَرَجِ) الذي أوقعك في المرج، قال في «القاموس»: الحرج محركة: المكان الضيق الشجر، وجمعه: إحراج كجبال، والتحريج: التضييق، انتهى.

فقد تعبت نفسك في نصيحة مستريح بمواصلة محبوبة، وضيقت عليها بعزل موسع عليه بمسامرة مطلوبة فبالله عليك أيها العازل الذي كل الإساءة باذل؛ إذا وافقتك

---

(1) رواه الترمذي في سننه (5/ 320).

في الميل وكلت بكيلك؛ أي: كيلي، فأي باب أقصد ولأي جناب أرصد، وإذا عدلت عن هذا الطريق وجنحت لغير هذا الفريق، فأي طريق أعلى منه حتى أسعى إليه، وأعدل في سيري عليه، وأي رجال أرفع من رجاله، وأي مجال أوسع من مجال، فإن الويل لي إن ملت لقائك، أو أعريك طرفًا، أو أنلتك بعض منالك؛ فوالله لا يطلب غير مطلوبي، ولا يقصد غير محبوبي وليس الناس إلا أهل الاقتباس والشرب من هذا الكأس، كما أنشد العارف ذو المعارف:

ما القوم سوى قوم عرفوك وغيرهم همج همج شربوا

بكؤوس تفكرهم من خمر هواك فما مزجوا

دخلوا فقرًا إلى الدنيا وكما دخلوا منها خرجوا

ثم أخذ يشدد عليه النكير مشمرًا ذيل الودى؛ أي: تشمير، فقال سامحه الكبير:

كَمْ تَعْذِلُنِي لَمْ تَعْذُرْنِي دَعْنِي فِي الْبَسْطِ وَفِي الْفَرَجِ

قال الشارح: (كَمْ تَعْذِلُنِي) أي: تلومني مرات كثيرة (لَمْ تَعْذُرْنِي) أي: لم تكن عاذري في حب من أهوى؛ بل كنت عاذري، وأنت ترى غلبة الجوى؛ لكن لا يعذر المشتاق إلا من بُلي بالأشواق (دَعْنِي) أي: اتركني (فِي الْبَسْطِ) الذي هو تقابل القبض؛ لأن من كان في سائر حالاته للحبيب يشاهد كان البسط شأنه في أغلب المشاهد، والقبض والبسط حالان يتواردان على القلب هذا تارة، وذاك أخرى، ويكونان عن سبب وغيره، وقد يوقف الله سبحانه وتعالى القلب في المحل الوسطي البرزخي الاعتدالي، فلا يقلبه وارد جمال ولا جلال، وقد يقهره واردًا درهما؛ ليعلم العبد أنه مقهور تحت غلبة سلطانه غير مختار ولا مجبور في كل أحيانه.

قال سيد الطائفة الجنيد البغدادي -قدس الله سره النادي: الخوف يقبضني والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني إذا قبضني بالخوف أفناني عني؛ وإذ أبسطني بالرحيل ردني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا أفرقني بالحق أشهدني غيره فغطاني عني فهو في كل ذلك فحركي غير مسكني، وموحشي غير مؤنسي لمذوق طعم وجودي فليته أفناني عني فمتعني أو غيبني فارجعني، انتهى.

وقال الإمام السهرودي -قدس الله سره- في «عوارف المعارف»: وهما حالان شريفان، قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ [البقرة:245] وقد تكلم فيهما الشيوخ، وأشاروا بإشارات هي علامة القبض والبسط، ولم أجد كشفًا عن حقيقتهما؛ لأنهم اكتفوا بالإشارة، والإشارة تقنع الأهل، وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ومحب لسبط القول فيه.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم، ووقت محتوم لا يكونان قبله، ولا يكونان بعده، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة، فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء، وقد يجد شبه حال القبض، وحال البسط ويظن ذلك قبضًا وبسطًا وليس هو ذلك؛ وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضًا، واهتزاز نفساني، ونشاط فيظنه بسطًا، والهم والنشاط يصد، وإن من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، وما دامت صفة إلا مادية منها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهمم، وهج ساجور: هي خشبة تجعل في عنق الكلب، يقال: كلب مسجورًا مختار، والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع، فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال، وذا قلب، وذا نفس لوامة، ويتناول القبض والبسط فيه عند ذلك؛ لأنه ارتقى من مرتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان، وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطي: يقبضك عمالك ويبسطك فيها له، وقال: النور يقبضك إياه ويبسطك لإياه، واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط والظهور صفة القلب وغلبته، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها؛ فصاحب القلب تحت حجاب نوراني بوجود قلبه؛ كما أن النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه؛ فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال، ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القلب حينية، ولا ينبسط مادام متخلصًا من الحجاب النوراني الذي هو القلب، ومتحققًا بالقرب من غير حجاب النفس، والقلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص الفناء والبقاء فلا قبض، ولا بسط.

قال فارس: أولاً القبض، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقع في الوجود، فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم أن القبض آن يكون عقوبة الإفراط في البسط، وذلك إن الوارد من الله يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحًا وفرحًا واستبشارًا، فتسترق النفس عند ذلك وتأخذ نصيبها؛ فإذا وصل أثر ذلك الوارد إلى النفس طفت بطبعها، وأفرطت في النفس حتى شاكل البسط نشاطًا فتقابل القبض عقوبة، وكل القبض إذ اقتبس لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها، ولو تأدبت النفس وعدلت، ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ودوام روحه وأنسه.

ورعاية الأول الذي يسد الباب القبض تلقي من قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:23] فوارد الفرح ما دام موقوفًا على الروح والقلب لا يكيف، ولا يستوجب صاحبه؛ سيما إذا لطف الفرح بالوارد بالإيواء إلى الله، وإذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تطلعت النفس وأخذت حظها من العرج؛ وهو الفرح بما أتى الممنوع منه، فستى ذلك القبض في بعض الأحايين، وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض؛ ثم الخوف والرجاء لا يعد منهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة؛ لأنهما من صورة الإيمان فلا ينعدمان، وأما القبض والبسط فينعدما عند صاحب الإيمان؛ لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب؛ لتخلص من القلب، وقد على الباطن قبض وبسط، ولا يعلم سببها ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم الحال ولا علم القيام، ومن أحكم علم الحال والقيام لا يبقى عليه سبب القبض والبسط، وربما كان يشتبه عليه سبب القبض والبسط ويشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لا يقدح من جوهرها نار توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط، وربما صار ليل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه تكون نفسه المطمئنة بطبع القبض، فيجري القبض والبسط في بعض المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط، انتهى.

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ [البقرة:245] وكل منهما يذم، ويحمد

بالاعتبار، فإذا قبضك إليه وبسطك له حمد، وإذا قبضك عنه وبسطك لغيره ذم، وإذا كان تجلي الحق جل جلاله على القلب باسمه القابض ضاق عن كل شيء، وإذا تجلى عليه باسمه الباسط اتسع فوسع كل شيء، ولما كانت هذه الدار دار عصر وضيق لم يدم بسطها، ولا قبضها، وأما الدار الآخرة فلاتساعها وعدم تناهيها دام بسطها بلا حد؛ إذ لا حد لها وكل محدود محصور مقيد، وهذا لا ينفك عنه القبض والمطلق بعكسه.

وصاحب البسط من يسع الأشياء ولا يسعه شيء، وفي الحكم العطائية: قبضك كيلا يبقيك مع البسط، وبسطك كيلا يتركك مع القبض، وأخرجك عنهما كيلا تكون لشيء دونه، العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل البسط، تأخذ النفس فيه حظها بوجود الفرح، والقبض لا حظ للنفس فيه؛ انتهى.

وقد قال بعض العارفين: القبض للأرواح، والبسط للارتياح، والقبض حق الحق منك، والبسط حظك منه، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك، وقال آخر: اجلس على البساط، وإياك والانبساط، وقال رجل لأبي محمد الحريري رحمه الله تعالى: كنت على بساط وفتح عليَّ طريق البسط، فزللت زلة فحجبت عن مقام، فكيف السبيل إليه؟ فدلني على الوصول إلى ما كنت عليه، فبكى أبو محمد وقال: يا أخي الكل في قبضة، هذه القصة؛ ولكن أنشدك أبياتًا لبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

فلكم وقعت بربعها مستخبرًا ... عن أهلها ومسائلاً أو مشفقا

فجاءني داع الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى ففر الملتقى

وسئل بعض المشايخ عن تلك الزلة فقال: انبساط مع الحق من غير أدب، انتهى.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي -قدس الله سره ويتزايد قربه: أيسره القبض والبسط قبل ما يخلو العبد عنهما، وهما يتعاقبان؛ كتعاقب الليل والنهار، والحق يقتضي العبودية منك فيهما، فمن وقته القبض فلا يخلو إما أن يعلم له سببًا أو لا، وأسبابه ثلاثة: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو نقصت لك، أو ظالم يؤذيك في نفسك، أو في

عرضك، أو ينسبك إلى غير دين، فإذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب؛ فالعبودية أن ترجع إلى العلم مستعملاً له كما أمرك.

أما في الذنب: فبالتوبة، والإنابة، وطلب الإقالة.

وأما فيما ذهب عنك من الدنيا، أو نقص: فبالتسليم والاحتساب.

وأما فيما يؤذيك به ظالم: فبالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان: ظلم غيرك، وظلم نفسك، فإذا فعلت ما ألزمت من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تصفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك، فتدعي له فيستجاب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رحم الله بك من ظلمك، وتلك درجة الصديقين الرحماء ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159] وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببًا فالوقت وقتان: ليلي ونهاري، والقبض أشد شيء في الليل، فإذا ما ورد عليك القبض بغير سبب تعلمه فالواجب السكون، والسكون عن ثلاثة أشياء:

عن الأقوال، والحركات، والإرادات، فإن فعلت ذلك فعل قليل يذهب الليل بطلوع نهارك، أو يبدو نجم تهتدي به، أو قمر تستضيء به، والنجوم: نجوم العلم، والقمر: التوحيد، والشمس: شمس المعرفة، فإن تحركت في ظلمة ليلك فقل ما تسلم عن الهلاك، واعتبر قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:73] فهذا حكم العبودية في القبض، وأما من كان وقته البسط فلا يخلو إما أن يعلم له سببًا أو لا، والأسباب ثلاثة:

الأول: زيادة في الطاعة، أو نوال من المطاع؛ كالعلم والمعرفة.

والثاني: زيادة من دنيا بكسب، أو كرامة، أو صلة.

والثالث: المدح والثناء عن الناس، وإقبالهم عليك، وطلب الدعاء منك، وتقبيل يدك، فإذا ورد عليك البسط من هذه الأسباب، فالعبودية تقتضي أن ترى المنة والمنة من الله تعالى عليك، واحذر أن ترى شيئًا من ذلك من نفسك، وحضها أن تلازم خوف السلب مما أنعم الله به عليك؛ فتكون ممقوتًا هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى، وأما الزيادة من الدنيا فهو نعمة من الله أيضًا كالأولى، وخف مما بطن من آفاتها.

وأما ثناءهم عليك فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستر الله به عليك، وخف منه تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك، فيمقتك أقرب الناس إليك، فهذه آداب القبض والبسط، وبالله التوفيق.

وأما البسط الذي لا تعلم له سببًا فحق العبودية فيه ترك السؤال، والإذلال، والصولة على النساء والرجال، اللهم إلا أن تقول: رب سلم إلى المهات، فهذه هذه إن عقلت والسلام، انتهى.

(وَفِي الْفَرَجِ) جمع: فرجة، وهي فرجة الحائط وما أشبهه، يقال: بينهما وجه؛ أي: انفراج، والمراد منها هنا: السعة؛ أي: دعني في المتسعات، ولا تدخل لي أيها العازل إلى المضيقات، فإني غائب عنك ببسط المواصلة، ومتسعات المؤانسة الحاصلة، لا يلتفت إليك جناني، ولا يقدر على محادثتك لساني، ولا يصغى إليك سمعي ولا بصري ولو كان فيه قمعي، وقلت:

وقد فاض إناء دمعي ... من تذكر فرقي بعد جمعي

وأنشد آخر[1]:

فها زليخا الجمال لاحت ... ويوسف الحسن قد تبدا

وها ملاح الحسما تراءت ... تمد باع العطاء مدا

فلو ترى عازلي بعيني ... ما كان منك الجيش يهدى

وكنت تصبو عليَّ وتشدوا ... ولا تبالي ممن يقدى

من شاهد الحب لم يشاهد ... سواه شوقاً توقا ووجدا

ومن غدا ساطعاً خطاباً ... منه على الصغير صم قصدا

ومن يكن نال قرب قرب ... لم يخش من تعد ذلك بعدا

ومن يكن حار وجد وجذع ... ما خان في السير قط فقدا

(1) سقطت في نسخة.

ومن رآه بــه رآه وعنه لم يلق خل بــدا

ومن دعاه داعي هواه تسراه في سيره مجـدا

فدع ملامي شأني غرامي فقد شهدت الفؤاد عبدا

ولما كان اللاجئ الذي هو ميت يعاد لاجئ غير مقبول لدى القلوب، والعقول، صح له أن يقول:

أُذْنِي لِحَبِيبِي صَاغِيَة صَمَّتْ عِنْدَ الْوَاشِي السَّمِج

قال الشارح: (أُذْنِي) الأذن الجارحة المعروفة التي جعل السمع في مقر صماخها، وهي بضم الذال، وقد تسكن تخفيفًا كنظائرها من كتف، وفخذ.

(لِحَبِيبِي) الحبيب، والحب بالكسر، والمحبوب بمعنى؛ أي: لسماع الخطاب، حبيبي الأعظم، وطبيبي الأفخم، (صَاغِيَة) أي: مائلة بسمعها إلى استماع كلامه الحلو الموقع، والعذب الجني الذي هو أشهى عند المتمني من المنى، وأبرد من الماء الزلال على فؤاد الظامي، أو هو السحر الحلال الممكن عبيره كل نامي، بل ألذ من لباس ثوب العافية، وأطيب من غفوة عين ساهرة غير غافية، (صَمَّتْ) والصم عارض يعرض للأذن فيمنعها من السماع وهو إخبار، ويحتمل أنه إن شاء دعا بالصمم كما قال بعضهم:

وإن سمعت أذني حديث سواكم دعوت على أذني بصم المسامع

(عِنْدَ الْوَاشِي) أي: عند كلام الساعي بالكذب، وهذا تصامم لا صمم، فإن الإنسان لا يلقي سمعه إلا لما يحب سماعه، وإذا سمع ما لا يحب سماعه في عنده، ولم يعر سمعه حتى يصير كأنه قاضي الهوى أصم لم يسمع الشكوى، وفي الحديث الشريف: «حبك الشيء يعمي ويصم»(1).

قال المناوي رحمه الله تعالى: أي: جعلك أعمى عن عيوب المحبوب، أصم عن سماعها، حتى لا تبصر قبيح فعله، ولا تسمع فيه نهي ناصح، بل ترى القبيح منه حسنًا، وتسمع منه الجفاء قولاً جميلاً، وهذا قول له معنى كثير، تعمى العين عن النظر إلى مساوئه،

(1) رواه أبو داود في سننه (4/ 334)، وأحمد في مسنده (5/ 194).

وتصم الأذن عن العزل فيه، أو تعمى وتصم عن أحوال الآخرة، أو عن طرق الهدى.

وفائدته: النهي عن حب ما لا ينبغي الإغراق في حبه؛ وهذا الحديث قد عده العسكري من الأمثال: والحب لذة؛ فعمى عن رؤية غير المحبوب، وصممه عن سماع العذل فيه، والمحبة إذا استولت على القلب سلبته عن صفاته، قال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساوئ

وقال بعضهم:

وكذبت طرفي فيك والطرف صادق ... وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع

وقال بعضهم:

أصمني الحب إلا عن تارة ... فمن راحب حب يورث الصمما

وكفني الحب إلا عن رعايته ... فالحب يعمي وفيه القتل إن كتما

فالمحب لا يسمع فيمن يحب عذلاً، ويشتغل الكثير في حبه بذلاً.

قال الأبوصيري رحمه الله تعالى:

عَذَلْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ

وقلت سابقًا: وكأس الحب أضحى رائقًا:

كيف يصفي محبكم للواحي ... وهواكم من سره الغير ماحي

يا عذولي بالله قل من اللوم ... فبالقرب روقت أقداحي

لا تعنف من في الغرام معنى ... ذاق مر النوى وحلو افتضاح

إن تلمني فلم تلمني واني ... لا أبالي بالنصح من مناحي

ما لمثلي سوى تواصل علوي ... وبحبي فما بطغت نجاحي

ارتشفتني من ريقها فشفتني ... وأراحت لما أزاحت مزاحي

وأرتني أن لا سوا ما يراها ... وحبتني من شرب العطف راح

وخبئتنــي في سرادقــات وصــال وحمتنــي فلــم أمــل لــسراح

ودعتنــي وأودعتنــي مــن الأسرار مــا غــاب عــن فهــوم مــباح

وفــؤادي بــنفحة جذبــته لحملــه فارتــاح بــالأرواح

وغــدا هــائمًا بــأرض الــتداني زائــد أتــوجه بــتلك النواحــي

ســائحًا ســابحًا ببحــر غــرام وهــيام هــام بــسحب انــشراح

رب صــل وســلم عــلى الــنور طــه ســيد الخلــق زيــن كــل المــلاح

أحمــد المــصطفى إمــام الــبرايا مــن شــفى طــسه بلــيغ جــراح

وعــلى آلــه الكــرام وصــحب قــد حــبوا بالــسلاح والإصــلاح

وعــلى التابعــين في كــل وقــت مــا استمال الغــصون هــز الــرياح

(السَّمِج) قال في «القاموس»: سمج ككرم سماجة قبح فهو سمج، وسمج وسميج وجمعه: سماج، انتهى.

وقيل: معنى سمج القول؛ أي: بارده، أو الذي لا معنى له، أو ما لا تقبله الطباع وتمجه، ومعنى البيت: إن أذني لمحبوب فؤادي طاغية، وكلها تود إذا فوجئت ببديع الخطاب إن لو كان صاحبها كل سمع يسمع العجب العجاب، الذي يذهل الألباب، ويحير الأحباب، فإن المالك قد ينعم في هذه الدار بذلك كما ينعم به في دار الجزاء النعيم السالك في تلك المسالك.

قال سيدي عمر الفارضي نورنا الله بنوره المذهب للحوالك:

إذا مــا بَــدَت لَــيلى فَكُــلّيَ أعــيُنٌ وَإن هــيَ ناجَتنــي فَكُــلّي مَــسامِع

صمت عند كلام الواشي القار المشبه في كلام شكله القار فلا تفهم، ولا تعي من خطاب شيئًا؛ لأنها ملآنة بسماع خطاب محبوبها، فكلام الغير لا منفذ له في دروبها.

واعلم أن السماع من المحبوب على أقسام: إيماني، وجناني، وعياني، وإحساني، ووهمي، وعلمي، وبواسطة القلب، أو بدونها، فيتلقى من الرب والسمع، والأسماع،

والاستماع خلق الله تعالى، فمن شاء أسمعه، ومن شاء أصمه، ومن الممنوحين جميل قربه من يكون الحق سمعه الذي يسمع به، فيسمع كل مسموع، ويبصر كذلك للحجاب المرفوع، ومن جملة السماع بالواسطة الهواتف الربانية التي على القلوب ساقطة؛ ولكن لا يسمع تلك الهواتف إلا من كان به حمام الحمام الاختياري هاتف.

وقلت مشيرًا لهذه الدواعي أيها الواعي من قصيدة:

فيا أيها الساعي تسأل عن السوي وكن لدواعي الوصل يا ذا الحجاب واعي
وشمر ذيول الغدق كي تدرك المنى ولا تك للخيرات يومًا بمناع
نعم إن داعي الحق يهتف دائمًا ولكنه مخفي على غير سماع
فإن كنت تلقي السمع للجمع شاهدًا سمعت خطابًا مذهبًا كل أوجاع
وعاينت ما يغنيك عن كل منظر وأدركت بر القرب بالشبر والباع
عليك بما يدنيك ممن تحبه فاقة عشاق مداناة قطاع
نصحتك لا تصدي بباب جوده فإن جميع الخير فيه بإجماع

وفي البيت: الطباق بين الإصغاء والصمم، وجناس التقابل بين الحبيب والواشي؛ ثم إن المؤلف -سامحه المولى- التفت من مخاطبة الأدنى للأعلى فقال:

يَا صَاحِبَ حَانٍ أَرِدْ صِرْفًا وَاتْرُكْ لِلْمُمْتَزِجِ

(يَا صَاحِبَ) يا مالك، أو يا ملازم، (حَانٍ) معنى الكلام عليه، (الخَمْرِ) قال في «الصحاح»: قال ابن الأعرابي: سميت الخمر خمرًا؛ لأنها تركت فاختمرت واختمارها: تغير ريحها، ويقال: سميت بذلك؛ لمخامرتها العقل، انتهى.

والمراد منها هنا: المحبة الإلهية، والمعرفة الذاتية، أو الصفاتية، أو الأسمائية، أو الأفعالية، ووجه الشبه السكر، وبهذه فرط الإسكار على تلك بها لا يدخل تحت مقدار؛ سيما عند مفاجأة الأنوار، وبغتة واردات الأسرار، وبهذا يخلع العذار، ويمزق الأطمار بحب جار في مضمار الإظهار والإضمار قد طار من أوكار الفرار إلى أطوار القرار، فمن قواه الحق ثبت، وما حار وعدل فما جار، ومن لم تلحظه لواحظ الأقدار المقرونة بمعونة

الستار تهتك في شطحه، وتفتك في فتحه وبار.

والمراد بصاحب هذا الخان: الرفيع المنار، والأمي المختار الذي ما زبر بالزبر ولا قرأ الأستار، أو المرشد الذي له بالأسرار ازدمار، أو يكون أرد به القطب الغوث الذي على يد يكون مدد كل شيئا وطيار، أدر؛ أي: طف بالكأس على الجلاس (صِرْفًا) أي: خالصًا، قال في «الصحاح»: وشراب صرف؛ أي: بحت غير ممزوج، انتهى.

قال سيدي أبو مدين الغوث -قدس الله سره:

أدرها لنا صرفًا فأودع مزجًا عنا ... فإنا أناس لا نرى المزج مذكنا

وأنشد الشبلي المسلي -قدس الله سره الجلي:

يا ساقي القوم إن دارت لي فلا ... تمزج فإني بدمعي مازج كأس

و ويا فتى الخسي إن غنيت لي طربًا ... فنادرًا حربا من قلبه القاسي

واعلم أن المراد بإدارة أقداح هذه الراح صرف من غير مزج بماء قراح هو أن يكشف المدير للمدار عليه من كل شطاح أسرار المعارف الأبكار سافرة اللثام دون استتار رافعة برقع الاشتباه آتية بالحق الصراح، وتناول الصرف في المجال لا يقدر عليه إلا الأقوياء من الرجال، فإذا كان الفتح صرفًا غير مشوب كان دليلاً على الاعتناء بالموهوب، فإنه دوام الشهود من غير تخلل فترة جمود، ولا غفلة تورث الخمود؛ لكنه يستدعي قلبًا خفيًا، ولبًا جليًا، وسرًا منيرًا، ومددًا للغير مثيرًا، وهو عبارة عند أهل التحقيق بالمشهد الذاتي من غير مزج بملاحظة المشهد الصفاتي، وأن تترك الأشياء كما هي عيانًا.

(وَاتْرُكْ لِلْمُمْتَزِجِ) أي: دعه عني وأتني بالصرف من خمرة تغني، وحقيقة عند أهل السلوك المرعي أن يمزج اللسان الفرقي بالجمعي أو بالعكس، وربما قصد الساقي به ستر الحال، أو تضعف احتمال الشارب لتلونه، فيداويه بالمزج؛ لئلا يضل، أو يزل.

وقلت من قصيدة:

وبالمزج داووها فباحوا وصرحوا ... وكيف إذا جاءوا لها صرفة بـرا

وقد يمزج بالشراب الأقوى ماء التقوى، وأنشدوا:

مزجنا بها التقوى لتقوى نفوسنا ... فيا من يرى خمرًا يمازجها التقوى

وأنشد آخر[1]:

ولا يرمني مزج الشهاب ذو التهاب   إلا إن كان من رضاب الأحباب

وقلت:

لا تمزجي كأسي بغير اللمى   فالقلب من هذا بهذا احتما

ووالي بالكاسات غِبًا للقا   ولا تعذيني بِحَرِّ الظما

فشارب الصرف عن الغير معروف والممزوج في حضرة الرءوف معروف، والجامع بينهما في آن تدلّيًا وتعليًا عن السوي مخطوف.

وقلت:

فشرب الصرف تمكين   وشرب المزج تلوين

وصب قدحي جمعًا   له في الحكم تبيين

فحقق سر سر السر   تأتيك الموازين

وفي البيت: الطباق بين الصرف والمزج، والإدارة والترك؛ ثم أنه أراد أن يبين ما الذي يديره عليه، فخصص بعد التعميم، وطلب ما هو أرفع لديه فقال:

وَأَدِرْ كَأسَ الأَسْرَارِ وَدَعْـ   ـنِ أَصِيرُ بِهِ مِنْ ذِي الهَمَجِ

قال الشارح: (وَأَدِرْ كَأسَ الأَسْرَارِ) الكأس: هو القدح المملوء بالشراب، وإذا خلي سمي قدحًا، وقد تطلق لفظ الكأس على القدح وحده، أو الشراب وحده مجازًا كقول أبي نواس[2]:

وَكَأسٍ شَرِبتُ عَلى لَذَّةٍ   وَأُخرى تَداوَيتُ مِنها بِها

ويقال: الطاس: الإناء الكبير، والكأس دونه، والقدح دونهما، كقول الشاعر:

شربناها بطاسات   وكاسات وأقداح

---

(1) سقطت في نسخة.

(2) هذا البيت في الموسوعة الشعرية منسوب للأعشى.

ذكره سيدي علوان في شرح «التائية الفارضية»، وفي «الصحاح»: الكأس مؤنثة، قال الله تعالى: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ﴾ [الصافات: 45، 46].

وأنشد الأصمعي: من لا يمت غبطة يمتد حرماه للموت كأس، فالمر ذائقها، قال ابن أبي الأعرابي: لا تسمى الكأس كأسًا إلا وفيها الشراب والجمع: كؤوس، انتهى.

(الْأَسْرَارِ) جمع: سر، ومضى الكلام عليه، (وَدَعْنِ) أي: اتركني ولا تعتني بي: (أَصِيرُ بِهِ) أي: يتناول هذا الكأس (مِنْ ذِي) أي: هذه، (الْهَمَجِ) وهي محركة الذباب الصغير؛ كالبعوض يسقط على أوجه الغنم والحمير المهزولة واحدته بهاء، كذا في «القاموس»، ثم استعمل الهمج فيمن لا معرفة عنده، فلجهله شبه بهذا الذباب.

قال في «المنفرجة»: وخيار الناس هداتهم، وبواهم من همج الهمج، والمعنى: اسقني أيها المدير كأس الأسرار، ودعني أعد عند أهل الحجاب عن همج لم يفرق بين الفلق والنار، فإن عدهم لا يضرني إذا كان من أهواه إليه يجرني، والغالب على من شرب هذا الكأس الغالب أن يتكلم بكلام معجم، عند غير أهله لا يفهم، فينسبه السامع الذي بدت منه المسامع إلى جنون والجاد، أو جهل، أو عناد، وري بالسقم حداد، فينشد لسان تدانيه لشافيه، وما ضرني إني رميت بريبة إذا كنت عند الله غير مريب.

ويكون أراد بالهمج: أهل البلاغة من كل غافل عن الشر، مطبوع على الخير، وهؤلاء هم أكثر أهل الجنة، لحديث «أكثر أهل الجنة البُلْه»[1]؛ وبلاهتهم بالخلو عن الدهاء والمكر وسلامة الصدر، وأعملوا الجوارح في عمارة عقباهم، وأهملوا دنياهم رضًا لمولاهم، فجهلوا الحذق فيها، فكافأهم بأن جعلهم أكثر أهل الجنة وأولاهم، فعدهم الجاهل بمراتبهم هجاء، ولم يدر أنه مدح، فما هجا، وما سب وذم، فما سب محمد فقاته المرتجي، وربما أراد أهل الجذب والغيبة، بالرهبة والهيبة، الذين اغرقوا في بحار الأنوار، وغابوا بشهود المؤثر عن الآثار، حتى انسبهم أمرهم، واختفى الأعلى أهل الصفا.

قيل لأبي يزيد لا زال حاله على الإناث يزيد: ما لنا لا نفهم كثيرا مما تقول، قال: لأن كلام الأخرس لا يفهمه إلا أبوه، يشير إلى أن من لم يمارس أحوالهم، ويدارس

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (2/ 59).

أطفالهم يعاديهم بجهله، وينسبهم لأمر ليسوا من أهله، ومن رد عليهم فرده واقع على فهمه، وما تخيله في فاسد فكره وكاسد وهمه.

ومعنى البيت القائلة حسناً: وصاحبت لك حيث أدر، أيها الساقي المنعوت بالخمار كأس الأسرار، المبلغ الأوطار، الذي من مناه شمس الضحى بادية، ومن طيبه يعطر كل واد ورابية وبادية، ودعني باحتفاء كأس هذه المدامة، التي على نيل كل كرامة علامة، أصير به معدود من همج لا يعرفون ولا يعرفون مجهولون عند الخلق، وعند الحق معلومون، أو يريد جدلي بهذا الكأس، ولو أني اعدم الحواس.

فمن لم يجد في حب نعماء بنفسه، وإن جاد بالدنيا إليه انتمى النحل كان من نجلاء الناس رجع إلي مقام المناجات، والابتهال ذليلاً، وأخذ يتوسل بمقامات الكمال، ومشاهد الجلال والجمال، راجي منالاً جميلاً، وإقبالاً ليس له في العيان مثيلاً، فقال رزقه الله هديا جليلاً، ليتبتل إليه تبتيلاً:

مَوْلَايَ بِسِرِّ الجَمْعِ كَذَا وَبِجَمْعِ الجَمْعِ وَكُلِّ شَجِي

قال الشارح: (مَوْلَايَ بِسِرِّ الجَمْعِ) أي: أسألك بسر شهودك المغيب عن غير وجودك؛ إذ الجمع في الاصطلاح: بشهود حق من غير خلق، وقيل: هو عبارة عن تجريد التوحيد، وهو استيلاء شهود الحق على باطن العبيد، وقيل: هو الغني التام الذي لا شعور معه مطلقاً.

وقال الهروي في «منازل السائرين»: الجمع: ما أسقط التفرقة، وقطع الإشارة، وتشخص عن الماء والطين بعد صحة التمكين، والبراءة من التلوين، والخلاص من شهود القنوية، والتنافي من إحساس الاعتلال من شهود شهودها، وهو على **ثلاث درجات**: جمع علم، ثم جمع وجود، ثم جمع عين؛ فأما **جمع العلم**: فهو تلاشي علوم الشواهد في العلم اللدني صرفاً، وأما **جمع الوجود**: فهو تلاشي نهاية الاتصال في عين الوجود محقاً، وأما **جمع العين**: فهو تلاشي كلما تقله الإشارة في ذات الحق حقاً، والجمع غاية مقامات السالكين، وهو طرف بحر التوحيد، انتهى.

وقال الإمام القشيري ﷺ في «الرسالة»: لفظ الجمع والتفرقة يجري في كلامهم كثيراً، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق -رحمه الله تعالى- يقول: الفرق: ما نسب إليك،

والجمع: ما سلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداعات، وأمد اللطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق؛ لأنه في شهود الأفعال، فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بُدَّ من الجمع والفرق، فأن من لا تفرقة له فلا عبودية له، ومن لا جمع له فلا معرفة له.

فقولك: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إشارة إلى الفرق، وقولك: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:5] إشارة إلى الجمع.

وإذا خاطب العبد الحق بلسان نجواه إما سائلاً، أو داعيًا، أو متمنيًا أو شاكرًا، أو متنصلاً، أو مبتهلاً قام في محل التفرقة، وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه مولاه واستمع بقلبه وأراه فهو يشاهد الجمع.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق -رحمه الله- يقول: أنشد قوالاً بين يدي الأستاذ أبي سهل الصعلوكي رحمه الله تعالى:

جعلــــت تنزهــــي نظـــرك الــــبكاء

وكان أبو القاسم النصر آبادي حاضرا فقال الأستاذ أبو سهل: جعلت بنصب التاء، فقال النصر آبادي: بل جعلت بضم التاء، فقال الأستاذ أبو سهل: أليس عين الجمع أتم؟ فسكت النصر آبادي؛ أي: فإنه إثبات الحق من نعت الجمع كما تقدم، وإضافة الجعل به جمع من غير اشتباه، قال: وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن أيضا يحكي هذه الحكاية على هذا الوجه.

قال الأستاذ الإمام: ومعنى هذا من قال: جعلت بضم التاء يكون إخبارا عن حال نعت فكان العبد يقول هذا، وإذا قال: جعلت بالفتح؛ فكأنه يتبرأ أن يكون بتكلفه، بل يخاطب مولاه فيقول: أنت الذي خصصتني بهذا ما أنا بتكلفي؛ فالأول على خطر الدعوى، والثاني: بوصف التبرؤ من الحول، والإقرار بالفضل والطول.

وفرق بين من يقول: بجهدي أعبدك، وبين من يقول: بفضلك ولطفك أشهدك،

وجمع الجمع فوق هذا، وتختلف الناس في هذه الجلة على حسب تباين أحوالهم، وتفاوت درجاتهم، فمن أثبت نفسه وأثبت الخلق؛ ولكن شاهد الكل قائمًا بالحق، فهذا هو جمع، وإذا كان مختطفًا عن شهود الخلق مصطلمًا عن نفسه مأخوذًا بالكلية، وفني الإحساس بكل غير بما ظهر، واستولى من سلطات الحقيقة فذاك جمع الجمع، فالتفرقة: شهود الأغيار بالله ﷻ، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفني الإحساس بما سوى الله عند غلبات الحقيقة بعد، وهذه حالة عزيزة يسميها القوم الفرق الثاني، وهو: أن يرد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض؛ ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها، فيكون رجوعًا لله بالله لا العبد بالعبد، يطالع نفسه في هذه الحالة في تصريف الحق؛ ليشهد مبدأ ذاته وعينه بقدرته بمجري أفعاله وأحواله عليه، بعلمه ومشيئته.

وأشار بعضهم: بلفظ الجمع والفرق إلى تعريف الحق في جميع الخلق، فجمع الكل في التقليب والتصريف من حيث إنه منشئ ذواتهم، ومجري صفاتهم، ثم فرقهم في التنويع؛ ففريقًا أسعدهم، وفريقًا هداهم، وفريقًا أضلهم وأعماهم، وفريقًا حجبهم، وفريقًا جذبهم، وفريقًا آنسهم، وفريقًا أيئسهم من رحمته، وفريقًا أكرمهم بتوفيقه، وفريقًا أصطلمهم عند رؤيتهم لتحقيقه، وفريقًا أصحاهم، وفريقًا محاهم، وفريقًا قربهم، وفريقًا غيبهم، وفريقًا أدناهم وأحضرهم، ثم سقاهم فأسكرهم، وفريقًا أسقاهم وأخرهم ثم أفناهم وهجرهم، وأنواع أفعال لا يحيط بها حصر ولا يأتي على تفصيلها شرح.

وذكروا وأنشدوا للجنيد[1] في معنى الجمع والتفرقة:

قَدْ تَحَقَّقْتُ في سِرِّي ... فَنَاجَاكَ لِسَانِي
فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانٍ ... وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانِ
إِنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعْظِيمُ عَنْ لَحْظِ عِيَانِي
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ مِنَ الأَحْشَاءِ دَانِي

وأنشدوا:

(1) ونسبت للحلاج ﷺ.

إذا مـــا بـــدا لي تعاظمـــته فاصـــدر في حـــال مـــن لم يـــرد

جمعـــت وفـــرقت عينـــي بـــه ففـــرد التواصـــل منتـــى العـــدد

انتهى.

وقال الإمام السهروردي-قدس الله سره- في «عوارفه»: قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا جمع؛ ثم فرق فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:18]، وقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾جمع؛ ثم فرق بقوله﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:136]، والجمع: أصل، والتفرقة: فرع، وكل جمع بلا تفرقه زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد رحمة الله عليه: القرب بالوجد: جمع، وغيبة في البشرية: تفرقة، وقيل: جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال، والجمع: اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهود لمن شاهد بالمباينة، وعباراتهم في ذلك كثيرة.

والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة، ويقولون: فلان في عين الجمع؛ يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة، ففتحة الجمع بالتفرقة، وصحة التفرقة بالجمع، وعلى هذا يرجع حاصله، إلى أن الجمع من العلم بالله، والتفرقة من العلم بأمر الله، ولا بدَّ منهما جميعًا.

قال المزين: الجمع: عين الغنى بالله، والتفرقة: العبودية، يتصل بعضها بالبعض، وقد غلط بعضهم وادعوا أنهم في عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التوحيد، وعطلوا الاكتساب فترند قواد، إنما الجمع: حكم الروح، والتفرقة: حكم القالب، وما دام التركيب باقيًا فلا بدَّ من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كنت قائمًا بغيرك فأنت، فإني بلا جمع ولا تفرقة، وقبل جمعهم بذاته، وفرقهم بأسمائه وصفاته.

وقد يريدون بالجمع والتفرقة: أنه إذا ثبت لنفسه شيئًا، أو نظر إلى أعماله فهو في

التفرقة، وإذا اثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع، ومجموع الإشارات تبني أن الكون يفرق، والملكوت يجمع، فمن أفراد الملكوت جمع، ومن نظر إلى الكون فرق؛ فالتفرقة عبودية والجمع توحيد، فإذا اثبت طاعاته نظراك كسبه فرق، وإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالغنى فهو جمع الجمع، ويمكن أن يقال: رؤية الأفعال: تفرقة، ورؤية الصفات: جمع، ورؤية الذات: جمع الجمع.

ونقل سيدي عبد الوهاب الشعراني عن شيخه الخواص ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان يقول: ما ظهر القائلون بالحلول والاتحاد إلا من حضرة الجمع، فإنها حضرة تذل فيها الأقدام، والشبهة فيها قوية، لا يقاومها دليل مركب، فمن دخلها ولم يكن له شيخ يخاف عليه سأل الله تعالى العافية، انتهى.

(كَذَاكَ) أي: وأسألك يا مولاي كما سألتك بمقام الجمع وأسراره، وتجلياته وأطواره، مرتقيا للابتهال بمقام أرفع، ومرام اجمع وانفع، وهو جمع الجمع.

قال السيد في «تعاريفه»: (وَجَمْعِ الْجَمْعِ) مقام آخر؛ أي: غير الجمع الأول، أتم وأعلا منه، فالجمع شهود الأشياء بالله، والتبرؤ من الحول والقوة إلا بالله، وجمع الجمع هو الاستهلال بالكلية، والفناء عما سوى الله تعالى، وهو المرتبة الأحدية، انتهى.

وكذاك أتوسل (وَكُلِّ شَجِي) أي: حزين قلب أحزنته فهو تجليك، أو بكل طروب أطربه ستزيد ليلك، قال في «المصباح»: شَجِيَ الرَّجُلُ يَشْجَى شَجًا مِنْ بَابِ تَعِبَ حَزِنَ فَهُوَ شَجٍ بِالنَّقْصِ، شَجِيٌّ بِالتَّثْقِيلِ كَمَا قِيلَ حَزِنٌ وَحَزِينٌ وَيَتَعَدَّى بِالْحَرَكَةِ فَيُقَالُ شَجَاهُ اهْمُ يَشْجُوهُ شَجْوًا مِنْ بَابِ قَتَلَ إِذَا أَحْزَنَهُ.

وفي «القاموس»: وشجاه: أحزنه وأطربه، كما شجاه فيهما ضد وبينهم شجن؛ أي: هم أو حزن، وأشجاه: قهره وغلبه وأوقعه في حزن، انتهى.

ثم إن المؤلف - منحه الله اشرف اللذات - ترقى في ابتهاله فقال:

بِالـــذَّاتِ بِـــسِرِّ الـــسِّرِ بِمَـــنْ أَفْـــضَالِك رَبِّي مِـــنْكَ رَجِـــي

قال الشارح: (بِالذَّاتِ) أي: اقسم عليك بالذات العلية التي هي ذاتك الأقدسية، وسر الكلام عليها بسر السر، وهذا لقولهم عين العين، وروح الروح، ونور النور، والمعنى: وأسألك بحق (بِسِرِّ السُّرِ) أي: بما أودعت في السر من الأمر الإلهي، ومضى

الكلام على السر، وسر السر، وأن سر السر باطن السر... وهلم جرا.

(بِمَنْ) أي: بالذي (أَفْضَالِك) أي: إحسانك، قال في «القاموس»: الأفضال: الإحسان، وقيل: هو إبدال الإحسان بلا علة (رَبِّي) أي: يا مالكي (مِنْكَ) أي: من برك وخيرك لا من غيرك رج بالقصر الموقف؛ أي: وبالذي هو إحسانك يا سيدي من غير امتنانك، (رَجِي) أي: مؤمل، ومن المعلوم عند أرباب العقول والفهوم أن الكريم لا يخيب رجاء من استرجاه؛ لاسيما من عول عليه في كل أموره وجعل إليه النجاة.

ولما علم المؤلف -سامحه الله- أن أجل ما يقسم به على الله؛ ذاته وصفاته، التي يلذ سماع ذكرها في القلوب والأسماع، ويحلو في الأفواه، كرر القسم، فقال:

بِحَقِيقَتِكَ الْعُظْمَى رَبِّي وَبِنُورِ النُّورِ الْمُنْبَلِجِ

قال الشارح: (بِحَقِيقَتِكَ) حقيقة الشيء بأنه الشيء هو هواي بذاتك اقسم عليك، وسبق الكلام عند قولنا في الورد: الهي بحق حقيقتك التي لا تدركها الحقائق (الْعُظْمَى) على وزن فعلى، بوقف أعظم؛ أي: التي هي أعظم الحقائق؛ لأنها العظيمة في نفسها المعظمة في غيرها، (رَبِّي) أي: يا من هو المربي لي في ظلمة الأرحام، والمولى المنعم بعد الوجود، والمدبر لي بالتقدير التام.

(وَبِنُورِ النُّورِ) أي: واقسم عليك بنور نور ذاتك المطلق عن قيد الإطلاق كسائر صفاتك الظاهر بنفسه، والمظهر لغيره، مع كمال قدسه المنور قلوب أوليائه بنور معرفته، والأرض بتجلي آثار رحمته وقدرته، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:35] أي: خالق النور فيهما ومشيئته ومظهره للعيان ومبديه، أو المعنى أقسم عليك بحق نور اسمك النور، أو بمصطفاك الذي هو نور كل نور، فإنه النور الأول الذي عنه ظهرت الأنوار وبه تكملت الأدوار، وفيه ارتقت الأسرار، ومنه استمدت سائر الأطوار، ومن أسمائه ﷺ النور، وعليه فالمعنى: وأسألك بسر نور مسمى بالنور.

(الْمُنْبَلِجِ) أي: المشرق المعني، قال في «الصحاح»: البلوج: الإشراق تقول: بَلَجَ الصُّبْحُ، يبلج بالضم إذا أضاء، وانْبَلَجَ وتَبَلَّجَ مِثْلُه وتَبَلَّجَ فلان أيضًا أي ضحك وهَشَّ، صُبْحٌ أَبْلَجُ بيّن البَلَج؛ أي: مشرق مضيء، وقال: حتى بدت أعناق صبح أبلجا، وكذلك الحق إذا اتضح يُقال الحَقّ أَبْلَجُ والباطل لَجْلَجٌ، وكل شيء وضح فقد أبلج إبليجاجًا،

والبلجة: تفاوت مابين الحاجبين، يقال: رجل أبلج بين البلج إذا لم يكن معروفًا، وفي حديث أُمّ مَعْبَد في صفة النبيّ ﷺ (أَبْلَجُ الوَجْهِ)؛ أي: مشرقه ولم تُرِدْ بَلَجَ الحاجب لأنها تصفُه بالقَرَن كذا قال أبو عُبَيْد، انتهى.

وربما أراد بالنور المنبلج: الكنز المخفي المستور قبل الظهور، والسر الخبي الذي استنار به كل ديجور المشار إليه بالحديث الإلهي الذي جاء في بعض الكتب المنزلة، وهو قال الله تعالى: «كنت كنزًا لا اعرف فخلقت الخلق، وتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني»[1]، وفي رواية: «وتعرفت إليهم فبي عرفوني»[2].

قال بعض النظار: أن لفظة «فبي» عدد اسم محمد؛ أي: بمحمد عرفوني، فهو أول نور ظهر عن النور للعيان، ومنه نشأت حقائق سائر الأكوان.

ثم قال عفى الله عنه الملك الديان:

بِعَمَــــاءٍ كُــــنْتَ بِـــهِ أَزَلاً بِمُحَمَّــدِ مَــنْ جَــا بِالــبَلَجِ

قال الشارح: (بِعَمَاءٍ) العماء ممدود، قيل: هو السحاب الرقيق، وقيل: الكثيف، وقيل: الضباب، وقيل: هو المقصور، وفسره الترمذي بأن المراد منه: أنه تعالى ليس معه شيء، وقيل: هو كل أمر لا تدركه الفطن، قال الأزهري: قال أبو عبيد: إنما تناولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم، وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العمى؟ قال الأزهري: فنحن نؤمن به ولا نكيّفه بصفة.

وفي اصطلاح الطائفة العلية: مرتبة الأحد، وجرى عليه الشيخ محمد الهندي -رحمه الله تعالى- في «الهدية المرسلة» وعبارته: وأن لذلك الوجود؛ أي: وجود الحق سبحانه وتعالى مراتب كثيرة:

الأولى: مرتبة اللا تعين، والإطلاق والذات البحت، لا بمعنى أن قيد الإطلاق، ومفهوم سلب التعين ثابتان في تلك المرتبة؛ بل بمعنى: أن ذلك الوجود في تلك المرتبة تنزه عن إضافة النعوت إليه، والصفات، ومقدس عن كل قيد حتى عن قيد الإطلاق، وهذه المرتبة تسمى بـ: المرتبة الأحدية؛ وهي كنه الحق سبحانه وتعالى، وليس فوقها مرتبة

---

(1) تقدم تخريجه. (2) تقدم تخريجه.

أخرى؛ بل كل المراتب تحتها، وجعل الجيلي الهيام هذه المرتبة العمائية أول مراتب الوجود كما هو مسطر في كتبه مشهود، وهذه اصطلاح منه ولا مشاحة فيه.

قال في «الكمالات الإلهية» لا برحت الإمدادات توافيه: اعلم أن أول التنزلات الذاتية من حيث الوجود والحكم لا من حيث الترتيب والعدد هو التنزل المسمى بالتجلي العمائي، وإليه أشار بعض المحققين بالتجلي العدمي الذي لا يتعلق به علم، ولا يطلق عليه اسم الوجود، وهذا التجلي هو باطن الأحدية، والأحدية هو اسم التنزل الثاني: وهو تجلي وجودي ليس للأسماء والصفات فيها ظهور، وكان هذا التجلي ثانيًا؛ لأنه وجودي، والتجلي الأول عدمي، والعدم هو السابق، والوجود هو اللاحق، وإنما سمي التجلي العمائي عدمًا لكون الاسم المختص بهذا التجلي معدومًا، فلا يوجد في التعريفات الإلهية اسم، وسر ذلك كنكتة لا يمكن شرحها، بخلاف الأحدية.

الأحدية باطن الوحدة، والوحدية باطن الهوية، والهوية باطن الأنية، والأنية باطن الواحدية، والواحدية باطن الوحدانية، والوحدانية باطن الفردية، والفردية باطن الفردانية، والفردانية باطن الألوهية، والألوهية باطن الرحمانية، والرحمانية باطن الربية، والربية باطن الملكية، والملكية باطن أئمة الأسماء السبعة النفسية، وباطن الأسماء السبعة النفسية باطن تجليات أسماء الجلال، وتجليات أسماء الجلال باطن أسماء تجليات الجمال، وتجليات الجمال باطن تجليات أسماء الأفعال، وكل تجلي من هذه التجليات أنزل مما قبله.

ثم قال: فأول التجليات هو التجلي العمائي العدمي، وآخرها هو التجلي الأفعالي العدمي وبها تم ظهور الحق تعالى، تعرف على قدر ما ظهر، وتجهل على قدر ما بطن، فصفاته ظاهرة، وذاته باطنة، ولأجل هذا فالكل جاهلون بذاته، وليس الكل جاهلون؛ إذ بها تعرف إلى الخواص وبأفعاله تعرف إلى العوام، والعوام يعرفون أحواله، والخواص يعرفون صفاته، وخواص الخواص يعرفون أسماء ذاته، وينفرد الحق سبحانه وتعالى بالمعرفة الذاتية المنزهة عن الاسم، والوصف، والحكم، والإضافة، والعين، والعلم.

وقال فيها عند الكلام على اسمه الباطن: وصفته البطون؛ وهو عبارة عن العماء الذاتي الذي هو صرافة الذات المحضر في حضرة لا ينسب فيها الوجود والعدم، ولا حضرة، فافهم، وهذه الحضرة هي باطن الأحدية؛ فمنزلة الأحدية مستغرقة لجميع النسب

والإضافات والنعوت والأسماء والصفات، فهي وجود محض، وبذلك كان المشهد العياني باطنًا لها، وهنا نكتة لو فهمتها، انتهى.

وذكر الأكبري في «فصوصه» -حيانا الله شرب طسوسه: أنه أول التحديدات.

قال القيصري -رحمه الله تعالى: وإنما كان العماء أول التحديدات؛ لأنه لغة الضباب، وفي اصطلاح أهل الله: عبارة عن أول تعين ظهر للحق بحسب الاسم الجامع الإلهي، وكلاهما محدودان، وهذه المرتبة هي مرتبة الإنسان الكامل فأنه أول ما تعين ظهر بالصورة المحمدية، ثم فصلها فخلق منها أعيان العالم داخلاً وخارجًا، انتهى.

(كُنْتَ) يا مولاي ظاهرًا (بِهِ) أي: بذلك العماء (أَزَلاً) أي: في الأزل، والأزل والأبد في حقه سيان؛ إذ هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والأولية والأخروية خلقة، فتعقل وجوب الوجود إلجاء إلى نفي الأولية بإثبات الأزل، والأخروية الأبد، فأزله أزلة الأزال، وأبده أبد الآباد، «**وقد كان الله ولا شيء معه**»، وزيادة «**وهو الآن على ما عليه كان**»[1]، اعترض عليها المحققون عن أهل هذا الشأن.

وعبارة الإمام المحيوي -قدس الله سره المصان- في «فتوحاته»: من زادني حديث «**كان الله ولا شيء معه**» لفظه «**وهو الآن على ما عليه كان**» فقد كذب القرآن، فأن الله تعالى قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: 31] وقد كان، ولا أيام، ولا شؤون في تلك الأيام وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:40] فكيف قوله وهو الآن على ما عليه كان مع أنه مؤمن بالقرآن؟ هذا من أعجب العجب! انتهى.

وذكره الإمام الشعراني -قدس الله سره- في كتاب «لواقح الأنوار»: السبب الداعي للمزيد على الزيادة، ورد عليه على ما قصده وأراده فراجعه، والحديث الوارد في هذا المقام الذاتي هو ما رواه الترمذي المصان بسنده إلى أبي رزين العقيلي عن سيد ولد عدنان، قال: «**قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**»[2].

---

(1) ذكره ابن حجر في فتح الباري (8/ 289).

(2) رواه ابن ماجه في سننه (1/ 64)، وأحمد في مسنده (4/ 11).

قال الإمام القاشاني رحمه الله تعالى: العماء: هي الحضرة الأحدية عندنا؛ لأنه لا يعرفها أحد غيره فهو في حجاب الجلال، وقيل: هي الحضرة الواحدية التي منشأ الأسماء والصفات؛ لأن العماء هو القيم الرقيق، والقيم هو الحائل بين السماء والأرض، وهم الحضرة الحالية بين سماء الأحدية وبين أرض الكثرة الخلقية، ولا يساعده الحديث النبوي؛ لأنه سئل عليه السلام أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: كان في عماء ما تحته هوي ولا فوقه هوي، وهذه الحضرة تتعين بالتعين الأول؛ لأنها محل الكثرة، وظهور الحقائق، والنسب الأسمائية، وكل ما تعين فهو مخلوق فهي العقل الأول، قال ﷺ:

«أول ما خلق الله العقل»[1]، فإذا لم يكن فيه قبل أن يخلق الخلق الأول؛ بل بعده.

والدليل على ذلك: أن القائل بهذا القول يسمي هذه الحضرة بحضرة الإمكان، وحضرة الجمع بين أحكام الوجوب، والإمكان، والحقيقة الإنسانية، وكل ذلك من قبيل المخلوقات، ويعترف بأن الحق في هذه الحضرة متحل بصفات الخلق، وكل ذلك يقتضي أن ذلك ليس من قبيل أن يخلق الخلق، اللهم أن يكون مراد السائلين الخلق العالم الجسماني، فيكون العماء المرتبة الأزلية المسماة بالبرزخ الجامع، ويقويه أن سئل عن مكان الرب، وأن الحضرة الإلهية منشأ الربوبية، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي -قدس الله سره السوي- في «مفتاح الغيب»: ثم إن الاسم (الرحمن) باعتبار انبساط نوره في الخلاء على الممكنات، وظهورها به وتعينه وتعدده، يحتسبها مع وحدته في نفسه، يسمى عند أهل التحقيق [تعشا] كما نطقت به النبوة تفهيمًا واعتبارًا بحكم الطبيعة عندنا وفي نشأتنا، وهي الميزان المشار إليها في قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، فإن أول ما يظهر حالة التكوين، الذي هو الاجتماع الأسمائي بالتوجه الإرادي الأصلي، والنكاح والتولد عندنا بالبخار، فمن حيث الموجودات كلمات الحق سبحانه وتعالى، فإن أصلها النفس الرحماني لظهورها بكن، وهو القول الإلهي لكل مراد تكوينه، وكل مكون فهو عين كلمة المكون.

وتعدد رتب الحروف والكلمات بحسب تقاطع النفس في مراتب المخارج أولاً، وبحسب التركيب علمًا وذهنًا؛ ثم حسًا آخر في الأصل بحسب ما يليق به على نحو ما آرانا

(1) رواه الديلمي في الفردوس (1/ 13).

وكشف لنا سبحانه وتعالى، وفينا من كوننا مخلوقين على الصورة بحسبنا في حالتي حجابنا وكشفنا، فافهم أيها اللبيب تقر بالعلم الغريب.

ثم نرجع فنقول: فالنفس المذكور بالنسبة إلى مطلق النشأة الكلية الوجودية، والموجودات الكونية الصادرة من الرب تعالى هي كلمات نفسه وحروفه بخار عام، وهي نتيجة الاجتماع العام الواقع بين الأسماء الذاتية بالتوجه الإلهي الغيبي الحبي الإرادي، ويسمى النكاح الأول، ومنزل التدلي ومرتبة العماء وحضرة نفوذ الاقتدار، ونحو ذلك على ما لوح بسره من قبل، وبهذا البخار النفس الكلي الرحماني ليس مما يدرك ظاهرًا، أو نتقين له صورة شخصه للطفه وكليته، هذا مع أنه سار بالحقيقة في كل ما يوجد كما الكل في عماء، والكل على صورة الكل وهذا السفر روحه، ومعناه: السفر من التنزيه إلى التشبيه من أجل إفهام المخاطبين، وهذا أيضًا من العماء غيبة، انتهى.

(بِمُحَمَّد): وحذف التنوين للضرورة، والباء للتوسل أو القسم، فهذا الاسم الشريف أشرف أسمائه ﷺ وله أسماء كثيرة.

نقل ابن الهائم عن أبي بكر بن العربي والنووي -رحمه الله تعالى: أن له ﷺ ألف اسم، وقيل: ألفان وعشرون، واختار الناظم هذا الاسم؛ لأنه كما قيل: الزهاء في الأسماء، وأشوقها إلى الصلاة على الحبيب المطاع، وخُصت به كلمة التوحيد لسر يعلمه الشهيد. وقد سماه الله به قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، وبه سماه جده عبد المطلب عن إلهام إلهي، وقيل له: لم سميته محمدًا، وليس اسمًا لأحد من آبائه، قال: إني لأرجو أن يحمده أهل السماء والأرض.

قال شارح «الدلائل»: وذكر أبو طالب الغابر.

قلت: وعزاه المناوي للغير، وأتى في «البستان» أنه سماه محمدًا لرؤيا رآها، فقال: إنه رأى سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب؛ ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه تتعلق به أهل المشرق والمغرب، وتحمده أهل السماء والأرض، وقد سمعت أمه آمنة أيضًا قائلاً يقول: إنك حملت بسيد هذه الأمة؛ فإذا وضعتيه فسميه محمدًا، وأمرت في رؤيا أخرى أن تسميه

أحمد، وقال: ولم يُسم أحد قبله بهذا الاسم إلا بقرب زمنه، وتبشير أهل الكتاب بقربه سمى قوم أولادهم، وعدتهم خمسة عشر، رجاء النبوة لهم -والله أعلم حيث رسالاته- وقد ذكرت عبارته بتمامها، وأضفت إليها زوائد فوائد بسرها القوي في المطلب التام السوي، على حزب الإمام النووي، ولنذكر هنا ما لا ذكر له فيه؛ ليظهر لديه من سر هذا الاسم الكريم خافيه.

قال الشيخ عبد الله البسطامي -رحمه الله تعالى- في كتابه «درة الفنون في رؤية قرة العيون»: وصل: ثم اعلموا -علمكم الله من العلوم أهداها، وأعطى نفوسكم المطمئنة مناها- أن أعلاه الميم الأولى من هذا الاسم المحمدي بظهور روح أدوات الضم، الذي هو أداة اقتضى ما أوتيته ﷺ من الملك الظاهر؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:16] أي: وهو الخليفة على الخليقة على الحقيقة، فله استظهار به في ذاته، وخص بكمال الظهور بالعبودية؛ أي: التي هي ارفع المقامات وأعلاها، هذا كله مفهوم من ثبوت الميم في أوله مضمومة، ثم الخالي اسمه لفهم كمال الصورة والحياة، فلم يطرقه ﷺ نقص في حياته حال النوم، فكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه، ولا تنحصر له قبوره فيساوي الطويل في طوله إذا ما شاء، ويرى على ما في الأذهان من الاعتدال إذا تفرد في العينان.

ومن استشخص صورة رآه ﷺ عليها، ولذلك كان وصاف الصحابة يختلفون في حليته، وكل يعبر في حظ رؤياه بقدر إيمانه وصفاء قلبه؛ فكان منهم: في رونق صورته كالسيف الصقيل، ومنهم: من يراه كالقمر، ومنهم: من يراه كالشمس، ومنهم: من هو عاجز عن تشبيهه بشيء، وذلك لحركة جاء اسمه بحركة الاستواء الذي هو الفتح، وتكرار الميم في اسمه؛ لفهم كمال الاسم بالميم الذي هو تمام الختم فالساكنة خاتمتها، والمتحركة بحركة السواتية فسدوها؛ أعني الساكنة المدغمة: إشارة إلى أنه ﷺ خاتم الأنبياء، والمتحركة المظهرة: إشارة إلى أنه أول ما ظهر من العوالم، ولما كان من شأن الظواهر الانقطاع، ومن شأن الصور الاضمحلال، أفهمت الدال دوام ظاهره الشريف وصورته التامة؛ لأن ذلك إنما هو للتمام؛ فإذا تم صورة فظاهر أوجب الدوام، فكان ظاهره خاتم كل عالم وباطنه دائم الختم في أمر الله تعالى.

ولله در الإمام أبي عبد الله محمد بن يعقوب التونسي -رحمه الله تعالى- حيث يقول:

محمد لفظ ليس يفهم معناه ... سوى وارث من علمه ما ورثناه

خلاصة هذا الكون سر وجود ... لطيفة محياه وتور محياه

تجمع فيه أحرف لو كشفت ... عن حقيقتها الكريم ما كشفناه

في المبدأ الأعلى هي المنتهى فما ... سواها ففيها؛ إذ بها قد شهدناه

في المطلب الأقصى لدى كل طالب ... ولكن بها عنها البرية قد تاهوا

فيا طالبًا معنى حروف محمد ... اصح، إن معناها عليك جلوناه

تأمل فميم الملك فيها إحاطة ... ومن سر حاء الحب واحفظ خباياه

ودم، إن حرف الدال يعطيك سره ... دوامًا، وكن بالله إن شئت تلقاه

ولأنك إلا باقيًا ببقائه ... فمن هو فإن كيف فالله

ودع كل دعوى، وادع نفسك بالذي ... دعاك إليه الله إن كنت تخشاه

وسلم لأهل الله تسلم، ولا تحد ... عن السني الأهدى الذي قد سلكناه

ومن آل طه فاقتبس كل حكمة ... فقلب كتاب الله يس فاقرأه

وقال في الفصل الأول منه: واعلم أن للنبي ﷺ أسماء شريفة، منها: ما هو بمنزلة الأصول الكلية، ومنها: ما هو بمنزلة الفروع الجزئية، وينشأ بعينها من بعض، ويقال فيها: من وجدانها متناهية، وترجع من حيث تناهيها إلى تسعة وتسعين اسمًا، وبوجه آخر إلى أكثر من وأوسعها حيطة، وأشملها جمعًا، اسمه ﷺ أحمد، فمحمد ﷺ بمثابة اسم الله؛ لاشتماله وجمعيته، وأحمد: بمثابة الرحمن في عمومه وسبقيته، ولما كانت الأسماء الحسنى تدخل تحت حيطة اسمين سابقين، وهما: الواحد والأحد، من حيث إن الواحد أصل ومنشأ لجميع الاعتبارات الغير متناهية، فيدخل تحته في جميع الأشياء الثبوتية والأحد أصلاً، وينشأ لجميع الإعدامات والسلوبات فيدخل تحته جميع الأسماء السلبية، كان اسمه ﷺ محمد الأسماء به الحسنى بمثابة الاسم الواحد، واسمه أحمد بمثابة الاسم الأحد، ولما

كانت الأسماء أيضا بوجه آخر تدخل تحت حيطة اسمين عامين شاملين، وهما: الظاهر والباطن، كان محمد بمثابة الاسم الظاهر؛ ولذلك كان اسمًا له من حيث ظهوره في عالم الخلق، وأحمد بمثابة الاسم الباطن؛ ولذلك كان اسمًا له من حيث ظهوره في عالم الأمر، وعلى هذا النمط في الأول والآخر.

واعلم أن الكل واحد من هذين الاسمين الشريفين بحكم جمعيتهما اشتمالاً على الآخر مع رجوع سائر الأسماء إليه، سلبية كانت أو ثبوتية، فإذًا دعوته به منهما: فقد دعوت بجميع أسمائه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

وفي هذا المعنى أنشد شيخنا العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد الكوفي التونسي -قدس الله تعالى سره- قوله:

ادع النبي محمدًا أو أحمد	فبأيها تدعوه كنت ممجدا
وكلاهما جمعته، وإحاطة	فإذا دعوت به فأنت على هدى
أكرم بها من أحرف أبدت لنا	سرًّا تجلى مطلقًا ومقيدا
كل الكمال له، فليس كمثله	شيء، تعالى مجده أن يُجحدا
من لم يوحده فذلك ملحد	فاحذر تكن من وصف أحمد ملحدا
توحيده فرض عليك فكن به	متقربًا لمليكنا متعبدا
هو ليس إلا هو، وكل دقيقة	في الكون منه سرنا فيها بدا
كل الوجود، فذات أحمد عينه	فأعجب لجميع فيه أصبح مفردا

إلا أن محمد اسم له من حيث محمديته ظهر في عالم الكون، ومن حيث أحمديته ظهر في عالم الغيب؛ فمحمد عبد الله، وأحمد عبد الرحمن، فمن حيث محمديته كانت شريعته جامعة لجميع الشرائع، ومن حيث أحمديته كان حكم الشريعة الإبراهيمية فيها أظهر وأتم؛ فمحمد ولد آدم، وأحمد أب له، انتهى.

وقال الأكبري في «فتوحاته» -أمدنا الله بإمداداته: لما كان داود عليه الصلاة

والسلام في دلالة اسمه أشبه بني آدم بآدم في دلالة اسمه عليه؛ صرح الله تعالى بخلافته في القرآن في الأرض كما صرح بخلافة آدم؛ فإن حروف آدم غير متصلة بعضها، وحروف داود كذلك إلا أن آدم فرق بينه وبين داود بحرف الميم الذي يقبل الاتصال القبلي والبعدي، فأتى الله به آخرًا حتى لا يتصل به حرف سواه، وجعل قبله واحدا من الحروف الستة التي لا تقبل الاتصال البعدي، فأخذ داود من آدم ثلثي مرتبته في الاسم، وأخذ محمد ﷺ ثلثيه أيضًا، وهو الميم والدال غير أن ﷺ متصل كله، والحرف الذي لا يقبل الاتصال البعدي جعل آخرا حتى يتصل به. ولا يتصل هو بشيء بعده، وهو قوله ﷺ: «**ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن صاحبكم خليل الله**»(1).

قلت: وهذا من حديث رواه مسلم وغيره عن ابن مسعود؛ فيتصل به كما يتصل به بأحد فتناسب محمد ﷺ آدم عليه السلام من وجهين مناسبة النقيض بالاتصال بآدم، وآدم له الاتصال كداود والميم من آدم كالدال من محمد ﷺ فجامع آخر كذلك؛ أعني: من آخر الاسم منهما، ومناسبة النظير التي بين آدم ومحمد ﷺ في كون الحق علم آدم الأسماء كلها، وأعطى محمد ﷺ جوامع الكلم؛ فعمت رسالته كما عم التناسل من آدم في ذريته؛ فالناس بنو آدم، والناس أمة محمد ﷺ من تقدم منهم ومن تأخر؛ لأنه قال ﷺ: «**آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة**»(2).

وقال في «مفتاح الجفر»: قال بعض الأكابر من أصحاب أبي مدين قدس الله سره: أن في معرفة أسرار النوراني من الحروف من الكشف ما لا مزيد عليه، وكل اسم يلحظ من أسرار حروفه؛ **مثال ذلك**: اسم محمد ﷺ أربعة أحرف، وهي م ح م د ثلاثة نورانية، والدال من الظلمانية؛ لكنها من العلويات.

فانظر هذا السر الغريب اسم أبو بكر ستة أحرف، وهي أ ب و ب ك ر فيها ثلاثة علوية وهي: أبو، وواحد سفلي، وهو: الباء، واثنان نورانية وهما: ك ر؛ وأما اسم عمر فهو ثلاثة أحرف كلها نورانية ع م ر؛ لكن الميم فيها سفلي؛ فإذا علمت ذلك فهمت شدة الخدة الموجدة في سيدنا عمر ﷺ؛ لكونه لم يقبل من السفليات شيئًا، وقوله ﷺ: «**لو سلكت فجًا**

(1) ذكره الذهبي في الميزان (1/ 355).

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (1/ 16).

لسلك الشيطان غير فجك يا عمر»[1]، إذا علمت هذا المثال ظهر لك: أن كل اسم سمي به الشخص يظهر لك منه سر ذلك الشخص؛ لسر الحروف الموجودة في اسمه، انتهى.

واعلم أن هذا الاسم الكريم إذا بسطت حروفه اللفظية، وأضيف إليها نون التنوين نطقت تلك الحروف ببعض أسمائه المشهورة وغيرها؛ كأحمد، وحامد، ومحمود، وأحيد، ووحيد، وداحي، وماحي، ومأمون، وميمون، وأمين، ويمن، وأمان، وحي، ودال، ومنادي، ونائل، ومنيل، والداني، والمدني، والممد، والخليم، والدائم، والأول، والولي، والأمي، والحامي، والرامي، والمحمي، والخامل، والمحمول، وإذا استعملت الحط والتعلية في هذه الحروف رأيت من الأسماء صنوفًا، وأي صنوف، وبدت لك من لطائف العوارف ألوف، وهذه طريقة جفرية يدريها ذو السير لا الوقوف، وتشير مهيمنة الأولى بعدد مراتب الوجود، وليقات الكليم المودود، ولمدة ظهور ينابيع الحكمة من القلب على اللسان حال الإخلاص، ولأول زمن النبوة ولعدد الإبدال.

فإنهم كما في «الجامع الصغير»: «أربعون»[2]، ولمدة إقامة عيسى عليه الصلاة والسلام على خلاف في ذلك، ولمدة هجرية والخلافة من بعده ﷺ؛ وكرجال شهر رجب الذين ذكرهم المحيوي في «فتوحاته»، وإلى حفظ الأربعين حديثًا من السنة على الأمة، وإلى ثواب قود الأعمى أربعين خطوة، وإلى أيام الدجال، وإلى مدة ما بين النفختين، وإلى ما بين طلوع الشمس والدابة، وإلى غير ذلك من كل ما انحصر عدده في الأربعين، وحاؤه تشير إلى أبواب الجنة، وإلى حملة العرش يوم الجزاء، وإلى الأشهر غير الحرم، وإلى الأعضاء الثمانية، وإلى آيات العين الثمانية التي ما قواهن عبد في دار؛ فنصيبهم عين إنس ولا جن الفاتحة وآية الكرسي، وإلى كل عدد تحصره الثمانية، وإذا بسطت صارت تسعة فتشير إلى الأفلاك التسع، وإلى مدة المهدي رضي الله تعالى عنه؛ فإنها على الصحيح تسع ووزراءه كذلك.

وما قيل إنها أربعون فبانضمام مد المميد إليها؛ فإن مددته تنوف على الثلاثين، والميم إذا بسط بلغ تسعين فتشير هي والميم إلى عدد الأسماء الحسنى، وإذا دونت إشارة إلى عدد درجات الجنة؛ فإنها مائة درجة، وإلى الرحمات الإلهية، وإلى أجل هذه الأمة؛ ففي الحديث:

---

(1) ذكره القرافي في الفروق (4/ 10).

(2) رواه الحكيم في النوادر (1/ 261).

«إن لكل أمة أجلاً، وإن لأمتي مائة سنة، فإذا مرت على أمتي مائة أتاها ما وعدها الله»[1].

وإذا ضممت لها الدال حصلت الإشارة إلى الكتب السماوية، وكل عدد يخرج من جسد هذا الاسم وروحه بالحمل الكبير أو الصغير، حال بسط الحروف وكسرها ووضعها ورفعها فحقيقته تشير إليه؛ لأن المسمى به محط رحال الأشياء لديه، فكل ما استنبطه النبيه من هذا الاسم العديم النظير والتشبيه صدق فيه؛ فالميم الأولى: أيها الحميم تشير للمبدأ، والثانية: للمعاد، وللملك، والملكوت، والمحيا، والممات، والمحق، والمحو، وللمشارق، والمغارب، والمطالع، والمنازل، والحمى للحياة السرمدية، والحيرة المحمودة الأبدية، وللحجة البالغة، ومحق الذي أدلته دامغة، والحروف العالية، والحرية الغالية، وللحكمة المنطوق بها والمسكوت عنها، والمجهولة عندنا، والجامعة صور، والدال للدعوة، والدلالة، والدنو، والدلال، والدوام، والدور مع كتاب الله تعالى حيثما دار، والدعائم، والدرجة الرفيعة، والدولة المنيعة، والدواء النافع، والدين الرافع، وغير ذلك مما تفهمه تعدي الحروف من معروف المعنى أو غير معروف.

ولهذا الاسم الشريف خواص كثيرة ذكرت منها: نورًا في «المطلب التام»، وقد ذكرت أهل الخواص فوائد كثيرة تستعمل لرؤيته في المقام عليه الصلاة والسلام.

وجاء في فضل التسمي بهذا الاسم التي حروف منيرة العالية الغالية الحالية الخالية أحاديث شهيرة، ولو أردنا استيفاء الكلام عليه لأعيانا ذلك ولم نصل إليه، ولنذكر تمام نسبة الشريف ﷺ؛ فأما معرفته واجبة كحليته الشريفة وولادته بمكة، ومهاجرته إلى المدينة، وأنه من البشر، وأنه من العرب واندراجه فيها، ومعرفة نسب أمة آمنة التي بحملها له من كل آمنة فهي بنت وهب بن عبد مناف بن كلاب، وأمها مرة ابنة عبد العزى بن قصي بن عبد الدار، وهذا القدر الواجب؛ فإنها تلتقي مع النبي ﷺ من جهة آبائه في كلاب كما أن الواجب قيل: إلى عبد المطلب، وقيل: وآخر مقيد بالمكان، وقرب مطلق وقرب عن تقرب لا عن تقرب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [سورة البقرة:186].

قال الإمام اليافعي المقدام في «الدر النظيم في خواص القرآن العظيم»: قال بعض

(1) ذكره الهيثمي في المجمع (7/ 257).

العارفين: الكلام في هذه الآية من فصول: **أحدها**: في معنى السؤال، **والثاني**: في معنى القرب، **والثالث**: في معنى الإجابة، **والرابع**: في معنى الاستجابة، وقد اختلف المفسرون في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: نزلت في عمر بن الخطاب وأصحابه حين أصابوا من أهلهم في ليالي رمضان؛ ثم ندموا فقالوا: يا رسول الله هل لنا من توبة؟ وفي رواية: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: كيف يسمع ربنا دعاؤنا وبين السماء والأرض خمسمائة عام؟ وإن غلظ كل سماء، قيل ذلك فنزلت.

وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت، ثم قال: وأما القرب فقد أوضحه في الآية؛ فقال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] [سورة البقرة:186] ففسر القرب بالإجابة،

(1) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي: إذا سألك أهل محبتي وتوحيدي عن دنوي منهم؛ فإني قريب منهم إليهم، وأنا مباشر أسرار حبهم فؤادهم بصفة الخاص، فانجلي بنفسي من نفوسهم لنفوسهم؛ لأن ظهوري للعموم، وإن لم يروني إلا أهل الخصوص، وفي ضمن الآية إشارة إلى تنزيه الحق عن البينية والأينية؛ لأنهم أشاروا إلى قرب البين، وبعد الأين؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ من عبادي بلا أين، وبلا بين. ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: إني أجيب دعوة المخلصين إذا دعوني من قعر قلوبهم بلسان أسرارهم، وإن لم يعلموا إجابتي لهم. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا أدعوهم بأصوات الوصلة عند خطرات كلماتي في قلوبهم إلى مائدة مشاهدتي في زوايا صدورهم بنعت إعراضهم عن غيري. ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: ليوقنوا فيما كشف لهم من أسرار ملكوتي، وأنوار جبروتي، ولا يسمعوا حديث العدد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى مقام طمأنينة وحقائق التمكين بشرط المعرفة.

قال الشبلي: إذا وجد الحق للعبد لذاذة قربه ارتضاه لنفسه، وتولى سياسة لنفسه، وأدّبه بأخلاقه، وأعطاه ثلاثة من أوصاف ذاته: حياة لا موت فيها، وقدرة لا يزول بعجز، ومنكًا في جوار الملك، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾. وقال ابن عطاء في هذه الآية: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قال: أضاف عباده إليه إضافة خصوصية لا إضافة ملك، كأنه يريد إذا سألك الخواص من عبادي عني فأخبرهم بإني قريب. وقال بعضهم: إذا سألك المشتاقون من عبادي عني، فأخبرهم إني أقرب إليهم من كل قريب، وأنا عند ظنونهم بي. وقال رويم: القرب إزالة كل معترض.

وقال الجنيد، وسُئِلَ عن قرب الله من العبد؛ فقال: هو قريبٌ لا بالاجتماع، بعيد لا بالافتراق، وقال: القرب يورث الحياء. [عرائس البيان 1/ 90].

وقطع الأطماع عن قرب المكان والمسافة، مع استحالته في حقه، وبين باب قربه من العبد بتوفيقه للدعاء؛ ثم يجيبه، ويقال: قريب؛ أي: يسمع دعاءهم، وقيل: قريب؛ أي: سريع الإجابة فجاء بذلك؛ لمشاكلته معنى قريب لسريع.

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يتصف بالقرب من العبد، والعبد يتصف بالقرب من الحق سبحانه وتعالى؛ فأما قرب الحق من العبد بالذات فتعالى الله الملك الحق، فإنه يتقدس عن الحدود، والأقطار، والنهاية، والمقدار ما اتصل به مخلوق، ولا ينفصل عنه حادث مسبوق حلت الصمدية عن قبول الفصل والوصل؛ فقربه تعالى كراماته لأوليائه، وبعده تعالى إهانته وطرده لأعدائه، وقربه للعبد في هذا الدار ما يخصه من العرفان، ويهديه إليه بوجوه اللطف والامتنان، وتوفيقه لامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ [الحجرات:7]، ثم قال: وأما قرب العبد من الله سبحانه وتعالى فهذه اللفظة تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: الاقتراب بالطاعة لا بالمسافة، قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1] فإذا سجد أحدكم فليجتهد في الدعاء.

والثاني: الاقتراب إليه سبحانه؛ لمحو الصفات المذمومة، والتخلق بالأوصاف المحمودة.

والثالث: قوة المعرفة بوجود الحق سبحانه، وعظمته، وجلالته، وعلوه، وكبريائه، وأنه الظاهر الذي لا تقهر، والغالب الذي لا يغلب، وأنه الذي لا يشبه بشيئًا، ولا يشبهه شيء؛ ثم علم ما يجوز ويجب ويستحيل في حقه تعالى، وهو أصل المعارف وأعلى القرب وغايته.

كما قيل:

ونلت المنى لما حللت بقربه ... ولم يبق لي شيء أمن به نفسي

واعلم أن القرب من صفات القلوب، وليس من أحكام الظاهر والأكوان، فلا

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (1/ 350).

يكون قرب العبد من الحق سبحانه وتعالى إلا ببعده عن الخلق، وأما البعد فكما قيل: قربه كرامته لأوليائه، وبعده إهانته لأعدائه، انتهى.

وأما قرب النوافل والفرائض فقد أشار إليهما الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال الله عز وجل: «**من عاد لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويديه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»، وفي رواية عند أحمد والطبراني وغيرهما بزيادة: «**وفؤاده الذي يعقل به، ولسانه الذي يتكلم به**»[1].

قال شيخنا المرحوم الشيخ عبد الغني -قدس الله سره الهني- في «شرح التحفة المرسلة»: فقوله لا يزال إشارة إلى نية الدوام، والثبات على الطاعة من أول الأمر بحيث لا تكون طاعته مغياة بحصول أمنية، وقوله عبدي: إشارة إلى الاتصاف بصفة العبودية وهي الرضا بأفعال الرب سبحانه وتعالى فيما يحب العبد وفيما يكره، وإلى صحة النسبة إليه تعالى بالعبودية لا إلى غيره سبحانه وتعالى، ومن أحب شيئًا فهو عبده فمحب الدنيا عبد الدنيا.

وقوله يتقرب: إشارة إلى نية القرب إلى الله تعالى بالعمل؛ لإرادة الجنة به، وبها النجاة من النار ولا غير ذلك، وهذه هي شروط السالكين في طريق الله تعالى دون ما عداهم، وقوله: كنت سمعه الذي يسمع به؛ أي: لا سمعه الذي لا يسمع به وهي القوة النفسانية المنبثة في أذنه؛ فإنها لا يسمع بها وكذلك في الكلام؛ والمعنى: أنه تعالى الوجود الحق الذي به سمع العبد وبصره، وباقي صورته الباطنية والظاهرية تقادير الوجود الواحد الحق وتصاويره إلى غير ذلك، انتهى.

وقال الأكبري -قدس الله سره- في الباب 48 من «فتوحاته»: المراد بكنت سمعه وبصره ...إلخ: انكشاف الأمر لمن تقرب الله تعالى بالنوافل؛ لأنه لم يكن الحق تعالى سمعه قبل التقرب، ثم كان تعالى الله عن ذلك، وعن العوارض الطارئة، قال: وهذه من غرر المسائل الإلهية، انتهى.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني -قدس الله سره- في «اليواقيت والجواهر»:

---

(1) رواه البخاري (5/ 2384)، وأبو يعلى (15/ 520)، والطبراني في الكبير (8/ 206).

فإن قلت: فلم ذكر تعالى في هذا الحديث الصور الحسية من السمع والبصر ونحوهما دون القوى الروحانية؛ كالخيال والحفظ والفكر والتصور والوهم والعقل؛ فالجواب كما قاله الشيخ في الباب السادس والأربعين والثلاثمائة: أنه تعالى ما ذكر الحواس الظاهرة إلا لكونها مفتقرة إلى الله تعالى لا إلى غيره بخلاف القوى الروحانية؛ فإنها مفتقرة إلى الحواس، والحق تعالى لا ينزل منزلة من يفتقر إلى غيره بخلاف من هو مفتقر إلى الله تعالى وحده لا يشرك به أحدًا، فقد بان لك الحواس الظاهرة أنتم؛ لأنها تهب القوى الروحانية ما تتصرف فيه وما به تكون حياتها العلمية -والله اعلم- انتهى.

وأما القرب العلمي والعملي والحالي والسري والروحي والقلبي والنفسي والمقيد والمطلق، فظاهر المعاني عند المعاني وإدراكه بالذوق؛ لأنها كل من فوق ينبو عن الطوق؛ إذ هي شوق لا ينال بسوق، وأما القرب الذي عن تقرب فإليه يشير حديث: «**من تقرب مني شبرًا**»(1)، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85].

قال الشعراني -رضي الله تعالى عنه- في «اليواقيت والدرر»: سألت شيخنا ﷺ عن قولهم فلان بعيد من الله، وفلان قريب من الله ما معناه؟ والحق أقرب إلى كل إنسان من حبل الوريد، فقال ﷺ: القرب والبعد راجع إلى شهود العبد في تقسير لا إلى الحق؛ فإذا أطاع العبد ربه نفسه قريبًا، وإذا عصاه شهد نفسه بعيدًا فهو أمر إضافي لله -والله اعلم- انتهى.

[(**مَنْ جَا بِالْبَلَحِ**) تقدم شرحه في سابقه].

قال المصنف:

وَبِسِرِّ الْقُرْبِ كَذَاكَ الْحُبِّ وَأَهْلِ الْجَذْبِ الْمُنْعَرِجِ

قال الشارح: (**كَذَاكَ**) أي: كما سألتك **وَبِسِرِّ الْقُرْبِ** أسألك بسر **الْحُبِّ** وسلف الكلام عليه، (**وَأَهْلِ الْجَذْبِ**) أي: وأسألك بسر أهل الجذب، ومر الكلام عليه عند قولنا: نسألك بأهل عنايتك الذين اختطفهم به جذباتك (**الْمُنْعَرِجِ**) أي: منعطف الوادي ثمنه وبسره؛ والمعنى: بأهل الجذب الذين جذبوا من أردته لمنعطف وادي قدس القرب فسلكوا به الجانب اليمين، وكان من أصحابه، ونبذوا بك من أبعدته فوقع في جانب

(1) رواه البخاري (6/ 2741)، ومسلم (4/ 2061).

الشمال وكان من أصحابه؛ فكانوا مظهر التقريب والإبعاد والإغواء والإرشاد قال الله تعالى ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: 26] أو وأسألك بالمجذوبين لمنعطف وادي السر الصفاتي الملاحظين بغير بصيرتهم للمشهد الذاتي الذين شهدوا كلتا اليدين يمين، فلذا لا يشك أحدهم في مشهده ولا يمين، ولما كان أهل القرب والحب والجذب المكين هم أرواح الكائنات؛ إذ بهم قوام قوامها بيقين قدم التوسل بهم لمزيد قربهم.

ثم عطف متوسلاً بالأكوان فقال سامحه المنان:

وَبِمَا أَوْجَدْتَ مِنَ الأَكْوَانِ ... بِمَا فِيهِنَّ مِنَ الأَرَجِ

قال الشارح: (وَبِمَا أَوْجَدْتَ) أي: خلقت وعينت وقدرت وبينت (مِنَ الأَكْوَانِ) جمع كون، وهي المخلوقات إذا الكون ما قبل التكوين، فيصدق على سائر العوالم الملكية والروحانية والجنية والإنسية وعددها لا يحصى، وأمرها لا يستقصى، ومع هذا فكلها فانية، وقطوف زواها دانية؛ لعموم قول الحي القيوم كل شيء هالك إلا وجهه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 26، 27].

قال القاضي: أي: ذاته لو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجودها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله؛ أي: الوجه الذي يلي حسها، انتهى.

فالأكوان وما فيهن عدم، وكل ما ظهر فبالحق ظهر؛ فلولا الوجود ما ظهر موجود، فالوجود مرآة الوجود؛ ولذا ما سئمت الأعيان الثابتة في العلم رائحة الوجود في العين، وإنما الظاهر أمثلتها؛ فأهل الشهود ترون الوجود للمعبود، وأهل الحجاب والإنكار والجحود يثبتون لغير المالك فهم إذًا غاصبون ذلك فالموجودات أعراض، وما كان مسمى بالجوهر فهو مركب من أعراض والعرض لا يبقى؛ بل هو معدوم موجود في لمحة، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: 26] وأمره كلمح البصر؛ فلولا إمداد الحق للمظاهر بالظهور في كل آن لاختفت عن الأعيان، فكل شيء هالك بالنظر إلى ذاته ثابت بالنسبة لتجلي الحق عليه بصفاته.

(بِمَا فِيهِنَّ مِنَ الأَرَجِ) أي: من توهج ريح الطيب، أو بما أودعت فيهن من أطيان مختلفة الروائح عند كل واحد، مع أنها تسقى بماء واحد، وبما أودعتها من طيب الظهور

لدى كشف الستور حال أيما دعوة الحضور، وإطلاق نداء الحبور بارتقاء قصور النور، ولقاء الصبور الشكور، والقرب من الحبيب أطيب من كل طيب، ولا لقاء بغير بقاء ولا بقاء إلا ومعه ارتقاء، وتعلق وإلقاء.

وأنشد الجيلي المنتقى سقانا الله بكأس منه له سقى - في «عينيته» قوله:

وأطلق عنان الحق في كل ما ترى فتلك تجليات من هو صانع

لقد خلق الأرضين بالحق والسماء كذا جاء في القرآن إن أنت سامع

وما الخلق إلا الله لا شيء غيره فثم شذاه فهو في الخلق ضائع

أي: من حيث التجلي، والنور، والإمداد بالتفاوت، والإسعاد بالارتقاء، وأسماؤه تعالى تعدم وتفنى، وصفاته تهدم وتبنى، وذاته توجد وتعدم وتفنى؛ فالكل به قائم، وبحبه هائم، فبوجوده أبقاهم، وبشهوده رفاهم، وبجماله أحياهم، وبجلاله أفناهم؛ فالوجود البحر المزخار، والحوادث أمواج وأنهار، والتجليات والأطوار أستار، ولكل اسم عرف تطيب به الأدوار يفوق عرف أزكى بهار، وكذلك الصفات الرفيعة المقدار؛ فمن كرف عرف هذه الأطياب كان ممن عليه المدار، وممن تحمى به الأقطار من الأكدار، ولكل من الأسماء والصفات والذات خمرة بسكر شذاها، ويأتي بأرفع اللذات، وإليها أشار العارف المرتشف من كؤوسها الإنسية وطسوسها الأقدسية بقوله:

ولو عَبِقَتْ في الشرق أنفاسُ طيبِها وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ لهُ الشَّمُّ

واعلم أن في هذه الأكوان البارزة من عين الوجود، والمنة التي من جملتها الجنة روائح فوائح تجني الأجنة، وإليها تلوى عن الرغم الأعنة، ورد في الحديث الشريف عمن حبه جنة، وجنة: «**لو أن حورًا أطلعت أصبعاً من أصابعها؛ لوجد ريحها كل ذي روح**»[1]، ولولا القوة الإلهية التي يعطاها العبد المؤمن في الآخرة ما استطاع النظر إليهن، ولا سماع كلامهن فكيف بفنائهن: «**نحن الخالدات؟ فلا نبيد ونحن الناعمات، فلا نبئس ونحن الراضيات، فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له**»[2]، ولا شم روائحهن من بعد فكيف

(1) رواه الطبراني في الكبير (6/ 59).

(2) رواه الترمذي (4/ 696).

بمضاجعتهن؟

وإن لله تعالى رجالاً يشهدهم الحور والقصور في هذه الدار، وينعمهم بلذات ربها فاقت الذات دار القرار بالنسبة لما تعطاه الأبرار، والمقربون الأخيار كمن يدخله أرض الحقيقة، أو يشهده جمالاً حوى كل رفيقة، وينشفه عبير هو أصل كل طيب كمن يكرفه شذا تسر الحبيب فيشق رباه فيطيب من كل داعيًا الطبيب.

قال العارف المصيب: وانشق رباها بكل رفيقة بها كل أفق ناشق كل هبة، وإن من أهل المراتب العالية من إذا شم مسك الغالية على العقول، أو الغالية مات من حينه وخرجت نفسه من بين جنبيه.

ومنهم: الذي إذا نظر انبهر وانقهر.

ومنهم: الذي يمكنه النظر دون المسمي، والثابت لدى كل حال فاخرة هو الذي ثبته الله في الدنيا والآخرة؛ لأنه من خاصة الخاصة، وأهل الله الممنون عليهم بالانتباه الذي أحياهم محباته وحياهم وحباهم رفيع إمداداته فهم أهل الحي على التحقيق المتوجهون إليه رجالاً وركبانًا من كل فج عميق، الناشقون لكل عبير منه يكتسب الطيب المسك العتيق؛ فلذا توسل بأهل الحي الذي هم من حمله عاليًا غاليات الكون الكارفون أرج حضائر الصون.

فقال منحه الله تعالى العون:

وَبِأَهْلِ الحَيِّ وَبَهْجَتِهِم وَبِبَحْرِ القُدْرَةِ وَالمَرَجِ

قال الشارح: (وَبِأَهْلِ الحَيِّ) والمراد به هنا: الاسم الإلهي؛ والمعنى: أسألك بأهلك فإنك الحي أسألك بأهل الاسم الحي؛ أي: الذي نسبوا له واختصوا به؛ لأن لكل اسم خاصة من حيث ظهور أثره لك الاسم ظهورًا تامًا عليهم حتى اتصفوا بالحياة الكلية الأبدية، أو عاينوا سريان الحياة؛ فعاد مقامهم عيسوي يحيون الموتى بإذن الله تعالى نظرًا، أو ضمًا، أو تقبيلاً، أو شمًا، ويودعون له وصف الحياة في مأكول أو مشروب؛ فيحيي بحول الملك القدوس بنور العلم، والشهود بعد فناء الوجود.

جاء في الخبر أن أبا هريرة ﷺ شكا لرسول الله ﷺ النسيان؛ فقال: «**يا أبا هريرة ابسط رداءك**» فبسط رداءه، فاغترف غرفة من الهوى، أو ثلاث غرفات وألقاها في رداء أبي هريرة،

وقال له: «ضم رداءك إلى صدرك»[1] فضمه إلى صدره فما نسي بعد ذلك شيئًا سمعه.

(وَبِهِمَّتِهِم) أي: وأسألك بحسنهم الذاتي، أو الصفاتي، أو العرضي المكتسب من العلم والأدب، أو من الأعمال الصالحة المشار إليه بحديث: «من قام بالليل حسن وجهه بالنهار»[2] وبحديث: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»[3] (وَبِبَحْرِ الْقُدْرَةِ) أي: وأقسم عليك ببحر قدرتك الخضم التام المستغرق مدده الخاص والعام، والبحر كما هو في «القاموس»: الماء الكثير، أو الملح فقط، وجمعه: بحر، وبحور، وبحار، والتصغير: بُحير، أُبيحر... إلخ.

والقدرة صفة أزلية قائمة به تبرز الأشياء على وفق مراده، قال اللقاني -رحمه الله تعالى- في شرح «الجوهرة»: وعبر عنها بالقوة في الكتاب والسنة واللغة، وهي كما قال: السعد صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها؛ بمعنى: أن الذات الواجبة الوجود القائم بها صفة القدرة القديمة تؤثر في الممكنات إيجادًا وإعدامًا على وفق ما تعلقت به إرادته، وأحسن منه قول بعض المتأخرين صفة بذاتي بها إيجاد كل ممكن، فأعد أنه على وفق الإرادة، انتهى.

وتشبيهها بالبحر للسعة والعظم، أو لأنها في حركة دائمة بين إيجاد وإعدام؛ كالبحر وحروه (وَالْمَرَجِ) قال في «القاموس»: ومرج البحرين وأمزجهما خلاهما لا يلتبس أحدهما بالآخر، انتهى.

أي: ويسر المرج الواقع بين الصفات مع عدم التباس إحداهن بالأخرى مع أنها بحور متلاطمة الأمواج، ولا يقع فيها اختلاط وامتزاج؛ بل فيوض غيوب وإرادة على القوابل من كل قابل؛ بل تسبح ولا تسبح بوصل وصل كالوابل؛ فهي نتيجة عن بحر الاقتدار الذي ماله مقابل المنبت مأواه حبة تقريب ضمنت سبع سنابل، وحيث كانت القدرة لها دون غيرها الإبراز كما للإرادة التخصيص والإقرار لم يكن وصل إلى مقصود إلا بمساعدة القدرة للعبد المفقود، وأهل الحي قد حصل لهم ذلك وحلوا في عظيم هذه

---

(1) رواه البخاري في (1/ 56).

(2) رواه ابن ماجه في سننه (1/ 422).

(3) رواه البيهقي في الشعب (5/ 287).

المسالك؛ فلذا قال متوسلاً إلى المالك المنعم عليه بما هنالك:

وَبِطِيبِ الوَصْلِ وَلَذَّتِهِ بِبِسَاطِ الأُنْسِ المُنْتَسِجِ

قال الشارح: (وَبِطِيبِ الوَصْلِ) أي: وأسألك بوصل وجدناه طيبًا، وسحاب إمداده صيبًا، أو المعنى: أسألك بطيب أهل الحمى، فإن لهم طيبًا خاصًا من الدعوى عما إذا كل من ادعى أنه من أهله، وممن يستقي صرف نهله، ولم يكن هنالك قيل له أين التضمخ بذاك الطيبات الذاك، (وَلَذَّتِهِ) فإنها من أعظم اللذات، وأفخم المستلذات حتى أن البعض لما طال وصال لم يكتف بحال وصال؛ فقال:

وإن اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الذي بوصاله لا اكتفي

لأن حقيقة الوصل تطلب مواصلاً ومواصلاً، فإذا لم يرضه من كان في منزل التوحيد حاصلاً، ومن هنا قال الواجد النديم: شهود الوصال حجاب عظيم، أو لأن الوصال أول درجات القرب؛ وثم في الشرب عند أهل الحب مقام وصل الوصال، وهو دوام الشهود بوجد الوجود، وقد قيل اللذات مجموعة في ستة أشياء: نعيم بلا بؤس، وسرور بلا حزن، وراحة بلا مشقة، وعز بلا ذل، وصحة بلا سقم، ومحبة وصل بلا هجر وهي أرقاها، ومر الكلام على الوصل (بِبِسَاطِ)؛ والبساط بالكسر ما يبسط على الأرض، وجمعه بسط، كذلك القاموس (الأُنْسِ) هو كما في "القاموس": بالضم لا التحريك، والأُنسية محركة ضد الوحشة، وقد أنس به مثلثة النون... إلخ.

وتقدم ذكره (المُنْتَسِجِ) أي: المؤتلف، وفي إثبات البساط للأنس استعارة مكنية، وذكر الإنتاج تخيل، وإنما قدره بالمؤتلف؛ لأنه ربما شيب بمقابلة أو ضده فلا يكون مؤتلفًا من الأنس وحده إذا مازجه غيره، ولما كان الوصل أعلى ما يتمنى كان ضده أشد ما به الصب يعني وبعض من يعذب به اختيارًا ويمنح الصبر فلا ينزعج اضطرارًا.

ومنهم: من يعدم ذلك فلا يستطيع الصبر عما هنالك، وصاحب القلب الأول عليه المعول؛ فلذا قال في وصف قلب لا ينقلب، ولا يتحول ويقلب.

وَبِقَلْبٍ فِي بَلْوَاكَ غَدَا وَحَيَاتِكَ لَيْسَ بِمُنْزَعِجِ

(وَبِقَلْبٍ) أي: وبسر قلب، وقد مضى على معناء الكلام (فِي بَلْوَاكَ) أي: في

اختبارك وابتلاءك.

قال الشيخ خير الدين في «تهذيب الصحاح»: بلوته بلوًا جربته واختبرته، يقال: بلاه الله بلاء، وأبلى حسنًا، والبلاء الاختبار يكون بالخير والشر، والبلوة بالكسر، والبلية والبلوى والبلاء واحد، والجمع: بلايا صرفوا فعائل إلى فعالى كما ذكرنا في أدوات، انتهى.

قال الشعراني -رضي الله تعالى عنه- في كتابه «الجواهر والدرر»: سألت شيخنا -رضي الله تعالى عنه- عن قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: 31] ونحوها من الآيات فقال رضي الله عنه: هذا ورد من الحق تعالى على سبيل التنزل لعقولنا فتنزل لنا، ولعقولنا منزلة من يستفيد بالاختبار أمرًا كان غامضًا عليه، وهو سبحانه وتعالى العالم بما يكون من عباده قبل كونهم؛ أي: ولنبلونكم حتى يظهر لكم عملكم الكائن في أعيانكم، وذلك هو عين علمنا السابق في ظهور أعيانكم؛ فللعلم الإلهي تعلقان: تعلق بالمعدوم وهو معدوم، وتعلق به وهو موجود على حال مخصوص.

قال: وسألته مرة أخرى عن هذه الآية؛ فقال: معنى قوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: ما ظهر منكم عند الابتلاء بالتكلف ما يكون منكم من مخالفة، أو طاعة تعلق علمي عند ذلك بحالكم تعلقًا خاصًا صوريًا غير التعلق الذي كان في علمي القديم؛ لأن ذلك التعلق الخاص لم يكن في علمي؛ بل هو مندرج فيه؛ فقلت له: قد رأيت في كلام الشيخ محيي الدين في هذه الآية ما نصه في الباب الرابع عشر وخمسمائة من الفتوحات المكية بعد كلام طويل لا تحتمله العقول.

واعلم أن العلم تابع للمعلوم ما هو المعلوم تابع للعلم، ثم قال: وهذه مسألة دقيقة من تحقق بمعرفتها لا يمكنه إنكارها، انتهى.

فقال: هذا كلام غوره بعيد، وأحسن الأجوبة ما قدمناه والله أعلم، انتهى.

(غدًا) أي: صار، قال البوصيري ﷺ:

وغَــدَا كــلُّ بــيتٍ نــارٍ وفــيهِ   كُــرْبَةٌ مِــنْ خُمُــودِها وَبــلاءُ

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى: أي: صار، ثم قال: وهي للحال، وفيه تأييد لما ذهب إليه الجمهور.

ومنهم: ابن مالك أن المنصوب بعد (غدا) حال؛ إذ لا يوجد إلا نكرة، وخالفهم

الزمخشري، وأبو البقاء، والجزولي، وابن عصفور؛ فجعلوه خبرًا سواء كانت بمعنى صار، أو بمعنى وقع في وقت الغد، وجعلوا من ذلك أغد عالمًا، وحديث تغدو خماصًا وغد أزيد هنا، انتهى.

(وَحَيَاتِك) أي: وسر الحياة القائمة بذلك، قال بعضهم: وهي صفة أزلية تقتضي صحة العلم، قيل: وبهذا فسرها جمهور أهل السنة والمعتزلة؛ إذ لو لم يكن صفة تقتضي الصحة؛ لكان اختصاصه تعالى بهذه الصحة ترجيحًا بلا مرجح، ونقض إجمالاً بأنه لو كان صحيحًا لزم أن يكون اختصاص ذاته بهذه الصفة لصفة أخرى، والإلزام الترجيح بلا مزيح فيلزم التسلسل، وأجيب: بأن ذاته تعالى كافية في هذا التخصيص والاقتضاء.

قلت: وبهذا يناقش في الملازمة من أصلها، وذهب الحكماء وأبو الحسن البصري إلى أن حياته تعالى عين اتصافه بالعلم والقدرة، فليس هناك إلا الذات المستلزمة للعلم والقدرة والإرادة وغيرها؛ إذ لا يتصور قيامها بغير حي، انتهى.

(لَيْسَ): من الأفعال التي ترفع الاسم وتنصب الخبر، ووزنها: فعل؛ لعرج، ثم خففت ولزم التخفيف وهي نافية وفعلها ماض، وقد يستثنى بها تقول: جاء القوم ليس إياي، وليس إلا أنا، والمضمر المنفصل هنا أحسن (بِمُنْزَعِجٍ) الانزعاج القلق، وجملة ليس بمنزعج خبر لغد أعلى الوجهين، وهما كون غدا بمعنى صار، وكونها بمعنى وقع وقت الغد، وذلك مذهب الزمخشري ومن معه، انتهى.

ومنشأ عدم الانزعاج معرفة المبلي، قال سيدي رسلان -قدس الله سره: من تلذذ بالبلاء وصبر عليه فهو موجود، ومن تلذذ بالنعماء فهو معها موجود؛ فإذا أفناه ذهب التلذذ بالبلاء وبالنعم وبقي التلذذ بالمبلي وبالمنعم. وفي «محاسن المجالس» قيل: في قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83] كان في كل جارحة من جسده حصة من بلاء، وكان قد أنس بذلك البلاء وحصل له التلذذ به؛ كالتذاذ الأجانب بالنعماء، فلما كان في بعض الأيام سقطت دودة من مكانها فقد أثرها في ذلك المكان؛ فقال ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ فقد ما أنعمت به عليَّ من لباس أنبيائك وأولياتك وأهلتني له وهو البلاء، فإن الحق سبحانه ينعم بالبلاء ويبتلي بالنعماء، وقديمًا قيل: فهل سمعتم بصب سقيم طرف تسليم منعم بعذاب معذب بنعيم؟

وقال قايلهم أيضًا: ألفت الضعفاء حتى تطاول مكثه؛ فلو زال من جسمي بكتني الجوارح.

وقيل: إن رابعة العدوية -رضي الله تعالى عنها- كانت مجتازة مع نفر من أصحابها لبعض حاجاتها، فضرب رأسها ركن جدار فرضه، وجرى الدم على وجهها ويديها، وهي لا تلتفت إلى ذلك، ولا اكترثت به، فقال لها بعض أصحابها: أما تحسين ما جرى عليك، وهذا الدم قد خضب وجهك وثوبك، فالتفتت كالمستطرقة لذلك والمستيقظة؛ ثم أقبلت عليهم من سنة غفلتها، وقالت: يا إخواني التذاذي بموافقة مراده فيما جرى أشغلني عن الإحساس بما ترون من شاهد الحال، انتهى.

وأنشد الجيلي -قدس الله سره:

فكـل الـذي يقـضيه في رضـاكم مرامي وفـوق القـصد مـا أنـت صـانع
تلـذ الآلام؛ إذ أنـت مـسقمي وإن تمتحنـي فهـو عـندي صـنائع

وأنشد ابن الفارض المقدام -قدس الله تعالى سره:

وكُـلُّ أذىً فِي الحُـبِّ مِـنكِ إذا بَـدا جَعَلـتُ لـهُ شُـكرِي مكـانَ شَـكِيَّتِي
وَمـا حـلَّ بِي مـن مِحـنَةٍ فَهـوَ مِـنحَةٌ وقـد سَلِمَت مـن حَـلِّ عَقـدٍ عَزِيمَتـي
نَعَـم وَتَـباريحُ الـصَّبابَةِ إن عَـدَت عَـلَيَّ مِـنَ الـنَّعماءِ في الحـبِّ عُـدَّتِ
شِـفائِيَ أَشـفى بل قَضى الوَجدُ أَن قَضى وبَـردُ غلـيلي واجِـدٌ حَـرَّ غُلَّتـي

وأي: انزعاج من بلوى فعل الحبيب لديه حلوى؛ لاسيما إذا كان ممن كشف له الغطاء، وشاهد منع الراحة في حقه عين العطاء، وعاين فيه حيث يقيه ويبقيه، ومع التحقق بالرضا فيما جرى به القضاء؛ فينبغي السؤال إذا اقتضى الحال ذلك، فإن العبد ضعيف بالذات، ومقاومة القهر الإلهي لا تكون إلا من نقص نبأ معرفتها، وهي كلما ارتفع العبد في مقام العبودية زاد ضعفه وألمه البرغوث؛ إذ به يلوث، فالكامل يدور مع الحور كيفما دار؟

فإن اقتضى الوقت تفويضًا فوض، أو عابه عرض قبل علامة كون البلاء عقوبة أن

يصحبه السخط والضجر، وعلامة كونه تمحيصًا للذنوب وجود الصبر وعدم الشكوى، وعلامة كونه رفع درجات وجود الرضا والتلذذ به حتى يرتفع بإرادة الله تعالى، والبلوى خلوة مع المحبوب لا يصبر عليها إلا ذو جلوة موهوب، فإن صاحبها ينقطع رجاؤه من الخلق، ويحسن التجاؤه إلى الحق، ويعظم افتقاره إليه وانكساره لديه، وهو عند المنكسرة قلوبهم من أجله الذين هم أحق بالتقريب من القريب؛ لأنهم من أهله، ومن تقرب إلى الحق بالتوجه إليه تقرب الحق منه، وأقبل بلطف عليه؛ فتتقمع النفس بواردات البلاء، وتخضع وتنعزل عن تصرفها، وفي وادي المقالة تدفع فيقوم هناك عروس الروح.

إذ يتجلى عليه السبوح، وتحصل في خلوة المواصلة، ويطرب القلب بمن واصله؛ فأين الانزعاج عند صاحب هذا الخراج المورث للابتهاج والابتهاج؟

ولما كان الصبر على البلاء خلوة العاشق، والليل الطويل الذيل خلوة الناشق الذي له سلام الغرام راشق، ولما اختطفته جواذب الأنعام كما يخطف العصفور الباشق ناسب أن يتوصل بتجلي الليل؛ لأن في خلوته إمدادًا وافر الكيل؛ فلذا قال -حماه الله من الميل:

بِتَجَلِّي اللَّيْلِ وَعَالِمِهِ وَظَلَامِ الْكَوْنِ كَمَا الدُّجِ

قال الشارح: (بِتَجَلِّي اللَّيْلِ) أي: وأسألك بسر على الليل الخاص والعام بالخواص والعوام، وتقدمت الإشارة إليه فراجعه أما رمت الوقوف عليه والليل.

قال في «تهذيب الصحاح»: الليل والليلة مثل: التمر والتمرة، وقد يجمع على ليال زيد فيها الياء على غير قياس نظيره أهل وأهال، وقيل: كان الأهل فيه ليلاه فحذفت؛ إذ تصغيره لييله وليل لايل، قيل: شعر وشاعر، وليل الليل وليلة ليلاء شديدة الظلمة، قال الفرزدق:

لِيَبْكِ ابْنَ لَيلى كُلُّ سارٍ لِنائِلٍ عَلى عُرضِ لَيلٍ مُدلَهِمِّ الغَياطِلِ

الكسائي: عاملته مياثلة؛ كما تقول: مياومه، انتهى.

(وَعَالِمِهِ) أي: خلقهم الذي خصهم الله بتعمير أوقاته وتنوير أركانه وجهاته، فإن الله تعالى كما جعل النهار أبطالاً يتلقون فيه الموارد ويردون المشارد، جعل الليل رجالاً يأتون ركبانًا ورجالاً يتلقى أحدهم ويلقي ويرقي ويبقى ويبقي، أو المراد بعالمه: ما حواه باطن فلكه من عباد ركع سجد، وأرواح مجردة عبد وهو كما في الحديث: «خلو من الله

عظيم»[1]، وفيه إشعار أنه أفضل من النهار كنافلته، وقيل: النهار؛ لأن غالب الفرائض تقع فيه، وعنه ﷺ: «**الليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغًا**»[2]، والبلاغ: ما يبلغ ويوصل إلى المطلوب.

قال الشعراني -رضي الله تعالى عنه- في «الجواهر والدرر»: قلت لشيخنا -رضي الله تعالى عنه-: رأيت في كلام بعضهم أن الليل ذكر والنهار أنثى هل ذلك صحيح؟ فقال: نعم لما كان الحق سبحانه وتعالى يغشي الليل النهار توالدا فظهرت الكائنات من غشاك الزمان، فقلت له: استخراج النهار الذي هو أنثى كاستخراج حواء من آدم؟ فقال: نعم:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، كما أن ذا استخراج الليل الذي هو ذكر كاستخراج عيسى عليه السلام من مريم، وهنا أسرار لا تذكر إلا مشافهة، فإن خاطب الحق تعالى أبناء الليل قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [الحديد:6]، وإذا خاطب أبناء النهار قال: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد:6]، فهو معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس:40]، فنزل ذلك تجدهما سوى بهذين المعنيين، والله عليٌّ حكيم، انتهى.

قلت: وهذه العبارة مع شرحها المسطر في كتاب «العبادلة» للشيخ الأكبر فأول فيه المقصود، والإشارة من الدار الآخرة من كونها آخرة تحول النشأة فيها، فيرجع الظاهر باطنًا والباطن ظاهرًا يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، ويحي الأرض بعد موتها وإليه النشور؛ فالنشور حياة كلية كشفًا وحقيقة، انتهى.

وكما أقام للنهار إبطالا يسقون من طال عنقه؛ لشرب أقداح انتقال من حال إلى حال، ومن سر عال لسر عال فكذلك أوجد المنقال إبطال تصحيح، وإبطال حجج بطال يرجوا بمطال يلحق درهمه إبطال لا يدرون للمدد المطال قصر الليل أم طال، وإنما سمي البطل بطلاً؛ لأن عنده تبطل شجاعة غيره.

وأنشد بعض من تاه في سيره:

فالليل إن وصلت كالليل أن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القصر

(1) لم أقف عليه. (2) رواه الديلمي في الفردوس (3/ 469).

قال الأكبري: ما أحسن هذا في قوله فلو قال: مثل قولي شغلي بها وصلت ليلاً، وأن هجرت فما أبالي أطال الليل أم قصراه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى:2]؛ أي: سكن واستوت ظلمته، ومنه بحر ساج وطرف ساج، فإذا قال: عاطفًا (وَظَلَامِ الْكَوْنِ كَيْمَا السُّبُجِ) فما زائدة، والسبج الخرز الأسود وهو فارسي معرب؛ أي: والحال أن ظلام الكون كما السبج في اشتداد سواده، أو وأسألك بظلام الكون الكائن كالسبج، قال الشيخ داود الأنطاكي في «التذكرة»: سبج حجر جبلي يكون عن ردىء الزئبق، أو الكبريت الكثير وطبخا بفرط الحر وتجاوز النضج ولم يعرف أولاً بغير الهند، ثم ظهر سنة خمس وسبعمائة ببعض جبال الشام منه بعد رأيناه جيدًا وأجود السبج الصقيل البراق الخفيف وهو بارد يابس في الثانية إذا شرب منع الخفقان وفتح السدد وفتت الحصى، وأن سحق بعد الحرق والغسل واكتحل به جلاء العين من الغشاوة واحد البصر، ومن خواصه: أن جملة بدفع العين، وأن إدامة النظر إليه تقوي البصر ويمنع نزول الماء، وإذا كتب عليه بسطور دقيقة وأدام صاحب اللوقة النظر إليها رئت من يومها، ولم يختص بسورة لم يكن وهو يضر الطحال ويصلحه ما التتن ولا بدله من إقفاله، انتهى.

ولما توسل بتجلي الليل الرافع كل نازل، والصافع قفاهم بالفؤاد نازل الساتر بصاحبه المنازل سير بازل مطلق غير مقيد مجد غير منازل، وكان الليل موطن ما لاح فيه لاح، ولا عازل عزل لغزل اللوم بمغازل ناسب أن يتوسل بكل رفيع من الرفيع غير نازل.

فقال جعله الله لعجيب غريب الأسرار ينازل مجانبًا لأهل الحور في كل طور عازل:

بِمَنَازِلِ أَفْلَاكٍ وَكَذَا بِمَطَالِعِهَا ثُمَّ الْبُرُجِ

قال الشارح: (بِمَنَازِلِ) جمع وهو المحل (أَفْلَاكٍ) جمع فلك، قال في «القاموس»: الفلك محركة مدار النجوم جمعه: أفلاك وفُلُوك بضمتين، انتهى.

وفي «التعريفات» للسيد الشريف: الفلك جسم كري بسيط به سطحات ظاهري وباطني وهما متباينان مركزهما واحد، وفي «رسالة الحدود» لابن سينا: هو جسم بسيط كري غير قابل الملكوت، والفساد متحرك بالطبع عن الوسيط مشتمل عليه، انتهى.

وقيل: إنه من موج مكفوف نقله في شرح «الدلائل»: والأفلاك تسعة: السموات السبع، والكرسي، والعرش غير أن هذه الأجساد والأفلاك أرواحها في دائرة فيها؛

كالجسد ثابت والروح دائرة وهذه هي الأفلاك الكلية، وثم أفلاك جزئية؛ فإن لكل فلك صورة وفلكًا يدور به، فعدد الأفلاك بعدد الكواكب، والسموات مسكن الملائكة، والأفلاك كالطرق فيها وهي والسموات متماسة الأجرام؛ لكنها شفافة نورانية لا تحجب أنوار الكواكب.

قال الأكبري ذو العرفان: ولذلك لما كان أهل السموات أرضيًا عنصريًا زالت بزوالها في الآخرة، وبقيت الأفلاك العلوية في أوجه دائرة من غير جسم محسوس ولا جسم ملموس، ولذلك لا تظهر فيها النجوم فاه الملك يبرز بذاته على العموم؛ إذ النجم عبارة عما ظهر من الفلك فتأمل يا أخي هذا الخبر الذي شملك، فإن الأفلاك باقية ببقاء الجنان، والإنسان والسموات فانية بفناء الأرض والحدثان كذا في «عنقاء مغرب» وحركتها عشيقة، وإن لم تشعر بذلك الحكم عليه، وفي «الإشارات» له بلغه الله أمله: الإنسان قطب الفلك وعمدة، ألا إذا نزل، وانتقل من الدنيا خربت، وزالت الجبال، وانكدرت النجوم.

قلت: ومعنى هذه العبارة بالصريح دون الإشارة ذكرها العارف الموهوب أبو طالب المكي في «قوت القلوب» وملخصها: أن الأفلاك تدور بأنفاس العارفين، فإذا أراد الحق تعالى فناء هذا العالم قبضهم إليه فيخرب ويزول، وتنتقل العمارة للدار الآخرة لانتقالهم إليها، فالإنسان هو الأول بالقصد والآخر بالإيجاد، فلذا كانت الأفلاك تطلب منه الإمداد.

وقال الأكبري قدس الله سره الأنوري- في كتاب «عنقاء مغرب» واعلم أن الإنسان على ما اقتضاه الكشف، والعلم روح العالم، والعالم الجسم فهو الآن روح للعالم الدنياوي وبه بقاؤه وبه فتق أرضه وسماؤه وعالم الأخروي إلى أن ينفتح فيه الأمر الرباني هذا الروح الإنساني فهو الآن كصورة آدم قبل نفخ الروح فيه، أو الأرض قبل إشراق يلوح، فإذا أخذ هذا الشيء الإنسان من هذا العالم الدنياوي، وتهدمت أبنيته وتخربت أفنيته ونفخ في العالم الأخروي؛ فحببت به الجنة وكانت له كالدنيا سترًا وجنة، والروح المضاف إلى الحق الذي نفخ منه في عالم الخلق هي الحقيقة المحمدية القائمة بالأمدية فعلى هذا الحد هو الإنسان في الدارين وظهوره في العالمين، انتهى.

(وَكَذَا) أي: فليتوسل بالمنازل الفلكية، أتوسل إليك يا رب البرية (بِمَطَالِعِهَا) الضمير عائد على الأفلاك فقد قسم الفلكيون المطالع الفلكية إلى: فلكية وبلدية، ويصح عوده على المنازل أي: وبمطالع المنازل القمرية السائحة في الأفلاك، أو على تقدير محذوف؛ أي: بمطالع الكواكب الحاملة لها الأفلاك فيكون من إطلاق المحل وإرادة الحال وهي جمع مطلع بفتح الميم وكسرها موضع طلوعها، (ثَمَّ الْبُرُجِ) محركة على أن أصلها: بروج، وحذفت الواو اكتفاءً بالضمة كما في قوله الشاعر:

فلـــو أن الأطـــباء كـــان حـــولي وكـــان مـــع الأطـــباء الأســـاده

الأصل: كانوا، وكقول الآخر:

إن ابـــن لحـــوص معـــروف فـــبلغه في ســـاعديه إذا رام العـــلا قـــصر

الأصل بلغوه، ويحتمل أن يكون البرج في البيت مفرد ضمت راؤه الإتباع، والأصل: سكونها، ويجمع على أبراج وبروج وهي اثني عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والحوت، وقد تكلم الشيخ الأكبر -قدس الله سره الأزهر- على ما لكل واحد من الصورة والطبع، وما له من الحكم، وما بيده من مفتاح في رسالة «عقلة المستوفز» في باب فلك البروج منها.

قال القاضي البيضاوي -قدس الله روحه: وسميت به؛ أي: بالبروج وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب السيارة كالمنازل؛ لسكانها، واشتقاقها من التبرج لظهورها، انتهى.

قال الشيخ في آخر الباب: فمن الأسد والقوس والحمل وجدت كرة الأثير، وبالجوزاء والميزان والدلو وجدت كرة الهوى، وبالسرطان والعقرب والحوت وجدت كرة الماء، وبالثور والسنبلة والجدي وجدت كرة الأرض، ومن هذا الفلك إلى المركز حكم الطبيعة بالتغيير والاستحالات والكون والفساد عند قبول المستور لذلك الاستعداد الذي خلقه الله فيه، وبوجود هذا الفلك حدثت الأيام دون الليل والنهار، فدار هذا الفلك بتقدير العزيز العليم عن أحكام تأثيره فيه بما وصفه له من الحكمة البالغة، وهو الفاعل تعالى لكل شيء، وهذه أسباب نصيبها الله تعالى لما سبق في علمه وليبتلي به عباده، فمن أضاف الفعل إليها؛ فهو مؤمن بها كافر بالله، ومن أضافها لله؛ فهو مؤمن بالله كافر بها، انتهى.

وللكواكب السيارة طلوع في الأفلاك وبقاء في البروج؛ فالقمر يطلع في الفلك الأول ويبقى في كل برج يومين وثلث فيمر كل الأفلاك في شهر، وعطارد يطلع في الفلك الثاني ويبقى في كل برج خمسة عشر يومًا فيقطع الأفلاك في ستة أشهر، والزهرة تطلع في الثالث وتبقى في كل برج خمسة وعشرين يومًا فتمر الأفلاك في عشرة أشهر، والشمس تطلع في الرابع وتبقى في كل برج فتعدى الأفلاك في سنة، والمريخ يطلع في الخامس ويبقى في كل برج خمسين يومًا فيمر كل الأفلاك في عشرين شهرًا، والمشتري يطلع في السادس ويبقى في كل برج ثلاثة عشر شهرًا فيمر الأفلاك في ثلاثة عشر سنة، وزحل يطلع في السابع فيبقى في كل برج سنتين ونصف فيقطع جميع الأفلاك في ثلاثين سنة، انتهى.

ملخصًا من «عنقاء مغرب»، والشيخ رحمه الله تعالى لما ذكر منازل الأفلاك ومطالعها والروح الحاملة للكواكب والنجوم الثواقب، وإنما سميت بالنجوم؛ لأنها تنجم أي: تطلع من مطالعها في أفلاكها، وقد شبه رسول الله ﷺ أصحابه بها فقال: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[1] رواه الحكيم الترمذي في حديث، وعنه ﷺ: «**النجوم آمنة السماء؛ فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[2] رواه أحمد ومسلم عن أبي موسى الأشعري ناسب أن يلحق به الآل، والصحب أهل الفتح والوهب فلذا قال خفف الله عنه الأثقال:

بِالآلِ بِصَحْبٍ مَنْ بِهِمُ كُلُّ الخَيْرَاتِ إِلَيْنَا تَجِي

قال الشارح: (**بِالآلِ بِصَحْبٍ**) تقضي الكلام عليهما في الخطبة (**مَنْ**) اسم موصول بمعنى الذي (**بِهِمُ**) أي: بسببهم، فإنهم ﷺ نقلوا لنا الأخبار، وأهدوا لنا بدائع الآثار، وحرضونا بأقوالهم وأفعالهم على الاقتفاء، وراضونا على التخلق بأخلاق المصطفى، وصرحوا ولوحوا بعلمي الظاهر والباطن، فنلنا بهم الفوز في جميع المواطن (**كُلُّ الخَيْرَاتِ**) جمع خير قيل: هو ما بيان ما ينتفع به في نفس الأمر وهو اسم تقول منه: خرت يا رجل أي: جاءك الخير، وخار الله لك أي: أعطاك الخير، انتهى.

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 432).

(2) رواه مسلم (4/ 1961).

(إلينا) معاشر الموحدين (تجي) بالقصر والوقف للوزن، أي: تأتي؛ إذ كل خير ما وصل إلينا إلا بواسطتهم من عامتهم وخاصتهم فقد أوضحوا السبيل، ومهدوا البلاد بالرمح الطويل والسيف الصقيل، وكان بقاؤهم بين ظهرانينا نعمة، وموت أحدهم في بلدة على أهلها رحمة لحديث: «**من مات من أصحابي بأرض، فهو شفيع لأهل تلك الأرض**»[1] وفي رواية: «**لا يموت أحد من أصحابي ببلد من البلدان إلا كان لهم نورًا، وبعثه الله يوم القيامة سيد أهل ذلك البلد**»[2] فجاءت الخيرات الدنيوية والأخروية منهم إلينا في حياتهم وبعد مماتهم، وتيسرت بهم الأمور ورزقوا الخير بهم المكثور، وارتفعت بهم الغواشي والستور.

وكان المؤلف -سامحه الغفور- لما رأى ما عليه الآل والأصحاب من الأخلاق الرفيعة الأطناب، والاقتفاء والاتباع لسيد الأحباب، وسند أهل الاقتراب، وعاين ما هو منطو عليه من عيوب امتلأ بها الإهاب، وذنوب فاض بها ذنوب الحسم من غير حساب، وعلم بعد ذلك أنه معاتب بها مسؤول عنها يوم الحساب؛ فانكسر بذلك قلبه، وطاش لبه، وغاب سأل التيسير؛ ليسهل ما صعب عليه نيله وتنفتح الأبواب، فقال -سامحه الوهاب:

يَسِّرْ وَاجْبُرْ كَسْرِي بِرَضًى ... لِأَكُونَ بِوَصْلِكَ مُبْتَهِجِ

قال الشارح: يَسِّرْ أي: سهل وهون ما تعسر، يا تواب على عبدك الأواب، وهذا وما بعده جواب التوسلات السابقة، والأقسام العاقبة، والتيسير ضد التعسير، كما أن اليسر نقيض العسر، واليسر مثل عسر، والميسور ضد المعسور، وقد يسر الله اليسرى أي: وفقه لها، كذا في «الصحاح»، وفي الحديث: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[3] وهو سبحانه وتعالى يحب من يسر على عباده، ويكره من عسر؛ سيما على أهل وداده ففي الحديث: «**من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة**»[4] والحق بكل وصف كمالي أحق، ومن باب سبق الرحمة لمن صحا أن غلب اليسر على العسر في سورة الضحى، وجاء

(1) رواه الديلمي في الفردوس (3/ 506).

(2) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (2/ 196).

(3) رواه البخاري (1/ 38)، ومسلم (3/ 1359).

(4) رواه ابن حبان في صحيحه (11/ 425).

الحديث بذلك مصرحًا فقال: «لن يغلب عسر ميسرين»[1].

قال القاضي -رحمه الله تعالى: فإن العسر معرف فلا يتعدد؛ سواء كان للعهد، أو للجنس، ويسرًا منكرًا فيحتمل أن يراد بالثاني فرد يغاير ما أريد بالأول، انتهى.

(وَاجْبُرْ) الجبر خلاف الكسر، ويكون بمعنى: الإصلاح، والقهر، والتعاظم، والإغناء، والمراد هنا الأول (كَسْرِي) أي: المكسور في خاطري بسبب سحاب عصيان ما طوي، فإن المعاصي تزيل النعم وتطيل قصير النقم، فتوجب كسرًا وتنجب عسرًا، (رِضًى) أي: بسبب رضا تحفني بأنواره وتلحقني بأسراره، أو يملأ بشبه رضا يمنحني به ما سلف ومضى، فإنك إذا رضيت عني هان العسير وبان التعني ودان المسير.

قال الغارق الكسير:

لئنْ كنتَ عنّي يا مُنى النفسِ راضياً فكلُّ الذي ألقاهُ في الحبِّ طيّبُ

وحقيقته عدم السخط والضجر، والإباء بالمقضي من حيث قضاءه، وهل هو مكتسب أو حال يحل في القلب؟ فأهل خراسان على الأول، والعراقيون على الثاني، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة:22].

وعنه ﷺ: «إن الله بحكمته جعل الروح في الرضا واليقين، وجعل الهم في الشك والسخط»[2] وفي رواية: «لا ترضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله، ولا تذمنَّ أحدًا ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرد عنك كراهية كاره، وإن الله بقسطه وعدله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك».

وعنه ﷺ: «من رضي عن الله رضي الله عنه»[3] وعبارات القوم فيه طويلة وتكفي في الإشارة هذه العبارة القليلة.

(لِأَكُونَ) أي: لأجل أن يكون (بِوَصْلِكَ) أي: قربك، وسلف: معناه (مُبْتَهِجِ) مصدر ميمي بمعنى ابتهاجي؛ أي: سروري وفرحي، وفي البيت الطباق بين الكسر والجبر.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (7/ 205).

(2) رواه البيهقي في الشعب (1/ 221) بنحوه.

(3) رواه البيهقي في الشعب (1/ 221).

ولما سأل أن يجبر كسره بالرضا ناسب أن يطلب خلقه التي من لبسها فرقه أضاء وحكمه مضى وجنود قربه ضاق بها الفضاء، فلذا قال -سامحه الله وعفا عنه بجاه نبيه المرتضى:

وَاخْلَـــعْ خِلَـــعَ الرِّضْـــوَانِ عَـــلَى صَـــبٍّ فِي حُـــبِّكَ جِـــبَ هَـــجِ

قال الشارح: (وَاخْلَعْ) يا مولاي (خِلَعَ) جمع خلعة بالكسر، وهي ما تخلع على الإنسان.

(الرِّضْوَانِ عَلَى) قال في «تهذيب الصحاح»: بالكسر والرضوان بالكسر والضم والمرضاة: بمعنى ورضيت الشيء وأرضيته فهو مرضي...إلخ، ولما كانت الخلع الإلهية لا تحصر خص بالذكر خلع الرضوان الأكبر، قال: وما رضوانه الأكبر، قال: أن الله يتجلى للخلق عامة، ويتجلى لك خاصة، فربما تكون حقيقة من حقائق خصه الله بوصله طلبت من غير شعور نيل هذا التجلي الحاصل لأصله، وقد جاء أنه أمانة على يد فقير صادق بما عنده محقق كالفجر الصادق، وأخبر أنها مرسلة من ولد سيدي عبد القادر الشيخ عبد الرزاق -قدس الله سرهما- فتوقف، ولم يدر ما الأمانة المرسلة، ولم كانت على يد المشار إليه أقبل الله رحمانيته عليه فأخبره، والدر وجه الممنوح فيض سبوحه أنها خلعة الرضوان والمرسل لها والدر المذكور في حظائر النور والإحسان، وسأله هل وصلت لذلك الفقير؟ فقال: نعم، منحه الله بره العزيز.

وفي كتاب «المناظر» للجيلي الهمام -قدس الله سره: الذاهب لا على المذاهب منظر الخلع، والمواهب في هذا المنظر تعرف مراتب الأولياء، ومنهم: من ولايته من حيث المواهب الإلهية بحكم ما يورده الوقت والحال، ومنهم: من ولايته من حيث الخلع بحكم ما يقتضيه الصفات الذاتية، وهم أخص وأعلى من أهل المواهب والمنح؛ فإن تجليات الحق على أهل المواهب سكر من شراب ممزوج، وتجليه على أهل الخلع صرف، وأهل الخلع أهل عين التسنيم، وأهل المواهب الذين يشربون من الممزوج خاصة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: 5].

فأهل المنح والمواهب لا توجد عندهم هذه الخلع، وأهل الخلع يوجد عندهم المواهب والخلع، وخلعة كل ولي كامل صفة إلهية يتلبس بها، ويكون الغالب على حاله أثر

ذلك الصفة؛ كصفة القدرة التي كانت خلعة الشيخ عبد القادر الكيلاني لغلبة ظهور أثرها عليه، وبما كانت صفة العظمة والهيبة غالبة على الشيخ أبي يزيد البسطامي، وكصفة العلم الذي كان غالبًا على أحوال سيدي الشيخ محيي الدين ابن العربي ﷺ آفة هذا المنظر صرف الوقت بجهة من جهات الحقائق دون الحيطة والجمع الذاتي، فإن صاحب المنظر الكمالي لا يغلب على حاله إلا ما اقتضاه شأن الحق في ذلك، فلا يظهر عليه صفة ولا اسم؛ بل يكون أثر الله تعالى ظاهرًا عليه في كل وقت مما يقتضيه الوقت وهؤلاء هم أهل المراتب، ولذلك كانت صفة الكمال ظاهرة على سيدنا محمد ﷺ فيما أمر ونهى، وأخبر واخترق العادات، وهدى وقطع ووصل، ولم يختص بظهور شيء دون شيء؛ بل ظهرت آثار سائر الكمالات عليه فبذلك استحق التقدم على سائر الأنبياء والأولياء، وليس على هذا المقام الكمالي المحمدي إلا أحاد الآحاد من الأقطاب والأفراد؛ أولئك أهل الحمد يحشرون مع النبي ﷺ ذلك لوائهم، ومن كان على هذا المقام على الأنبياء والأولياء، ولا يعرف ذوق ما قلناه إلا الغرباء.

وقال في «لوامع البرق الموهن» عند الكلام على حضرة الخلع والمواهب: يخلع على العبد خلعة الولاية فيتمكن من الحضرة أولاً، ثم يتمكن من العالم ثانيًا، ثم يتمكن من الكمالات الإلهية ثالثًا، ولا يزال سائرًا بسائر في تمكنه الكمالات الإلهية إلى ما لا نهاية له أزلاً وأبدًا، وكلما تمكن من كمالي إلهي خلعت عليه خلعة من خلع الكمالات المحمدية حتى يصل إلى مقام لا يرى فيه أثر المقام المحمدي؛ فيسقط ما دونه، ولا يقدر أن يستقيم عليه، فيظهر له النبي ﷺ وفي يده خلعة محمدية فيخلعها عليه فيستقر، ويتمكن من القيام عند ذلك الأثر، ثم يرى أثرًا آخر؛ فيجري له كما جرى في الأثر الأول، وهكذا أبد الآبدين، انتهى.

وكل من خلعت عليه خلع القبول وردي بأردية الوصول جاز لمن هو بحسب المقام فوقه، ومقدم عليه أن يتمثل قائمًا بين يديه، يحكى أن شخصًا رأى منامًا الشيخ أبا عبد الله ابن أبي جمرة وهو جالس على كرسي، وعليه خلعة خضراء والأنبياء والمرسلون واقفون، فأخبر به بعض ذوي الأحلام، فقال: أضغاث أحلام، ثم عرضها على أحد الأعلام أرباب الأعلام؛ فصححها وأولها أن أدلهم مع من ألبسه الخلعة، وخصه بجميل تلك الصفة كما هو الأمر في الظاهر الذي هو عنوان الباطن الباهر.

وقال القاشاني -رحمه الله تعالى: النوال كلما ينيله الحق تعالى لأهل القربى من خلع الرضا، وقد يطلق على كل خلعة يخلعها الحق تعالى على أحد عباده، وقد تخص بالأفراد، انتهى.

وقد تخرج هذه الخلعة الإلهية لبعض أهل المراتب العلية على يد فرد الزمان، ولا يرى من خرجت له ذلك؛ لأنه نشوان وربما نفى وجود فرد عصره؛ لظنه أنه هو الجالس في قصره؛ كما نقل ذلك عن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي السالك حين قال الشيخ أبو محمد أبو عبد الرحمن الطفسونجي ﷺ على الكرسي بطفسونج: أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور، أطولهم عنقًا، فقام الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الحسيني وكان ذا حالٍ فاخرٍ، ونزع دلقًا كان عليه فقال له: دعْني أصارعك، فسكت الشيخ عبد الرحمن وقال لأصحابه: ما رأيت فيه شعرة خالية من عناية الله ﷻ، وأمره أن يلبس دلقه، فقال: لا أعود فيما خرجت عنه، ثم التفت إلى جهة الحلة ونادى باسم زوجته: يا فاطمة ائتيني بما ألبسه، فسمعته وهي في الحلة، فسلمته في الطريق بما يلبسه، فقال له الشيخ عبد الرحمن: من شيخك؟ فقال: شيخي محيي الدين عبد القادر، قال: إني لم أسمع بذكر الشيخ محيي الدين عبد القادر إلا في الأرض، وإن لي أربعين سنة في درکات باب القدرة فما رأيته.

ثم قال لجماعة من أصحابه: اذهبوا إلى بغداد وقولوا للشيخ عبد القادر: يسلِّم عليك عبد الرحمن ويقول لك أن له أربعين سنة في درجات باب القدرة، فما رآك ثمَّ داخلاً ولا خارجًا، فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لجماعة من أصحابه: اذهبوا إلى الشيخ الطفسونجي، وستجدون في طريقكم أصحابه بعثهم إليَّ بكذا وكذا، وإذا لقيتموهم فردُّوهم معكم، فإذا أتيتموه فقولوا له: يسلِّم عليك عبد القادر ويقول لك: أنت في الدركات، ومن هو في الدركات لا يرى من هو في الحضرة، ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع، وأنا في المخدع أدخل وأخرج من باب السر، من حيث لا يراني، بأمارة أني أخرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي، وهي خلعة الرِّضا، وبأمارة خروج التشريف الفلاني في الليلة الفلانية لك على يدي خرج، وهو تشريف الفتح، وبأمارة أن خلع عليك في الدركات بحضرة اثني عشر ألف ولي لله تعالى خلعة الولاية، وهي فرجية خضراء طرازها سورة الإخلاص على يدي خرجت لك.

فانتهوا إلى نصف الطريق، فوجدوا أصحاب الشيخ عبد الرحمن فردُّوهم، وأتوا إليه وبلَّغوه رسالة الشيخ عبد القادر فقال: صدق الشيخ عبد القادر، سلطان الوقت، صاحب التصريف فيه. نفعنا الله به آمين. انتهى من «البهجة القادرية»[1].

قلت: ولعل هذا قبل وقوع الإذن لحضرة الشيخ ﷺ بأن يقول: قدمي هذا على رقبة كل ولي لله فاته، حال قوله طأطت له جميع أولياء عصره أعناقهم إلا رجل بأصبهان امتنع فطار رأسه، فلم يبق من يجهل مقامه؛ إذ ذاك وكذلك يحمل قوله: تعارضني رجلان في حال فضربت أعناقهما بحضرة الله تعالى؛ لأن المعارضة وقعت منهما قبل معرفتهما بأنه غوث الزمان وقطب الآوان، فإن الأكابر من الرجال أهل أدب غض لا يتخطونه بحال، وإن وقع منهم ما يشعر بمعارضته فهذه عن صدمات الأسماء الإلهية بعضها ببعض عارضه، فمن كان اسمه المنسوب إليه نسبة تامة أكبر كانت الغلبة له فافهم وتذكر.

ونقل الهمام الشيخ الأكبر ﷺ في شرح «اليوسفية» ما يقاربها مع الشيخ أيضًا صدرت من الشيخ محمد بن قائد الآواني، قال الشيخ ﷺ: وكان معربد الحضرة مسكره، فقال: مشيت على طريقي إلى الحق فلم أر فيه قدمًا لغيري إلا قدم واحد تقدمني؛ فقزت فقيل لي: هي قدم نبيك فسكن جأشي فلما قربت وضعت له منصة، فاستويت عليها وخرجت لي الخلعة الإلهية فخلعت عليَّ، فقال الشيخ عبد القادر ﷺ: مسكين ابن القائد حضرت ذلك المجلس، ومن عندي خرجت له النوالة؛ يعني: تلك الخلع، فقيل له: أين كنت في ذلك الوقت فإنه ما شاهدك؟ فقال: في المخدع، ثم ذكر صورة الخلع فعرفها ابن قائد وقال: صدق الشيخ عبد القادر، فهذا معنى قوله: إن الخلع طلعت على يدي فكان ما حصل لابن قائد من ذلك بتربية الشيخ عبد القادر ﷺ من حيث لا يشعر، فإن الولي قد يرى بهمته من التخييل أنه مفرد بنفسه وهو لا يشعر بذلك، ومسألة ابن قائد من ذلك الفضل والقدم التي رآها هي قدم الشيخ عبد القادر، فإنه الرسول إليه وهو نبيه من حيث لا يشعر؛ أي: رسول الله إليه، فإنه دله على شرع الرسول ولذلك قيل لابن قائد: إنه قدم نبيك اسكت بذلك عن عربدته، ولهذا قال الشيخ عبد القادر ﷺ: أنه في المخدع كما قال

(1) انظر: بهجة الأسرار (ص60)، وفيه (الحبة) بدل (الحُلة)، وخلاصة المفاخر للبافعي (ص222) كلاهما بتحقيقنا.

تعالى في الذين ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:9]، فليس المخدع سوى ما قيل له: في القدم إنه قدم نبيك فهذه الإضافة والتعريف عين المخدع، فإنه لما وصل وخلع عليه ما رأى صورة النبي ﷺ في تلك الحضرة فلو تقدمه لوحده بها فما رأى إلا القدم وما رأى للعين أثرًا.

وهكذا حال الشيوخ، وإنما لم ير عينًا سواه في الوصول، وما رأى القدم إلا في الطريق، فإن الأمر في نفسه كما قلنا لكل شخص من الله تجلٍ يخصه فلا يرى في حضرته غيره فينفرد بها؛ فالعالم يعلم ذلك وما لا علم له كائن، فإن ترى ذلك تشريفًا في حقه أعز انفراده بالحق، وما علم أن كل واحد بهذه المثابة فهذا مقام لا يقع فيه تفاضل، وإنما التفاضل في نفس الخلع كما أن الرسل يجمعهم مقام الرسالة لا فضل بينهم، ثم يتفاضلون فيما يرسلون به وإليه، وما يكون من الحق لهم في رسالتهم، انتهى.

(عَلَى صَبٌّ) أي: كل عاشق مشتاق مشتق من الصبابة، وهي كثرة الشوق وحرارته، أو من الوصيب: وهو الألم الذي يكون من الإعياء بدوام العمل الثقيل لذا قيل: وعنى المؤلف نفسه أولاً وبالذات وبها عوض وغيره، فقصده أن وقع ثانيًا.

وبالفرض (فِي حُبِّكَ) أي: محبتك التي ترفع قدر من قامت به فلا تنزل، وتحبك أثواب الفناء عيونها الغزالة بعد ما تول (حِبُّ) بالكسر؛ أي: محبوبي حذف منه ياء النداء.

(هَجِ) أي: ذم، هجوته هجوًا أو هجا، وأقطب الواو في المبني للمفعول؛ لتصرفها وانكسار ما قبلها، كذا في شرح «المنفرجة» للقاضي زكريا رحمه الله تعالى.

وأنشد سيدي عمر -قدس الله سره-:

فاللَّــوْمُ لــؤمٌ ولم يُمْــدَحْ بِــهِ أحَــدٌ وهــل رأيــتَ مُحِبًّا بالغــرام هُجِــي

أما عند أهله فلا، وأما عند غير نهله فنعم،وكذلك فإن المحبة مقرونة بالمحبة والبلى من عهده بلى.

وقال شيخنا المرحوم الشيخ عبد الغني قمر الدياجي وبدر التناجي، بلغه الله ما هو راجي: قد آتينا الحمى على منهاجي هل لنا عندكم به من هاجي؟ فإن العادة جرت أن العبد إذا اشتغل بمولاه حباه ذكرًا، ومنحه منه قربًا، وذكرى صار معرضًا نفسه لجراحات أسنية الورى الذين يظنون السير إلى أمام وهم سائرون إلى وراء؛ فيرمونه بألسنة حداد،

وينسبونه إلى الرياء والكذب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:14] وربما استعابوا تهتكه في الغرام، واستترابوا تهتكه في الهيام، وقلوه وجنوه، ومن بينهم بقوة.

وأنشد المجنون في القرب إليه المجنون في الحب عليه:

لَقَــد لامَنــي في حُــبِّ لَــيلى أَقــارِبي   أَبي وَابــنُ عَمّــي وَابــنُ خــالي وَخالِــيا

وتسبب الهجو والملامة عدم الشرب بهذا الجام، مع أن كل الخلق يدعون الحب التام في ذات ذي الجلال والإكرام، وهم صادقون في أصل الحب؛ إذ لا يخلو منه قلب ولكنهم متفاوتون في احتساء الكؤوس الطافحة، والطسوس الناقحة، والأكواب المروقة، والحباب المعتقة، والأنهار السائحة السابحة، والبحار الزاخرة القادحة، ومن استنفع الأواني كيف يسلم الشارب المثالث؟ ولو سلم لسلم فؤاده المعاني، وصعد سلم التداني بغير تواني.

ولما كانت نفحات الحق لا تنال بالأماني؛ بل هي فيض رحماني، ومدد رباني إحساني بسط يد مجهوده طالبًا نيلها من معبوده؛ ليحوز التهاني، فقال -سامحه الله الغفار-:

وَامْــنَحْ قَلْبِــي نَفَحَاتِــكَ يَــا   مَــوْلَايَ وَعَجِّــلْ بِالفَــرَجِ

قال الشارح: (وَامْنَحْ قَلْبِي) المقلب كل مطلب يا من لا يمل من العطاء والنوال، ويحب الملح في الدعاء والسؤال؛ أي: أعط، قال في «القاموس»: منحه كضربه أعطاه، والاسم المنحة بالكسر، انتهى.

ولما كانت المنح الإلهية غير محصورة؛ لكنها على أهلها مقصورة طلب النفحات الربانية؛ لأنها من أعظم المنح الإحسانية، ومن جملة المنح السنية الطائفة الروحانية المسماة بالمنحية المخصوصة بالعصامة البكرية الصديقية، فإن هذه الطائفة الكثيرة لها اختصاص تام بهذه الفرقة الكبيرة.

وربما أنشد مضمنًا لسان حال السالك في هذه المسالك قول ابن مالك -رحمنا الله المالك-:

بالفــضل والجــود وتقــريب صــلح   كإعــرابي بــما فاتــنا نلــنا المــنح

وهذه الطائفة المنحية من عوالم الضواحي التي نورها لنور الغزالة كاسف؛ بل

ماحي، وهذا العالم عالم أرض السمسمة جزء منه عند من فهمه وعلمه، أخبرني من عان في حدود القرب لبن الجداد والجدود أن أحد الجدود لما علم ببروز تجل مجدود خصه بهدية من هذا العالم المصمود منحة منحه بها الودود فأحب أن تكون لهذا المولود، وتلك الهدية السنية العزيزة الوجود حسناً [.........] ذات ألوية جمال، وبنود رقيقة المثال منيعة المنال رضيعة الكمال، وسيعة الدلال، وشيعة بردها تنفي الملال، وشيعة حبها لا تميل ولا تمال، ولما أخبر الصادق في المقال وبشر بها لا يقال تشوقت النفس وتشوقت؛ لكن عاقها ما حملته من أثقال، ثم لما لاحت منها بعض لوائح، وفاح من أرج القريب يسير روائح، أنشد لسان الحال بعد ما جال في ذلك المجال:

وحياة من لاحت لعين محبها   فقدت لواحي الشوق فيها لاحيه
ما حلت عن حبي لها وصبابتي   كيف السلو عن الشموس الضاحيه
ما حل غيم الغير قلب متيم   بل ذاك صاف كالسماء الصاحيه
وإذا به رسم التوهم غيرها   وأتت محاسنها لذلك واقيه
وإذا أردت تمتعًا بوجودها   كانت بكن السر سرًا واحيه
وإذا قصدت السير نحو خيامها   للأرض نار الوجد أضحت داحيه
أصفيتي هي كعبتي هي طيبتي   أقضي المرام لها خفضت جناحيه
هي بدر سوى وهي شمس حقيقتي   ونجوم ليلي بل صباح صباحيه
ووصالها هو جنتي بل جنتي   فيها مسناي وخمر فيها راحيه
ويبدوا براح الجفاء أهل الخفاء   والقرب منها منتهى أفراحيه
والقلب قد نواحيه هوى   فشجي حمام الأيك حسن نواحيه
مسك الختام ولبسة الخيط التي   حصل التهام بها دواء جراحيه
فأقرأ من لوم المحب فإنه   أمسي بناحية وأنت بناحيه

من الصلاة مع السلام على الذي هو كل أمالي غدًا مناحيه

والآل والأصحاب أعلام الهدى ما غيبت بالحب روح صاحيه

وأخبر المخبر بما هو الأمر عليه، والمحدث بصحيح الحديث بوصوله إليه أن من ظهرت له هذه الشموس الضاحية ولم يكن عنده استعداد كانت لوجوده ماحية، وأفشت تركيبه، والعناصر بتجليها التعدي النفع والقاصر، وكم حسبت في عالمها راق، راق له الشراب فتعلق، وكم آسرت بلفتاتها وصفاتها من حر مطلق؛ لكن إذا رمقت عبدًا عيون الرعاية، وساعدته فنون الهداية والحماية وصل إليه ولم يقف لديه؛ فتتبعته هي راقية برقية مبتهجة بلقيه، طالبة بعد أن كانت مطلوبة، خاطبة وقد كانت مخطوبة، لا يقر لها دونه قرار، ولا يمكنها عنه فرار، ومع كونها ذات أنس ما به نفور، وقرب وريدي تجلب الحبور، مدلية الستور على وجه منه النور بفور لم يأذن الغفور لها في الظهور؛ لغلبة دحور نفس صب مقهور، فإذا جاء إلا بان، وحضران الحضور برزت من الجذور، تتهادى في غلائل النور، فيتجبر برؤيتها المكسور، وتنفتح له بها أبوابه سرور، ويهون بها كل معسور أمور ودهور تجور، وتفور تجور هموم تمور.

وقلت في هذا الوارد الذي على الورد مفطور: ومن سناه يخفى البدور؛ إذ في فلكه يدور حيث دقة طبول أفواج وصول المحصور لقصور ما بها قصور وورود مبشرات من قبل شهور تعلم بقرب تهاني الحور من المحبور بصور فتور الخفاء إلى أوان الشفاء، والظهور المشكور:

أحبتنا ليست أحبتنا تقوى على فقدكم إذ وجدكم زادنا تقوى

بعادكم موت النفوس، وقربكم حياة ووصل الوصل ذا الغاية القصوى

حلا ذكركم المنقلب ما مر مرة بذلك إلا هيج الصب للنجوى

ومذ مسنا ضر النوى لم نجد دواء وما تنفع الأدواء إذا غابت الجدوى

صبرنا ولم نشكوا الغرام لأننا رأينا بحب الحب لم تفد الشكوى

وقرنا بخمر الوصل في الدهر ساعة ففيها إلى يوم اللقاء لم أزل نشوى

بروحي أفدي من سبتني بحسنها ومن صيرت قلبي ولبي لها مأوى
أشمس الضحى للجار حق وخدمة وأن فؤادي ذاك فلتكرمي المثوى
أشمس الضحى من حبك العمر ما صحي وفيك انمحى لما بك لذة البلوى
وبملامي دعتني أذوب من الضنا وإن لم توافقني فدعني ومن أهوى
فلو أن ما بي من هيام وزفرة على جهل لم يبق في النار ما يشوى
بحقك حادي القوم كرر حديثها وشنف به سمعي فما مثله حلوى
وصاحبي إن صاح بي صائح الفنا فكن نائبي واقرأ السلام على علوى
وقل حيتك بهذي التحايا بأسرها ولم ينسك أدخل في جنة المأوى
وكن بي رفيقًا يا رفيقي أنني اتخذتك لي زخراً إذا أمست الأسوى
ولا تنس ذكري عندها عليها تجد بزورة رمشي كي أرى طرفها الأحوى
فإن هي زارتني فأحيي بورودها علي وأسقي من روائحها فحوى
وربما جئتها حيث سلمت وقلت لها أهلاً وسهلاً بمن تهوى
ويا ربنا صل وسلم على الذي هدانا على ما فيه نستوجب العفوا
وآل وأصحاب كرام وتابع مدا الدهر ما فاضت بمطافا الأنوى
وما مصطفى سار ضحية لزورة خير الخلق من شرف الحزوى
وخلق أرض الضاحيات وراءه وأم لإنجاد الحقائق كي يقوى
ونال لديه المرتجي فحبي النجاة وخصص بالأعلا وشرف بالأقوى
وخاطبه في السر عند وداعه أحبتنا ليست أحبتنا تقوى

ومن جملة المنح الإلهية النفحات الربانية التي يحق لها أن بالذكر تخص؛ لأن السيد

الأعظم عليها نص فلذا قال: (نَفَحَاتِكَ) جمع نفحة، قال في تهذيب «الصحاح»: ونفحه بشيء: أعطاه، تقول: لا يزال لفلان نفحات بالمعروف، قال الشاعر:

لما أتيتك أرجو أفضل نائلكم فنفحتني نفحة طابت لها العرب

أي: النفس، انتهى.

(نفحاتك) أي: نفحات طيب قربك، ورشحات عجيب شربك، جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها لعل أن تصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدًا**»[1].

قال المناوي -رحمه الله تعالى-: أي تجليات يصيب بها من يشاء من عباده، والنفحة الدفعة من العطية فتعرضوا لها بتطهير القلب، وتزكيته عن الخبث، والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ذكره الغزالي؛ لعل أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدًا، فإنه تعالى يدر الأرزاق على عبيده شهرًا شهرًا، ثم له في خلال ذلك عطية من جوده؛ فيفتح باب الخزائن ويعطي منها ما يعم، ويستغرق جميع الأرزاق الدار فمن وافق الفتح استغنى للأبد، وتلك النفحات من باب خزائن المنن وأيهم وقت الفتح هنا؛ ليعرض في كل وقت؛ فمن داوم الطلب يوشك أن يصادف وقت الفتح فيظفر بالغنى الأكبر، ويسعد السعد الأفخر، وكم من سائل سأل فردًا مرارًا، فإذا وفق المسؤول فتح كيسه؛ لينفق لا يرده، وإن كان قد رده قيل: رواه الطبراني في «الكبير»، قيل: إنما ذكره في «الأوسط» فليحرر عن محمد بن مسلمة، انتهى.

وعنه ﷺ: «**اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات الله؛ فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، وأن يرمي بروعاتكم**»[2] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»، والبيهقي، وأبو نعيم عن أنس، والبيهقي عن أبي هريرة.

(يَا مَوْلَايَ) أي: يا ناصري على أعدائي، ومعيني على حاصري من أهوائي، ومن لم

(1) رواه الطبراني في الكبير (19/ 233).

(2) رواه البيهقي في الشعب (2/ 42).

يكلني لمعاصري من أحبائي؛ بل تول أموري قبل خلقي عناصري فضلاً عن أعضائي، ومن كنت مولاه فلا يرهب من مخلوق ولا يخشاه، ومن خاف سواك تاه؛ بل هو عبد بها.

(وَعَجِّلْ) أي: أسرع لي (بِالفَرَجِ) أي: بإذهاب الغم والحرج، فإنه إذا التصق بالمهج وأوقفها في وهج فجرى الدمع كاللجج تحتم طلب تعجيل الفرج؛ خوفًا من السقوط في القنوط، والهبوط لأسفل الدرج، وفي الحديث: «**سلوا الله من فضله، فإنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة توقع الفرج**»[1] وفي رواية: «**أفضل العبادة انتظار الفرج**»[2].

وعنه ﷺ: «**إن أحب عباد الله الذين يسألون الفرج**».

وفي الحديث: «**وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا**»[3].

ومما نسب للإمام المطلبي الشافعي -جعله الله في القيامة شافع:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى ذَرعاً وَعِندَ اللهِ مِنهَا مَخرَجُ
ضَاقَت فَلَمَّا استَحكَمَت حَلَقَاتُهَا فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّهَا لا تُفرَجُ

وأنشد بعض من أرشد:

توقع صنع ربك سوف يأتي لما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس إذا ما ناب فكم في الغيب عجب عجيب

ولما سأل الفرج بنيل الآمال المطلوبة، وتحصيل الأحوال المرغوبة الموهوبة تذكر خطاياه وذنوبه، وعاين مساوئه وعيوبه خشي أن تعوق عليه الإجابة، واعترته الذلة والحسرة مع الكآبة، فلذا صاح وجميعه مسبي:

وَاحَسْرَةَ قَلْبِي إِنْ لَمْ تَمْـ ـحُ خَطَايَا الذَّنْبِ مِنَ الدَّرَجِ

قال الشارح: (**وَاحَسْرَةَ قَلْبِي**) وأصرف الندبة تقول: وزيداه، ويقال أيضًا: يا زيد أكمل في الياء، فإنك تقول: يا عمراه، والقصد من الندبة؛ الإعلام لعظم المنصاب، ولذا لا يندب إلا الاسم العلم، أو المضاف إضافة توضح المندوب؛ وهي هنا تأسف وتلهف على

(1) رواه البيهقي في الشعب (7/ 204). (2) رواه الترمذي في سننه (5/ 565).

(3) رواه الحاكم في المستدرك (3/ 624)، وأحمد في مسنده (1/ 307).

فوات عدم محو الخطايا، ولا تدخل إلا على المندوب المتوجع لفقده أو لوجوده، ويؤتى بها للنداء حقيقة؛ لكن ما بعدها ينزل منزلة المخاطب حكمًا؛ أي: يندب وجوده، فلذا يخاطب بالنداء فيكون حسرة منادى؛ لأنه في حكم من يطلب إقباله، والحسرة كما في تهذيب «الصحاح»: التلهف على الشيء، تقول: منه حسره على الشيء، أو حسره فهو حسيرًا، انتهى.

(إِنْ) بكسر الهمزة شرطية، **(لَمْ)** حرف نفي وجزم، **(تَمْحُ)** ضد تثبت، **(خَطَايَا)** جمع خطيئة؛ لأن فعيلة تجمع على فعال؛ كصبية وصبايا وخبية وخبايا وهو قياس مطرد، قال في «القاموس»: الخطيئة هي الذنب، أو ما تعمد منه؛ كالخط والخطأ، جمعه خطايا وخطاياي، انتهى.

(الذَّنْبِ) الألف واللام للجنس أو للاستغراق، وإضافة الخطايا له بيانية كما في قولهم: خاتم حديد، وسعيد كرز، وشجر الأراك فلا يلزم من ذكره إضافة الشيء على نفسه، ولا إلى مبانيه من الدرج، قال في «القاموس»: بالفتح الذي يكتب فيه ويسكن، انتهى.

(مِنَ الدَّرَجِ) والمراد به هنا: صحيفة الملائكة الكرام، وقد يمحو الله الذنوب إذا تاب العبد من مخيلته، ويقسم أنه ما فعل شيئًا من الآثام، وفي الحديث: «**إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض؛ حتى يلقى الله، وليس عليه شاهد من الله بذنب**»[1] رواه ابن عساكر عن أنس، وإذا محي الله الذنب وستره في الدنيا ستره في الآخرة لحديث: «**ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره في الآخرة**»[2] وفي رواية: «**ما ستر الله ﷻ على عبد في الدنيا؛ فيعيره بها يوم القيامة**»[3].

وعنه ﷺ: «**عفو الله أوسع من ذنوبك، قال: لرجل، قال: وا ذنوباه**»[4] رواه أبو نعيم، وغيره لا يستعظم الكبائر في العفو إلا ذو لمم، فإنها دائرة الغفران الإلهي؛ كاللمم.

ثم لما تلهف وتحسر؛ خوفًا من ذنوبه التي عن إحاطتها الفكر استحسر أن تثبت فلا تمحى ولا تغفر، فلهذا صاح والقلب يتفطر:

---

(1) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (4/ 48). (2) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (2/ 550).

(3) ذكره المتقي الهندي في الكنز (4/ 231). (4) رواه الحكيم في النوادر (1/ 217)..

وَاغْفِـــرْ يَـــا رَبِّ لِـــنَاظِمِهَا وَلِـــمُ رَقِّـــي أَعْـــلَى الـــدَّرَجِ

قال الشارح: (وَاغْفِرْ يَا رَبِّ) أي: يا سيدي ومالكي والمربي لي في سائر الأطوار، فإنك الغافر والغفور والغفار مغفرة تمحو بها قبيح الأوزار، جاء في الحديث عن السيد المختار «**مكتوب حول قبل أن يخلق الدنيا بأربعة آلاف عام** ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:82]»[1] رواه الديلمي عن الإمام علي ﷺ، والغفر: هو الستر، والمراد به هنا: ستر الخطيئة، وسترها: محوها وتكفيرها، والمغفرة، كذلك، قال السيد في «تعريفاته»: المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر فمن هو تحت قدرته، حتى أن العبد إذا ستر بحب سيده مخافة عقابه لا يقال: غفر له، انتهى.

(لِنَاظِمِهَا) أي: ناظم عقد هذا القصيد القائم حال تأليفها بالوصيد، يستريح من شوم القبيح، ففي الحديث «**إنما استراح من غفر له**»[2] قاله ﷺ لبلال لما قال: ماتت فلانة واستراحت، فغضب وذكره؛ ليريح الملائكة الكرام من كتابة الآثام، فإنك إذا غفرت ذنوبه وإجرامه حتى لم يبق لها وجود الذي تكتبه الحفظة الأمنة الشهود، والغفر قد يكون عن المعاصي فلا يرى المعتني به أو عنها فلا يراها؛ فيقع فيها فيرحم بحجبه، أو يكون لمعاصي أهل البيت صورية لطيفة لا حقيقة كثيفة، فلا ترقم في ديوان، ولا تسطر في صحيفة، وكذلك معاصي أهل بدر لحديث: «**إن الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3] رواه الحاكم عن أبي هريرة، ولفظ البخاري: «**لعل الله اطلع**» قالوا: والترقي في كلام الله ورسوله؛ للوقوع، فسبقت المغفرة لهم وجود الذنب لهم فلم يبق له أثر في عين القرب.

قال المناوي رحمه الله تعالى: فقد غفرت لكم ذنوبكم؛ أي: سترتها فلا آخذكم بها لبذلكم منهجكم في الله ونصر دينه، والمراد: إظهار العناية بهم، وإعلاء رتبتهم، والتقوية بإكرامهم، والإعلام بتشريفهم وإعظامهم لا الترخيص لهم في كل فعل؛ كما يقال للمحب: أفعل ما شئت، أو هو على ظاهره، والخطاب لقوم منهم على أنهم لا يقاربون

(1) ذكره المتقي الهندي في الكنز (4/ 228).

(2) رواه الطبراني في الأوسط (9/ 148).

(3) رواه البخاري (3/ 1095)، ومسلم (4/ 1941).

أهل بدر ذنبًا، وإن قاربوه لم يصروا عليه؛ بل يوفقون لتوبة نصوح، فليس فيهم تخييرهم فيما شاءوا، وإلا لما كان أكابرهم بعد ذلك أشد خوفًا وحذرًا مما كانوا قبله، وبهذا يندفع ما قيل: إن هذا من المشكل؛ لأنه إباحة مطلقة، وهو خلاف عقد الشرع، وأما الجواب بمثل أن المراد الأعمال الماضية لا المستقبلة، فكما أنه لا يلائم السياق يدفعه لفظ اعملوا، انتهى.

واعلم أن من الرجال من هم أطفال في حجر تربية الكبير يرضعهم ألبان الدلال مهدًا لهم بهذا الوصال، إذا نظر المكاشف يرى لهم من الهفوات كالجبال، ثم يقال له: حقق النظر فيراها كالسراب والخيال، فتعجب من هذا الحال، ولقد قال: صادق في المقال لفقير عليه لا يصال؛ لتكسر نصال، وتقطيع أوصال من قصر من المعارضين أو طال، أنت ولد فلانة، وقال: بل رجل رجاله مجال، فقال: أما ترضى أن تكون بمنزلة الولد المختال في برد إجلال لا يدري اليمين من الشمال، يضحك ويلعب لا حرج عليه بين الخلال، ومهما فعل مغفور له لا يراه إلا في كفة اليمين دون الشمال، فقال: رضيت والحمد لله على كل حال.

(وَلَهُ) الضمير للناظم، (رَقِّي) أي: ارفع وانهض به درجة درجة إلى أن يبلغ بحولك وطولك، (أَعْلَى) أي: منتهى (الدَّرَجِ) بالفتح جمع درجة وهي المرقاة بالفتح والكسر التي يصعد عليها، والدرجة مثال الهمزة لغة فيها، والدرجة بالفتح أيضًا واحدة الدرجات وهي الطبقات من المراتب، والمراد هنا: درج التقريب المختص بأقرب قريب، أو يراد به: درج الجنة ففي الحديث: «**أن عدد درج الجنة عدد آي القرآن، فمن دخل الجنة ممن يقرأ القرآن لم يكن فوقه أحد**»[1]، وعنه ﷺ: «**درج الجنة عدد آي القرآن بكل آية درجة، فتلك ستة آلاف ومائتا آية وستة عشر آية بين كل درجتين ما بين السماء والأرض، فينتهي به إلى أعلى عليين لها سبعون ألف ركن وهي ياقوتة تضيء مسيرة أيام ولياليَ**»[2] رواه الديلمي عن علي، أو يراد به درج الولاية الخاصة، فإنها ثلاث درجات: أولى ووسطى وأخرى على عدد درج منبره الشريف، وبين كل درجة ودرجة ألف درجة، فيكون المؤلف -سامحه الله تعالى وأنشقه أرجه- طلب الوصول إلى أقصى درجة يناها رجال الله أهل الشهود والوجود الأكبر: وهذا من الجائز الذي يمكن نيله، فسؤاله لا ضرار فيه فعليه لا ينكر.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة (6/ 120).

(2) رواه الديلمي في الفردوس (2/ 218).

وتقدم سؤال مثل هذا التشريف الماحي للدياجي عن سيدي محيي الدين ناقلاً عن سيدي أحمد بن العريف الصنهاجي، ولما علم المؤلف -رحمه الله تعالى ومنحه التأييد- أن هذا القصد يقرأ بالجماعة؛ كالورد السعيد بما تضمنه من كل متوسل فريد، وتحقق أن لا بُدّ من حضور من بالسماع يقنع ويستفيد؛ لاسيما وراد خلق الذكر من ملك وروحاني رشيد، ورجال غيب يمددون أن يستمدون من الشهيد، وأخبرت عن بعض الروحانيين ممن له في القرب مشيد يحضر عنه من يقرأ الجلجلوتية ذات الركن الشديد، فقلت له: ليس هو من خدامها فلام يحضر وما يقصد به وما يريد، فقال: إنه يحضر قهرًا عليه؛ لأن له فيها بستانًا يتنزه فيه وبه يقيه ويميد.

قلت: عسى أن يكون له في ورد السحر ذلك كي بحضوره البسط يزيد، فقال: يكون إن شاء الله تعالى ذلك بما ليس عليه مزيد فلذا دائمًا المؤلف -رحمه الله تعالى وخلصه من شيطان العتيد وهواء العنيد، فقال:

وَاسْمَعْ لِلسَّامِعِ مَا نُشِدَتْ ... قُمْ نَحْوَ حِمَاهُ وَابْتَهِجِ

قال الشارح: (وَاسْمَعْ لِلسَّامِعِ) أي: جد له بنيل المطالب وحصول المآرب، ويحتمل أن يراد بالسامع الذي سمع داعي الحق فأجاب وهو طامع، أو الذي سمع بالله فكله به مسامع، أو يراد به كل من الأمر والنهي مطيع سامع، أو كل من قام به وصف السماع من محب طرفه دامع، (مَا نُشِدَتْ) من أنشده بالكسر، والنشيد رفع الصوت؛ أي: مدة ما رفع الصوت بها.

قال قرشي أو عرشي: أو ما قرئت هذه الجملة فقط، وهي: (قُمْ نَحْوَ حِمَاهُ وَابْتَهِجِ) وهذا النوع يسمى عند أهل البديع رد العجز على الصدر؛ وهو أن يجعل الشطر الأول في القصيدة آخر شطر منها، وربما كانت في بيت من قصيدة كقول الفارض:

أيّ عَيشٍ مَرّ لي في ظِلّهِ ... أَسَفي إذ صارَ حظّي منهُ أَيْ

وقلت في هذا المقام من النظام مرتجلاً مشيرًا لحسن الختام، وأرجوه عاجلاً وآجلاً:

قم للمحي كي تصطفي ... وتعود ممن يصطفي

واسلك ميادين الوفا ... تدعى بذي الصب الوفي

واشرب بأقداح الصفا ... واطرب بأرواح الصفي

والبس لأقبيته الخفا ... يبدو لك السر الخفي

واكشف لو أن أشرفا ... عن وجه سر أشرف

وأنشد له حاد قفا ... وله إذا يعيي قف

من رام يحظى بالشفا ... يأتي إلينا يشتفي

كم ذات التقاعس قد كفا ... لازم حمانا تكتفي

من فتحنا جهلاً نفي ... من أرض عرفان أن تفي

وفتى يقابل بالجفا ... يكفيه أن صدا جفي عبد الجفا

على شفا أن يقتفي قد يشتفي ... أن يستقي جاء ما طفا

وسراج دعواه طفي ... وانشق عبيرًا عرفا

واعرف بكأس الأعرف ... ريم المحب لقد عفا

وبعفوه عنه عفا ... والطرف منه قد غفا

وبغفوه يدعي الفنا ... ويبدأ سراه رفا

فختامه مسك وفى ... صل على من يقتفي

بولاة إياه يقتفي ... وعليه سلم ما صفا

فيه الصفا ولبسه ضف ... آل وصحب ما خفى

قدم وما أخفى الخفا ... أو ما فؤاد أو جفا

مهما تدائي أو جفا ... أو قام يسأل مصطفى وباله أن يصطفي

قال المصنف:

[أَوْ مَا حَادٍ سَحَرًا يَحْدُو الشِّدَّةُ أَوْدَتْ بِالْمُهَجِ
وَصَلَاةُ اللهِ عَلَى الْهَادِي وَسَلَامٌ يُهْدَى فِي الْحُجَجِ
لِمُحَمَّدِنَا وَلأَحْمَدِنَا مَا فَاحَ أَقَاحٌ فِي الْمُرُجِ
وَعَلَى الصِّدِّيقِ خَلِيفَتِهِ وَكَذَا الْفَارُوقِ وَكُلِّ نَجِي
وَعَلَى عُثْمَانَ شَهِيدِ الدَّارِ رقَا فَسَمَا أَعْلَى الدَّرَجِ
وَأَبِي الْحَسَنَيْنِ مَعَ الأَوْلَادِ كَذَا الأَزْوَاجِ وَكُلِّ شَحِي
وَعَلَى الْمَهْدِيِّ وَعِتْرَتِهِ الْمُشْبِعِ فِي زَمَنِ الْوَأَجِ
وَعَلَى مَنْ مَهَّدَ لِلأَرْضِ ـينَ كَمَا قَدْ بَرَّحَ فِي السَّبَجِ
مَا مَالَ مُحِبٌّ نَحْوَهُمْ أَوْ سَارَ الرَّكْبُ عَلَى السُّرُجِ
أَوْ مَا دَاعٍ يَدْعُو الْمَوْلَى يَرْجُو لِلنَّصْرِ مَعَ الْفَرَجِ][1]

ثم إن التالي بعد إتمامه قراءة القصيدة:

اللَّهُم صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِدِنَا مُحَمد فِي الأَوَّلِينَ وَصَلِّ وَسَلِّم عَلَى سَيِدِنا مُحَمد فِي الآخِرِينَ وَصَلِّ وَسَلِّم عَلى سَيِدِنَا مُحمد فِي كُل وَقْت وَحِين وَصل وَسَلِّم عَلى سَيِدِنا مُحمد فِي المَلأ الأَعْلَى إِلى يَوْمِ الدِّين وَصَلِّ وَسَلِّم عَلى جَمِيع الأَنْبِيَاء وَالمُرْسَلِين وَعَلى المَلائِكة المُقَرَّبِين وَعَلى عِبَاد الله الصَّالِحِين من أَهْل السَّمَوَات وَأَهْل الأَرْضِين وَرَضِي اللهُ تَبَارَك وَتَعَالى عَنْ سَادَاتِنَا ذَوي القَدْر الجَلِي أَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمَان وَعَلِي وَعَن سَائِر أَصْحَاب رَسُول الله أَجْمَعِين وَالتَّابِعِين لَهُم بِإِحْسَانٍ إِلى يَوم الدِّين].

قال الشارح: وصلي وسلم على الرسول الأكرم بهذه الصلوات الشريفة المروية بعض ألفاظها عن جبير عن سعيد بن عطاء؛ كما ذكره صاحب شرح «الدلائل» وهي: (اللَّهُم صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِدِنَا مُحَمد) تقدم الكلام على معنى الصلاة والتسليم والسيادة،

(1) هذه الأبيات لم نجد لها شرحًا من الشيخ ﷺ.

والاسم الكريم فيما مر ووعدنا أن يتكلم عند هذه الصلوات على بعض خواص الاسم العظيم، فأول من توسل بهذا الاسم الجسيم آدم عليه الصلاة والتسليم لما رآه مكتوبًا مع اسمه تعالى؛ فتشفع به فتاب الله عليه وغفر له، كما في «دلائل» البيهقي من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، ورواه الحاكم وصححه.

وروي أن قومًا من حملة القرآن يدخلون النار؛ فتسبهم الله اسم محمد ﷺ حتى يذكرهم جبريل ﷺ به فيذكرونه؛ فتخمد النار ويبرئ عنهم، وحديث الأعمى الذي رد عليه بصره ببركة توسله به مشهور، وفي «صحيح الترمذي»، وابن خزيمة، والحاكم والنساتي، وفي «الدلائل» البيهقية مسطور.

ويروي أن الله تعالى لما خلق العرش اضطرب فلما كتب عليه اسم محمد ﷺ سكن، قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن العماد الأقفهسي في كتابه «كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار» بعد ذكر الرواية، وفيه تنبيه على أن هذا المخلوق الأكبر، انتهى.

ومن خواص هذا الاسم الأفخر: أن من ذكره إذا حذرت رحله زال عنه الحذر، ومن قرأه عند المنام اثنين وعشرين مرة كثرت رؤيته له ﷺ، وكيفيتها أن يقول محمد ﷺ إلى آخر العدد، ولتحصيل المدد والزيادة، ومن كتب اسم محمد ﷺ تسعين مرة، وحرف الصاد كذلك، واسم جبريل مائة مرة وعلقها على المحموم زالت عنه الحمى.

وذكر أهل الخواص: من كتب سورة محمد ﷺ في رق غزال بماء ورد وزعفران، وجعلها في قلنسوته لا يحملها إلا وهو طاهر رزق القبول في الباطن والظاهر، وإن من كتب آية محمد رسول الله إلى آخره وحملها معه، اكتسب المسرة والقوة، وتكتب للنساء والبركة وحراسة الأطفال، وأن من كتبها ليلة الرابع عشر من شهر رمضان في خرقة حرير بيضاء، وطيبها بمسك وكافور، ووضعها في جلد غزال ورفعها عنده؛ فمن حملها وكان به برد أو حمى، أو وجع قلب، أو كبد، أو صداع، أو غير ذلك من أمراض برئ بإذن الله تعالى، ويحملها الشيخ الهرم يقوى، والحاملة يحفظ ما في بطنها والطفل يحرس، وفي المطلب التام السوي زيادات فراجعه.

(فِي الْأَوَّلِينَ) قال شارح «الدلائل»: أي المتقدمين بالزمان على هذه الأمة من أهل الإيمان من الاسم الماضية، أو المراد أول هذه الأمة، أو المراد من كان قبل هذه الصلاة هذا

كله إن كانت الأولية باعتبار الصلاة؛ والمعنى: صل عليه في أول من تصلي عليه، وفي آخر من تصلي عليه إن كان المذكورون نصلي عليهم كما يأتي، (**وَصَلِّ وَسَلِّم عَلَى سَيِدِنا مُحَمد فِي الآخِرِينَ**) نعم هذه الأمة وآخرها، أو من يأتي بعد هذه الصلاة على مقابلة ما تقدم في الأولين.

وقال في محل آخر: سيد الخلق الأولين قبله عمومًا من آدم ﷺ إليه، وسيد الخلق الآخرين الذين بعده إلى يوم القيامة، ويحتمل أن كل طبقة من الخلق، أو كون بالنسبة لمن قبلهم، والمراد: تعميم الخلق، وإنه سيدهم أجمعين، وقد يحتمل أن يراد بالأولية هنا أولية التقدم الرئاسي وهو تقدم الشرف والمجد؛ فيكون المراد بالأولين أعيان الخلق من النبيين والمرسلين، وبالآخرين غير الأنبياء من سائر الخلق والله أعلم.

ومستند الإطلاق عليه ﷺ ما صح من قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»[1]، وهو مستند الإطلاق المولى؛ لأنه معناه هنا؛ أي: لأن المتن فيه ومولانا، وقال ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[2] قال الشافعي ﷺ يعني بذلك: ولاء الإسلام من كنت ناصره مواليه، ومكافئه، ومحبه، ومصافيه؛ فعلى كذلك فهو كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:11]، وقول عمر ﷺ: أصبحت مولى لكل مؤمن؛ أي: ولي كل مؤمن، انتهى.

وفي رواية: علي بن أبي طالب ﷺ: «**مولى من كنت مولاه**»[3]، قال المناوي: قيل في معناه: من كنت أتولاه فعلي يتولاه، قال الغزالي: والمولى هو الولي اللازم الولاية القائم بها الدائم عليها لمن تولاه بإسناد أمره؛ أي: فيما ليس يستطيع، انتهى.

(**وَصَلِّ وَسَلِّم عَلَى سَيِدِنا مُحَمد**) صلاة متصلة متجددة (**فِي كُل وَقْت وَحِين**) قال في الشرح المذكور: يراد بهما مقام مطلق الزمان الصادق بقليله وكثيره، وتفسير أحدهما بالآخر، ويراد بالوقت المقدر المؤقت من الزمان وهو المقدر لأمر ما؛ كوقت الصلاة، ووقت الزراعة ونحو ذلك، وبالحين الزمان المجدد يكون جزءًا من الزمان، وقطعة منه لا

(1) رواه مسلم (4/ 1782)، وابن حبان (14/ 398).

(2) رواه الحاكم في المستدرك (3/ 119)، والترمذي في سننه (5/ 633).

(3) رواه الحاكم (3/ 126) بنحوه.

الزمان المستمر، ومنه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: 1]، والأقرب أنه هنا من عطف المرادف أو شبهه، وأن المراد بهما معًا: مطلق الزمان، وأقل ما يصدق عليه منه والله أعلم، انتهى.

(وَصل وَسَلّم عَلى سَيدِنا مُحمد فِي المَلأ) قال الشارح المذكور: وهم الجماعة مطلقًا، أو الجمع من الأشراف، وذوا الرأي من القوم يملون العيون والقلوب جلالة، وبها (الأَعْلَى) نعت له، وهو أفعل من العلو دال على زيادته وكثرته، والمراد به: الملائكة العلوية ومحلهم السماء وهي أعلى من الأرض، ولا كفر في الملائكة عمومًا ولا عصيان؛ بل هم دائمون في حضرة القدس، ومحل القرب، والمشاهدة، والسماع للوحي فهم أعلى في الجملة من الإنس والجن (إِلى يَوْمِ الدِّين) أي: صلاة دائمة إلى يوم الجزاء وهو القيامة من دانه يدينه جزاءه، ومنهم قولهم: كما تدين تدان.

وفي آية نظر له على الجموع المذكورة في هذه الصلاة محتمل أن تكون على معنى الاختصاص؛ أي: خصه مهما ذكر بصلاة خاصة تخصهم من بينهم، أو على معنى أنه مصلى عليه مع جملة من يصلي عليه منهم، وهذا على أن الجموع المذكورة مصلى عليها، أو علي؛ يعني: حصول الصلاة من الله تعالى، ومن كل جمع ذكر كما يقال: جاء الأمير في الجيش إذا حصل منه المجيء، ومن الجيش منه، أو على معنى حصول الصلاة من الجموع المذكورة إلا أنه يبقى على هذين الاحتمالين إذا كان المراد بالأولين: من تقدم من مؤمني الأمم الماضية مثل: يكونون مصلين عليه بعد خروجهم من دار الدنيا.

قال أبو عبد الله بن العربي: إلا أن يراد أن كل طبقة من الأحياء، أو كون بالنسبة لمن بعدهم؛ فإذا ماتوا كانوا آخرين بالنسبة لمن قبلهم، انتهى.

(وَصَلّ وَسَلّم عَلى جَمِيع الأَنبِيَاء وَالمُرْسَلِين) جمع نبي ورسول، وتقدم الكلام عليهما (وَعَلى المَلائِكة) جمع ملك على غير قياس، أو جمع مليك على مفعل؛ إذ هو من الألوكة وهي الرسالة، ثم خفف بنقل الحركة والحذف نصًا وملكًا، وقيل فيه غير ذلك، وتارة لنا الجمع، وقيل: للمبالغة، ذكره ابن حجر في شرح «الهمزية»: وهو جسم لطيف نوراني قادر على التشكل بأشكال مختلفة، وأفعال شاقة لا يقدر عليها البشر من شأنه الطاعة مسكنه الأصلي السماء، فإنها مخصوصة بسكنى الملائكة دون غيرهم من إنسي وجني إلا ما انقوا

لعيسى وهم رسل الله إلى أنبيائه وأمنائه على وحيه.

قال شارح «الدلائل»: وهذا؛ أي: التعريف على مذهب من ينفي المجرد، ويحصر الممكن في الجوهر والعرض، وهو رأي أكثر الأشاعرة، وأما من أمكن بعض الأشاعرة؛ كالغزالي، والراغب، والحليمي، وهو قول جمع المحققين من الصوفية، ويعنون به ممكنًا ليس بمتحيز ولا قائم بمتحيز فالملك مجرد ومخصوص بظهور الخير، ودوام الذكر، وتوقف المقترح والفخر في بعض كتبه في إثبات المجرد، وعلى كل حال فالملائكة عند الجميع عباد مكرمون مواظبون على الطاعات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقال عند قول المؤلف: اللهم، وكما اصطفيتهم سفرًا على رسلك وأمنا على وحيك، وشهداء على خلقك إلى قوله: وفضلتهم على الورى؛ أي: الخلق بأن خلقتهم من النور وتر منهم؛ كما قال هنا: عن المعاصي والدناءات، وقد يستهم عن النقائص والآفات، وأسكنهم حضرة القدس، وآويتهم إلى محل الإنس فكانوا: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:20] و﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:6]، وأما التفضيل مطلقًا الذي عليه جمهور أهل العلم تفضيل الأنبياء على الملائكة، وفي ذلك أربع طرق؛ إلا أن مذهب جمهور الأشاعرة، وأهل الحديث، والتصوف كما حكاه السبكي عن هؤلاء، قال ابن الحاجب: وهو الأصح تفضيل الأنبياء على الملائكة كيف ما كانت علوية أو سفلية؟ أعني: ملائكة السماء وملائكة الأرض، وقال القاضي الباقلاني، والإسفراييني، والحليمي، والحاكم، والفخر في «المعالم» خلاف حاله في المحصل وأبو شامة وابن حزم: بتفضيل الملائكة مطلقًا.

ثم الطريق الثانية: وهي للأمدي والبيضاوي قصر الخلاف على الملائكة العلوية، وأما السفلية فلا خلاف أن الأنبياء أفضل.

الطريق الثالثة للحنفية: أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، ورسل الملائكة أفضل من عامة البشر، وعامة البشر من المؤمنين أفضل من عامة الملائكة الرابع لضياء الدين أبي الحبيب السهروردي في كتابه في «مذهب الصوفية»، فإنه قال: أجمعوا ـ أي الصوفية ـ على تفضيل الرسل على الملائكة، واختلفوا في تفضيل الملائكة على المؤمنين، وبين الملائكة تفاضل كما بين المؤمنين.

والذي قاله الإمام أبو بكر الكلاباذي في كتاب «التعرف لمذاهب أهل التصوف»: سكت جمهورهم ـ أعني أهل التصوف ـ عن التفضيل بين الملائكة والرسل، وقالوا: الفضل لمن فضله الله ليس بالجوهر ولا بالعمل، وقال القونوي في شرحه: أسلم الأقوال ما حكاه الصمم عن جمهور الصوفية والسلامة لا يعد لها شيء، وأداة الجانبين متحاذية وليس ما كلفنا به، انتهى.

ونحو هذا مما روي عن عبد الله بن وهب أنه سئل عن ذلك في مجلسه فأخذ نعله وخرج، وقال: يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين، ونقل عن القاضي القطع بأفضلية أحدهما على الآخر؛ كانعقاد الإجماع على ذلك، ولا يبعد التوقف في التعيين، فإنه إنما يعرف بنص قاطع والحجج من الطرفين ظنية، وقال ابن ذكري: ولعل ما سار إليه القاضي هو الأقرب -والله أعلم- انتهى.

وإلى التوقف قال الهراس وغيره: قال :التقي السبكي تفضيل البشر على الملك ليس مما كلفنا به مع قوله بتفضيل الأنبياء على الملائكة وقطعه بتفضيل النبي ﷺ.

وقال البيهقي في «الشعب» بعد أن روى أحاديث المفاضلة بين الملك والبشر: ولكل دليل روحه، والأمر فيه سهل وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو عليه، وقال الزركشي في شرح «جمع الجوامع» بعد نقله فاستفدنا منه: أنه لا يجب ذلك في العقيدة بخلاف ما يقتضيه صنيع المصنف؛ يعني: ابن السبكي، وكذا نص ابن الفاكهاني في شرح «الرسالة» على تسهيل المسألة، وإنها ليست بآكيدة في الاعتقاد.

وقال السعد في شرح «العقائد النسفية»: ولاحقًا أن هذه المسالة ظنية يكتفي بها في الأدلة الظنية، وهذا كله خلاف ما قد يشير إليه كلام القاضي المتقدم، وصرح السبكي بأن المسألة عليه اعتقادية يطلب فيها القطع، ونقل هو عن الصوفية: أن الأنبياء أفضل؛ لجمعهم خواص كمالات الكون، والملائكة أشرف؛ لبساطة ذواتهم وبعدهم عن شوائب التركيب ففرقان بين الأفضلية والشرف، وإلى هذا المنحى بنحو كلام الشيخ عز الدين في قواعده، وهذه طريقة خامسة، وهي الثالثة عن الصوفية، والطريقة الأولى عنهم عند السهروردي وكلتاهما بالخوض في التفضيل، والثانية للكلاباذي بالإمساك عن ذلك.

ثم ظاهر كلام الآمدي في «أبكار الأفكار» والغزالي في «الإحياء»: أن الخلاف حتى

في نبينا ﷺ؛ لكن نقل الفخر، وكذا إلا في الإجماع على أنه ﷺ أفضل من غيره على الإطلاق من غير خلاف، ولما لم يحفظ السراج البلقيني هذا الإجماع، أو لم يعتبره، أو لم يجزم به.

قال في «منهاج الأصلين» بعد ذكر الخلاف في التفضيل: وينبغي أن يكون محل الخلاف في غير النبي ﷺ فهو أفضل خلق الله أجمعين.

وكذا تقدم عن السبكي القطع من غير حكاية إجماع، والله أعلم، ويحتمل أن المراد بالورى في كلام المؤلف ما عدا البشر فتكون الملائكة أفضل مطلقًا، ويشمل البشر، والمراد: جنس البشر، ولا يلزم تفضيلهم على كل فرد منهم؛ لتفضيل الأنبياء عليهم السلام، انتهى.

وفي شرح «العقائد النسفية»: أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة؛ إذ لم يرد نص بذلك، ولا دل عليه عقل، وما زعم عبدة الأصنام أنهم بنات الله تعالى محال باطل، وأفرط في شأنهم؛ كما أن قول اليهود الواحد منهم قد يرتكب الكفر، ويعاقبه الله تعالى بالمسخ؛ تفريط في حقهم وتقصير في حالهم، فإن قيل: أليس قد كفر إبليس ـ عليه لعنة الله ـ وكان من الملائكة بدليل صحة استثنائه منهم؟ قلنا: بل كان من الجن ففسق عن أمر ربه؛ لكنه لما كان في صفة الملائكة في باب العبادة ورفعه الدرجة، وكان جنيًا واحدًا معمورًا فيما منهم؛ صح استثناؤه منهم تغليبًا، انتهى.

قال القاضي -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:34]، يدل على أن إبليس كان من الجن؛ لجواز أن يقال: إنه من الجن فعلاً، ومن الملائكة نوعًا؛ ولأن ابن عباس -رضي الله عنهما- روي: أن في الملائكة ضربًا هو الدون، يقال لهم: الجن ومنهم إبليس، انتهى.

وفي «مسند الإيمان» للبيهقي: والموت جائز عليهم؛ أي: على الملائكة؛ ولكن الله تعالى جعل لهم أمدًا بعيدًا فلا يتوفاهم حتى يبلغونه، انتهى.

وهل يصح إطلاق الحيوان عليهم لجوازه لغة؟ قيل: لأنه لم يرد، والأدب عدم استعماله، ويصلي عليهم مضافين للأنبياء وغير مضافين آكلهم وشربهم التسبيح والتقديس، والصحيح كما قال الفراء في جواز رؤيتهم لغير الأنبياء اختصاص الأنبياء في

التكلم معهم بالأحكام التكليفية على وجه التشريع، انتهى.

(المُقَرَّبِين) قال شارح «الدلائل»: جمع مقرب اسم مفعول من قربه مضعفًا، والقرب يقابل البعد، ويستعمل في الزمان، والمكان، والنسبة، والحظوة، والرعاية، والقدر هنا الحظوة؛ أي: الملائكة الأحظياء عند الله، وقد يظهر أن هذا الوصف هنا مفسر للإضافة في الآية؛ أي آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب:56] ...إلخ، فإنها للتشريف وشرفهم وقربهم وهو وصف كاشف؛ لأنه ليس المراد تخصيص بعض الملائكة دون بعض؛ لأن المقام يقتضي التعميم والاستكثار، ووصف القرب علم الملائكة أجمعين وإن كانوا فيه متفاوتين، انتهى.

(وَعَلى عِبَادَ الله الصَّالِحِين) جمع صالح جاء في الخبر عن سيد البشر: «**أن الصالحين يشدد عليهم، وأنه لا تصيب مؤمنًا نكبة من شوكة فما فوقها إلا حطت عنه بها خطيئة، ورفع بها درجة**»[1] قال المناوي: وهو القائم بحقوق الله تعالى وحقوق خلقه، وقول البيضاوي: هو الذي صرف عمره في طاعات الله، وماله في مرضاته ليس على ما ينبغي؛ لاقتضائه أن من صرف صدرًا من عمره في عمل المعاصي، ثم تاب توبة صحيحة وسلك طريق السلوك، وقال: بحق خدمة ملك الملوك لا صالحًا ومن نبي؛ فإنه في حيز السقوط، ثم قال الطيبي: والصلاح استقامة الشيء على حالة كماله؛ كما أن الفساد ضده، ولا يحصل الصلاح الحقيقي إلا في الآخرة؛ لأن الأحوال العاجلة وإن وصفت بالصلاح لا تخلو من شوب فساد وخلل، والاستقامة التامة لا تكون إلا لمن فاز بالفلاح المعلى.

قال شارح «الدلائل» المذكور أعظم الله له الأجور: جمع صالح وهو من استقامة أفعاله وأحواله، أو القائم بما عليه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، أو الآتي بما ينبغي والمتحرز عما لا ينبغي، ويشمل من حيث الإطلاق الملائكة والإنس والجن وله إطلاقات إلا أن المراد به هنا: من في المرتبة الرابعة من الآية؛ وهي أدنى مراتبها الأربع التي فيها النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون وهو القائم بوظائف الطاعات، والعبادات الظاهرة والمواظب عليها، انتهى.

وقيل: هو من صلح من كل فساد، وقيل: هو من صلح للعرض الخاص على رب

(1) رواه مسلم (4/ 1991)، وابن حبان (7/ 182).

العباد، وقيل: هو من صلح للاتصاف بالأسماء والصفات، وخلص من الآفات، واحتضر من مجموع الحضرات حتى صلح لتجلي الذات.

(مَن أَهْلِ السَّمَوَاتِ) جمع سماء ومر ذكرها؛ أي: سكانها، **(وَأَهْلِ الأَرَضِينَ)** أي: عمارها، وهي بفتح الراء جمع أرض بسكونها اسم جنس، وكان من الواحدة منها أن يقال: أرضه؛ ولكن لم يقولوا كذا في تهذيب «الصحاح».

قال المسعودي في شرح «الخلاصة»: وقد يسكن؛ أي: الراء الجمع ضرورة كقوله: لقد ضجت الأرْضون؛ إذ قام من بني سعد ومن خطيب فوق أعواد منبر، وإنما فتحت الراء في الجمع؛ تنبيهًا على أن حقه أن الجمع على أرضات ولم يقع في التنزيل مجموعًا، بل ورد في حديث: **«من غصب قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»**(1)، انتهى.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في شرح «الأربعين»: عند قول المؤلف قيوم السموات والأرضين وإن كانت خلاف ما في الآيات إشارة إلى أن الأصح أنهن سبع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:12] أي: عدد الهيئات وشكلا فيه خلافًا لمن زعمه للحديث المتفق عليه: من غصب قيد بكسر القاف؛ أي: قدر شبر طوقه من سبع أرضين، وزعم أن المراد: سبع من سبع أقاليم خروج عن الظاهر بغير دليل على أن الأصل في العقوبات المماثلة، ولا تتم إلا من طوق الشبر من سبع طبقات الأرض.

وفي حديث البيهقي: **«اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن»**(2)، وجمعها بالياء والنون شاذ، قيل: وحكمته أن يكون عوضها عما فاتها من ظهور علامة التأنيث، انتهى.

(وَرَضِيَ اللهُ) مر الكلام على الرضا، ويراد به هنا: الأمر، والترضي والترحم يستحب على الصحابة وغيرهم من العلماء؛ لكن الترضي في الصحابة أشهر، وأما تخصيص بهم فهو خلاف ما عليه الجمهور ذكره النووي -رحمه الله تعالى- بمعناه.

(تَبَارَكَ) زنة تفاعل؛ معناه: تعظم وتعالى وكثرت بركاته ولا يوصف بها إلا الله تعالى وهو فعل غير منصرف لم تنطق به العرب بمضارع حسبما نص عليه أهل اللسان،

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (2/ 4).

(2) رواه ابن حبان (6/ 425).

قال ابن عطية: وعلة ذلك أن تبارك لما لم يوصف بها غير الله لم تقبض مستقبلاً؛ إذ الله قد تبارك في الأزل كذا في شرح «الدلائل»، وفي «المختار»: والبركة النماء والزيادة والتبرك الدعاء بالبركة، ويقال: بارك الله لك وفيك وعليك وباركك، ومنه قوله: أن بورك من في النار، وتبارك الله تعالى مثل: قاتل وتقاتل إلا أن فاعل يتعدى، وتفاعل لا يتعدى، وتبرك مثل يتمن به، انتهى.

وفي الحديث: «**أن الله تبارك وتعالى بارك ما بين العريش إلى الفرات، وخص فلسطين بالتقديس**»(1) رواه ابن عساكر عن زهير بن محمد بلاغًا، ونقل الحلبي -رحمه الله تعالى- عند ذكر الغار، ولدغ النحرير الصديق العتيق من النار في عقبه لما سد به؛ فجرى دمعه وانهار، وأن السيد المختار تضل على محلها وبرك على عقبه؛ فسرت الدعوة في عقبه ليوم القرار، وأشرت على هذا في القصيدة الابتهالية ذات الأنوار العلية بقولي:

بنـــي الـــصديق الحائـــزين عـــلى الخـــصال الأرفعـــيه
فـــيه دعـــي طـــه لهـــم مـــذ جـــدهم لـــسعته حـــيه
في الغـــار حـــيث رقـــي لهـــا يـــا حـــبذا تلـــك الهديـــه
وقـــد أنبأتـــنا ســـورة الـــ أحقـــاف بالمـــنن الجليـــه

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ [الأحقاف:15]، على أنه من قول الصديق كما ذكره البيضاوي، وأبو السعود ذو التحقيق.

(**وَتَعَالَى**) أي: تقدس وتنزه عما لا يليق بجنابة من علو القدر والمكانة هنا، فافهم أيها النابه، وأصله تفاعل لتعاطي الفعل كتجاشع، وكذا تفعل كتكبر، والمراد: ذكر الانفراد لا تعالى الأجساد؛ لتنزه رب العباد.

(**عَنْ سَادَاتِنَا**) جمع سادة وهو جمع سيد؛ أي: موالينا وأشرافنا، وأما جدنا وفي الحديث: «**العلماء قادة والمتقون سادة ومجالستهم زيادة**»(2) وفي رواية: «**الأنبياء قادة،**

(1) ذكره المتقي الهندي في الكنز (12/ 304).
(2) ذكره المناوي في فيض القدير (2/ 83).

والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة»[1].

وعنه ﷺ: «سادة السودان أربعة: لقمان الحبشي، والنجاشي، وبلال، ومهجع»[2].

(ذَوي) أصحاب (القَدْر) أي: الشأن والمقدار والمبلغ الرفيع المنار، وقدر كل أحد على قدر ما عنده من معرفة الأحد.

قال الإمام الأكبري ﷺ في «العبادلة»: قدرك عند الله قدره عندك، ورأيت رجلاً وقد سأله مسكين معروفًا بالله، فأخرج صرة فيها قطع من الفضة كبار وصغار فأخذ يفتش على أصغر قطعة فيها حتى يدفعها للسائل، وكان معي رجل صالح فقال: يا أخي تعرف علي ماذا يفتش هذا؟ فقلت له: قل، فقال: هذا سئل بالله فأخذ يفتش على قدره عند الله فعلى مرتبته يفتش، ثم رد وجهه للمعطي وقال له: قدر ما تهب لوجهه يكون وجهك عنده فكبر، أو صغر، أو عظم، أو حقر، انتهى.

(الجَلي) أي: الواضح الذي لا خفاء فيه ولا استتار؛ كالشمس رابعة النهار.

(أَبِي بَكْر) كنيته الصديق الملقب بالعتيق المسمى بعبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر، يلتقي مع النبي ﷺ في مرة، واسم أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر تجتمع مع زوجها في عامر، ولقب بالعتيق؛ إما لجماله وعتاقة وجهه، أو لعتاقه نسبه؛ أي: طهارته، أو لأن أمه كانت لا يعيش لها ولد فلما ولدته استقبلت به الكعبة، وقالت: هذا عتيق من الموت فهبه لي، أو لأن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر لعتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر»[3] وفي رواية: «أنت عتيق الله من النار»[4] وفي أخرى: «يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار»[5] وسمي الصديق؛ لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ. وفي الحديث: «يا أبا بكر إن الله سماك الصديق»[6].

وعنه ﷺ: «قلت لجبريل ليلة أسري بي: أن قومي لا يصدقوني، قال: يصدقك أبو

(1) رواه الدارقطني (3/ 80). (2) ذكره المناوي في فيض القدير (4/ 79).

(3) رواه الحاكم في المستدرك (3/ 64)، والديلمي في الفردوس (3/ 540).

(4) رواه ابن حبان (15/ 279). (5) رواه الحاكم في المستدرك (2/ 450).

(6) رواه الديلمي في الفردوس (5/ 307).

بكر وهو الصديق»[1].

وعنه ﷺ: «دعوا لي صويحبي، فإني بعثت إلى الناس كافة فلم يبق أحد إلا قال: كذبت إلا أبو بكر الصديق؛ فإنه قال لي: صدقت»[2].

وعنه ﷺ: «أن من آمن الناس علي في صحبته، وذات يده أبا بكر الصديق فحبه وشكره وحفظه وأحب على أمتي»[3].

وعنه ﷺ: «لما خلق الله العرش كتب عليه بقلم من النور طول القلم ما بين المشرق والمغرب لا إله إلا الله محمد رسول الله، به أخذ وبه أعطى، وأمتي أفضل الأمم وأفضلها أبو بكر»[4].

وعنه ﷺ: «رئيت ليلة أسري بي حول العرش جريدة خضراء مكتوب فيها بقلم من نور أبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق»[5].

وعنه ﷺ: «عرج بي إلى السماء فما مررت بسماء إلا وجدت فيها اسمي مكتوبًا محمد رسول الله، وأبو بكر خلفي وهو الصاحب في الغار، وهذه الدار وتلك الدار»[6].

وهو أول من آسلم من الرجال الأحرار، وقد وقع الإجماع على أفضليته، ولا يعتد بخلاف الشيعة الفجار، ولا من أفقههم من الأخيار وهو أحد نقبائه ﷺ، ورفقائه، ووزرائه، وخاصته، ونجبائه، وهو أرحم هذه الأمة بالأمة، وأرأفها وأرقها بها.

وأما ما ورد من النصوص في فضله المخصوص فقد أودعت بعض ذلك في «الصلوات الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة» بعض ما ورد في فضل الخلفاء، وقد تكفل صاحب «الرياض النضرة في فضائل العشرة» المبشرة بذكر جزاء من ذلك حبهم لله رضاء المالك، وأفرد بعض الأئمة ترجمته في تأليف واستوعب ولم يقض حق التعريف[7].

---

(1) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (1/ 215)، والطبراني في الأوسط (7/ 166).

(2) ذكره المتقي الهندي في الكنز (11/ 555). (3) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (2/ 15).

(4) رواه الرافعي في التدوين (3/ 393). (5) رواه ابن حبان في المجروحين (1/ 365).

(6) رواه الخطيب في تاريخه (5/ 444).

(7) انظر: عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق للعبيدي، وتحفة الصديق لابن بلبان، والروض الأنيق للسيوطي، والروض الفائق الأنيق لصديق بن عمر خان (جميعهم معًا بتحقيقنا).

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في «مسامراته»: بويع ﷺ في اليوم الذي قبض فيه رسول الله ﷺ؛ وهو الثاني عشر من ربيع الأولى سنة إحدى عشرة، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يومًا، ومات ﷺ ليلة الثلاثاء، وقيل يوم الجمعة لسبع باقين من جمادى الآخر سنة ثلاثة عشر وهو ابن ثلاثة وستين، بويع في سقيفة بني ساعدة من الخزرج، وأول من بايعه بشر بن سعد الأنصاري، ثم عمر بن الخطاب، ثم أبو عبيدة بن الجراح، ثم سعد بن عبادة، ثم المهاجرون والأنصار، ولم أودع في كتابي هذا ما شجر من الصحابة ﷺ؛ خوفًا على النفوس الضعيفة، ولا مثلب عن مثالب الناس، والحمد لله على ذلك، وخاتم رسول الله ﷺ وكاتبه عثمان بن عفان، وحاجبه مولاه شديد، وقاضيه عمر بن الخطاب، انتهى.

وكان له من الأولاد: عبد الرحمن وعائشة لأم واحدة وهي أم رومان، وعبد الله وأسماء لأم واحدة وهي قتيلة من بني عامر بن لؤي، ومحمد وأمه أسماء بنت عميس، وتكنيته بأبي بكر ليس عن ولد، وفيه دليل على جواز التكنية ولو لم يكن له ولد، وقد أنفق ﷺ أربعين ألفًا من ماله في سبيل الله، وعلى رسول الله ﷺ، وأعتق سبعة ممن كانوا يعذبون في الله تعالى؛ كبلال وعامر بن فهيرة، وقد وافق في بعض أحكامه التنزيل، وأكرم بسماع مناجاة جبريل للرسول الجليل، وكان لفرط خوفه من رب البرية يشم من جوفه ريح الكبد المشوية.

وقلت في «الألفية»: وقد حكى لي شيخنا المقدام عبد الرحيم الأزبكي الهمام عندي أصل في بلادنا اشتهر بالأزبكي، وفضله فيها ظهر من جدنا الصديق سامي اللهجة من حيه يلزم كل مهجة بأنه كان من المسامرة، وما لعقله الحبيب قاصرة لم يتنفس ليله بالمرة إلى الصباح يظهرنه مرة يبدو من تنفس الأسرار ريح خوم شويت بالنار؛ فاشتكت الجيران للحبيب علي الصديق مرتضى القريب بأن يشوي اللحوم عنده وريحها يضرنا فصده؛ فاعتذر الهادي إلى القصاد إن ذا من زفرة الأكباد.

وقال في «الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرة»: روي أن عمر بن الخطاب ﷺ: «أتى إلى زوجة أبي بكر بعد موته فسألها عن أعمال أبي بكر في بيته ما كانت؟ فأخبرته بقيامه في الليل وأعمال كان يعملها، ثم قالت: إلا أنه كان في كل ليلة جمعة يتوضأ ويصلي العشاء، ثم يجلس مستقبل القبلة ورأسه على ركبتيه، ثم إذا كان وقت السحر رفع رأسه وتنفس

الصعداء فنشم في البيت رائحة كبد مشوي؛ فبكى عمر ﷺ وقال: أنّى لابن الخطاب بكبدٍ مشوي» خرجه ابن الملأ في «سيرته»، انتهى.

كان ﷺ ثابت الجنان خاشع الجوارح مطمئن الأركان، ويشهد لثباته ثباته صبيحة ليلة الأسرى، وعلى المصيبة العظمى عند فقد الغنيمة الكبرى وصبره عند هذه الصدمة المورثة ذهلاً يدل على شجاعته وثباته قولاً وفعلاً، وكلامه يوم الحديبية وبدر مما يؤذن بالثبات ورفعة القدر، وكان ﷺ عزوفًا عن العاجلة لأزوفة من الآجلة، وكان من أجزم الناس رأيًا عالمًا بتعبير الرؤيا، وفي الحديث: «**أمرت أن أولي الرؤيا أبا بكر**»[1] رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن سمرة، وذكرت بعض تعبيراته في خاتمة «الفرق المؤذن بالطرب».

وأما قوله ﷺ في تعبيره للرؤيا كما في «البخاري»: «**أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا**»[2].

قال النووي رحمه الله تعالى؛ أي: في إظهار ما لا ينبغي إظهاره، وأما كراهية الحق لتخطيئه كما في حديث: «**إن الله يكره فوق سمائه أن يخطئ أبا بكر الصديق في الأرض**»[3] ففي حق غير المعصوم وهو ﷺ أول أقطاب هذه الأمة المحمدية، وأول خليفة تولى وأبوه حي، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من عهد بالخلافة، وأول من جمع القرآن، وأول من سمي المصحف مصحفًا، وأول من سمي في الإسلام خليفة، وأول من لقب فيه بعتيق، وأول خليفة فرض له العطاء رعيته كذا في «الأوليات» للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى.

قلت: وهو أول من يدخل الجنة من هذه الأمة لحديث: «**أخذ جبريل بيدي فأراني باب الجنة التي تدخل منه أمتي، فقال: أبو بكر وددت أني كنت معك حتى أراه، قال: أما أنك أول من يدخل الجنة من أمتي**»[4] رواه ابن عساكر عن أبي هريرة.

وقال الشيخ محمد بن علي القاري -رحمه الله تعالى- في رسالة «الحظ الأوفر في الحج الأكبر» بعدما ذكر أن في يوم الحج الأكبر أربعة أقوال، ثم التحقيق أن المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة:3]،

(1) ذكره المتقي الهندي في الكنز (11/ 544).
(2) رواه البخاري (6524).
(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير (20/ 67).
(4) رواه أبو نعيم في فضائل الخلفاء (1/ 52).

إنما هو أيام الحج في سنة تسع حين جعل النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أمير الحاج، وأرسل صدر سورة براءة علي المرتضى ـ كرم الله وجهه ـ ليقرأها على الكفار في تلك الأيام، إلا لا يحجّن بعد العام مشرك، ويؤيده ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، عن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**في يوم الحج الأكبر يوم حج أبو بكر بالناس**»[1].

قلت: وفي هذه القصة إشارة جلية إلى خلافة أبي بكر ﷺ حيث جعله ﷺ نائبًا عنه في كل عبادة قابلة للخلافة؛ لاسيما عبادة الحج المشتملة على الطاعة البدنية والمالية، لهذا قيل: حجه ﷺ كان تطوعًا، وإنما حج حجة الإسلام مع سيد الأنام ﷺ؛ ليكون فرضه على وجه التمام، ففيه ما أخذ علماؤنا في تجويز من يجب عليه الحج وينوي التطوع، خلافًا للشافعية على ما هو مقرر في محله؛ لكن فيه أن كون الحج فرضًا على الصديق ابتداء غير معلوم، وأما إرسال علي ﷺ فإنما كان تأييدًا له، ولهذا لما سأل علي ﷺ أميرًا أم مأمورًا؟ فقال: بل مأمورًا، وسبب التقوية أن فيه العهد ممن يكون من العشيرة أقوى، وآكد عند العرب، فلذا قال له ﷺ هذا المعنى، أو تذكر هذه القاعدة العظمى؛ فأرسل عليًّا عقب الصديق، ويحتمل أن يكون نزول براءة وقع بعد خروج الصديق ﷺ فبالجملة سيدنا علي ﷺ وقع مأمورًا بمبايعة الصديق في هذا الأمر.

وكذا في قضية إمامة الصديق أيام مرضه ﷺ، وهذا أقوى دليل، وأوفى تحليل على أفضلية الصديق، وبيان الحقيقة بالخلافة العظمى والإمامة، ولهذا قال بعض أجلاء الصحابة عند الاختلاف في أمر الخلافة: إذا اختاره ﷺ لأمر ديننا أما نختاره لأمر دنيانا، انتهى.

وقال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه: قدمها رسول الله ﷺ في حياته من تطييب نفسه أن يؤخرهما بعد وفاته، وفي الحديث: «**لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره**»[2] رواه الترمذي عن عائشة.

وروى ابن جرير عن علي ﷺ في قوله: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144] قال: الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه، وكان علي يقول: كان أبو بكر أمين

---

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (7/ 29) بنحوه.

(2) رواه الترمذي في سننه (5/ 614).

الشاكرين، وأول من لقب شيخ الإسلام في الإسلام، وكذلك عمر رضي الله تعالى عنهما، وكان الملقب لهما بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ورضي عنه.

وروى الطبري عن أنس: جاء رجل إلى علي ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين سمعتك تقول على المنبر: اللهم أصلحني بما أصلحت به الخلفاء الراشدين، فمن هم؟ فاغرورقت عيناه فأهملها وقال: أبو بكر وعمر إماما الهدى، وشيخا الإسلام، ورجلاً قريش المقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ[1] انتهى.

وفي «الجامع الكبير» للسيوطي التحرير عن الحسن قال: كان لعمر عيون على الناس فأتوه فأخبروه أن قومًا اجتمعوا ففضلوه على أبي بكر، فغضب، وأرسل إليهم وأتى بهم فقال: يا شر قوم، يا شر حي، يا مفسدوا الحصان فقالوا: يا أمير المؤمنين لم تقول لنا هذا ما شأننا؟ فأعاد ذلك عليهم ثلاث مرات، ثم قال بعد: لم فرقتم بيني وبين أبي بكر الصديق، فوالذي نفسي بيده لوددت أني من الجنة حيث أرى أبا بكر مد البصر، رواه أسد بن موسى في «فضائل الشيخين»[2].

وفيه عن جبير بن نفير أن نفرًا قالوا لعمر بن الخطاب ﷺ: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط، ولا قول بالحق، ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين أنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، قال عوف بن مالك: كذبتم والله لقد رأينا خيرًا منه بعد النبي ﷺ، فقال عمر: من هو يا عوف؟ فقال: أبو بكر، فقال عمر: صدق عوف وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضل من بعير أهلي رواه أبو نعيم في «فضائل الصحابة».

قال ابن كثير: إسناده صحيح، ولقد تتبعنا آثار الأصحاب الواردة في مدحه هذا الخليفة المهاب ربما أدى إلى الإطناب ولم نبلغ الاستيعاب، وأما حليته الشريفة فقد ذكرتها في «الرحلة العراقية» لموجب رؤية منيعة، وذلك أني رأيته ﷺ وأنا ملتحف معه على فراش ومقصوص جناح البسط برؤياه طال فراش وطلب أن أقرأ له حليته، فبادرت لقرأتها عليه وأثبتها بعد اليقظة راغبًا في وصل الوصلة إليه؛ ولنذكرها هنا ليحصل للواقف عليها الهناء.

قال صاحب «الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرة» عن عائشة ﷺ وقد قيل

(1) ذكره المحب الكبري في الرياض النضرة (1/ 379).

(2) ذكره المتقي الهندي في الكنز (12/ 497).

لها: صفي أبا بكر، قالت: كان أبيض نحيفًا خفيف العارضين أحنى؛ أي: منحني الظهر لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه؛ أي: خاصرتيه، معروق الوجه؛ أي: قليل اللحم حتى يتبين حجم العظم، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع؛ وهي أصول الأصابع التي تنفصل بعصب ظاهر الكف، خرجه أبو عمرو[1].

وعن قيس بن أبي حازم قال: قدمت على أبي بكر في مرضه الذي مات فيه فرأيت رجلاً أسمر خفيف اللحم، خرجه أبو بكر بن مخلد[2]، والمشهور ما تقدم من أنه كان أبيض، وكان يخضب بالحناء والكتم، انتهى.

وقد أدرجت ما أفرده من الشرح ضمن الرواية، ولا تعارض رواية قيس رواية أم المؤمنين، فإن السمرة التي ذكرها ناشئة عن أثر المرض، ومن كلماته الباهرة الفائقة على النجوم الزاهرة إذا دخل العبد العجيب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة، وقال: وجدنا الكرم في التقوى، والقناعة في اليقين، والبشر في التواضع، وقال: من ذاق من خالص المعرفة شيئًا شغله ذلك عما سوى الله واستوحش من جميع البشر.

وقال: من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته، وقال: فاز بالمروءة من امتطى التغافل وهان على القرناء، ومن عرف باللجاج.

وقال: وإياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب، ثم إليه يعود، ثم يأكله الدود.

وقال: لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة، ودخل حائطًا فإذا طائر في ظل شجرة فتنفس الصعداء.

وقال: طوبى لك يا طير تأكل الثمر، وتستظل بالشجر، وتصير إلى غير حساب يا ليت أبا بكر مثلك.

وكان إذا مدح قال: اللهم إنك أعلم مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلني خير مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، وكان إذا قام في الصلاة كأنه عود مقطوع لما يعتريه من الخشوع، وقال: وددت أني شجرة تأكل وتعضد.

وقال: هم الدنيا ظلمة في القلب، وهم الآخرة نور في القلب، وقال في معنى قوله

---

(1) رواه أبو نعيم في فضائل الخلفاء (57)، وذكره المحب في الرياض (1/ 57).

(2) ذكره المتقي الهندي في الكنز (12/ 497).

تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الروم:41]، قال: البر هو اللسان، والبحر هو القلب؛ فإذا فسد اللسان بكت عليه النفوس، وإذا فسد القلب بكت عليه الملائكة.

وقال: ثلاثة لا تدرك بثلاث: الغنى بالمنى، والشباب بالخضاب، والصحة بالأدوية.

وقال: أربعة تمامها بأربعة: تمام الصلاة بسجودي السهو، والصوم بصدقة الفطر، والحج بالفدية، والإيمان بالجهاد.

وقال: الظلمات خمس، والسراج لها خمس: حب الدنيا ظلمة، والسراج لها العمل الصالح، والذنب ظلمة، والسراج لها التوبة، والقبر ظلمة، والسراج لها لا إله إلا الله، والآخرة ظلمة، والسراج له اليقين، وقال: أن إبليس قائم أمامك، والنفس عن يمينك، والهوى عن يسارك، والدنيا خلفك، والأعضاء حولك، والجبار فوقك؛ يعني: بالقدرة لا بالمكان، فأما إبليس يدعوك إلى ترك الدين، والنفس تدعوك إلى المعصية، والهوى يدعوك إلى الشهوات، والدنيا تدعوك إلى اختيارها على الآخرة، والأعضاء تدعوك إلى الذنوب، والجبار يدعوك إلى المغفرة قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:221]، فمن أجاب إبليس ذهب عنه الدين، ومن أجاب النفس ذهب عنه الروح، ومن أجاب الهوى ذهب عنه العقل، ومن أجاب الله تعالى ذهب عنه السيئات ونال جميع الخيرات.

وقال: البخيل لا يخلو من إحدى السبع؛ إما أن يموت فيورثه من يبذر، وينفقه في غير ما أمر الله تعالى، أو يسلط الله عليه جائرًا فيأخذه بعد تذليل نفسه، أو تهيج له شهوة تفسد عليه ماله، أو يبدد له نواي في بناء عمارة في أرض خراب فيذهب به ماله، أو تصيبه نكبة من نكبات الدنيا من حرق، أو غرق، أو سرقة، وما أشبه ذلك أو تصيبه علة دائمة فينفق ماله في الأدوية، أو يدفنه في موضع من المواضع فينساه ولا يجده.

وقال: ثمانية أشياء هن زينة لثمانية أشياء: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغناء، والصبر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والحلم زينة العلم، والتدبر زينة التعلم، وترك المن زينة الإحسان، والخشوع زينة الصلاة.

وقال: العبادة ثلاثة أصناف، لكل صنف منها ثلاث علامات يعرفون بها: صنف

يعبدون الله على سبيل الخوف، وصنف يعبدون الله على سبيل الرجاء، وصنف يعبدون الله على سبيل الحب؛ فللأول ثلاث علامات: يستحقر نفسه، ويشتغل بحسناته، ويستكثر سيئاته، وللثاني ثلاث علامات: يكون قدوة على الناس في جميع الحالات، ويكون أسخى الناس كلهم بالمال في الدنيا، ويكون حسن الظن بالله، وفي الخلق كلهم، وللثالث ثلاث علامات: يعطى ما يحبه ولا يبالي بعد أن يرضي ربه ويسخط نفسه، ويكون في جميع الحالات مع سيده في أمره ونهيه.

وقال: ما من عبد يرزقه الله تعالى عشر خصال إلا وقد نجا من الآفات والعاهات، وصار في درجة المقربين: **أولها**: صدق دائم معه قلب قانع.

والثاني: صبر كامل معه شكر دائم.

والثالث: فقر دائم معه زهد حاضر.

والرابع: ذكر دائم معه بطن جائع.

والخامس: خوف متصل معه حزن دائم.

والسادس: جهد دائم معه حياء حاضر.

والسابع: رفق دائم معه رحم حاضر.

والثامن: حب دائم معه نور حاضر.

والتاسع: علم نافع معه علم حاضر.

والعاشر: إيمان دائم معه، وعقل ثابت، وله ﷺ غير ذلك من كلمات تابعة للمحب من القلب بإخلاص قائلها رافعة.

روى ابن النجار عن ابن عباس -رضي الله عنهما- كما في «الجامع الكبير» أنه قال: أنشد الصديق ﷺ:

إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك في زي مسكين

فذا الذي حسنت في الناس فاقته وذلك يصلح للدنيا وللدين[1]

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: كان أبو بكر شاعرًا، وكان عمر شاعرًا،

(1) ذكره الهندي في الكنز (5/ 764).

وكان عثمان شاعرًا، وكان علي أشعر الثلاثة، ووقعت على ديوان في نحو كراستين أغلبه في الحث على اتباع رسول الله ﷺ وورثائه، ونقلته من خط شيخنا ذوي المقام الثني الشيخ عبد الغني، ومن دعائه على ما ذكر في «منهج منتخب كنز العمال» قال فيه عن الحسن: قال: بلغني أن أبا بكر كان يقول في دعائه: اللهم أني أسألك الذي هو خير في عاقبة، اللهم اجعل خير ما تعطني من الخير رضوانك والدرجات العلى في جنات النعيم، رواه أحمد في «الزهد»[1].

وفيه عن معاوية بن قرة: أن أبا بكر الصديق كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقاءك»، رواه الضياء المقدسي في «المختارة»، ويوسف القاضي في «السنن»، وأبو القاسم بن بشران في «أماليه»[2].

وفيه عن أبي يزيد المدائني قال: كان من دعاء أبي بكر الصديق: اللهم هب لي إيمانًا، ويقينًا، ومعافاة، ولينًا ، رواه ابن أبي الدنيا في «اليقين»، وفيه عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون قال: حدثني من أصدقه أن أبا بكر الصديق كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما يكون فيه الخيرة، وبجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها كلها يا كريم، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر»[3].

وفيه عن أبي بكر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن اقترف على

(1) ذكره الهندي في الكنز (2/ 672). (2) رواه ابن بشران في أماليه (52).

(3) رواه ابن بشران في أماليه (52). (4) رواه الحاكم (1/ 694)، والضياء (1/ 113).

نفسي سواء أو أجره إلى مسلم رواه أحمد، وابن منيع، والشاشي، وأبو يعلى، وابن السني في عمل يوم وليلة والضياء[1].

وفيه عن أبي بكر قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة، وفي لفظ إذا أصبحت وطلعت الشمس يقول: مرحبًا بالنهار الجديد، والكاتب والشهيد اكتبا بسم الله الرحمن الرحيم اشهد أن لا إله إلا أنت، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن الدين حق كما وصف الله، والكتاب كما أنزل الله، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؛ رواه الخطيب والديلمي، وابن عساكر، والسِّلفي في «انتخاب حديث القراء»، وفيه: زنفل العرفي ضعيف[2].

وفيه عن يزيد الرقاشي عن سعيد بن المسيب قال: لما احتضر أبو بكر الصديق ﷺ حضره ناس من أصحاب النبي ﷺ وقال: يا خليفة رسول الله زودونا فإنا نراك لما نزلت بك، قال: كلمات من قالهنَّ حين يمسي ويصبح؛ جعل الله روحه في الأفق المبين، قال: وما الأفق المبين؟ قال: قاع تحت العرش فيه رياض وأشجار وأنهار تغشاه كل يوم ألف رحمة، أو قال: مائة رحمة فمن مات على ذلك القول جعل الله روحه في ذلك المكان: اللهم إنك خلقت الخلق فرقًا، وعينتهم قبل أن تخلقهم، وجعلت منهم شقيًا وسعيدًا وغويًا ورشيدًا فلا تشقني بمعيشتك، اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها، فلا محيص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك، اللهم أن أحد إلا بشاء حتى تشاء فاجعل مشيتك لي أن أشاء تقربني إليك، اللهم إنك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك؛ فاجعل حركاتي في تقواك، اللهم إنك خلقت الخير

(2) ذكره في الكنز (2/ 632).

والشر، وجعلت لكل واحد منهما أعمالاً يعمل بها؛ فاجعلني من خير القسمين، اللهم أنك خلقت الجنة والنار، وجعلت لكل واحد منهما أهلاً؛ فاجعلني من سكان جنتك، اللهم أنك أردت بقوم الهدى، وشرحت صدورهم، وأردت بقوم الضلال، وضيقت صدورهم؛ فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم أنك دبرت الأمور فجعلت مصيرها إليك؛ فأحيني بعد الموت وقبله حياة طيبة، وقربني إليك زلفى، اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله ﷻ؛ رواه ابن أبي الدنيا[1]، انتهى.

وقد أمتن الله تعالى عليَّ منذ كنت صغيرًا برؤيته ﷺ في المنام كثيرًا، وما أراها إلا تربية من جنابة للمنتمي المحتمي في ظل أنسابه، وكنت أستأنس برؤيته من غير جزع من اقترابه لما أرى من ملاطفته نفعنا الله تعالى به، وعما تفضل به الكبير المتعال أني رأيته ﷺ يوم الخميس السابع، أو السادس من شوال عام ثمانية وثلاثين ومائة وألف وأنا في الديار الرومية صانها الله من كل بلية، ومع جمع من الأصحاب الكرام أولي المجد والجد والاحترام؛ فتلقيته فرحًا مسرورًا، وقبلت يده المباركة، وامتلأت حبورًا، وأدخلتهم دار غير رحيبة؛ لكنها عادت بهم خصيبة، ودخلت مع السيد المشار إليه محلاً وصحبة من أولئك النفر أربعة ما يمر من العيش بذكرهم يتحلى، وجلبت بالقرب منه ﷺ، وطلبت القهوة فأتى بها إليَّ، وسكبت فنجانًا وناولته له راج تعطفه عليَّ، ثم أديرت القهوة على باقي الجماعة، وأسكرت من نشوة خمره تلك الساعة، ورأيت بين يديه ثوبًا أبيض، فقلت له: يا سيدي

(1) ذكره في الكنز (12/ 540).

أخبرت أن هذا الثوب أبيع بمبلغ وافر لكونكم سجيتم فيه؟ فقال: نعم، قد اشتراه فلان وسماه، وذكر ما يتوق على خمسمائة قرش، ثم قال ﷺ: ما معناه ولما رجع إلى قلة أهديه إلى السيد مصطفى قررت باطنًا؛ ولكن لم أقدر على طلبه منه، وأحضرت لأولئك السادة العظام شيئًا من الطعام، ثم طلبت القهوة وناولته الفنجان؛ كالأول، وأردت أن أعمل لبقية الجماعة أبريقًا وأرسله لهم، فأشار أن أولئك لا يحتاجون القهوة، ثم قلت له: يا سيدي اشتهي الجلوس معكم في مكان أيامًا، والقصد أن أفوز بالمشاهدة لأبلغ مرامًا، وقلت له: يا سيدي لي قريب دار واسع من هذه الدار، فإن أمكن أن تسيروا إليها، فأجاب ومن معه حضار ودخلنا جميعًا تلك الديار الواسعة التي بحلوله فيها أضحت خاشعة غير خانعة، واستغنت غبَّ الدخول، وحمدت الله على هذه المنحة المعطرة للشمول، ولقد تطفلت على جنابة على أن أسقي من على أكوابه بأبيات أودعتها «الرحلة العراقية» ومطلعها:

يا نفس كم في النازلات تضيقي تبقى بشغل أحبتي تعويقي

هل لاضطر جئت واسترحت من عناء تدبير فهو يقود للتفريق

ولربك سلمت كيما تسلمي من أسهم تردبك بالتفريق

وحططت ثقل أمور كي في بابه فعسى بحابسيك قديم رحيق

ولكن يجود بعود ما عودت من شرب القديم الصرف بالإبريق

يا نفس هبي من منامك وأنبهي الـ أوقات ثم دعي دعاء التلفيق

ثم اسقيني واستعيني بالذي أولاك منامه على رقيق

إن لم يكن عونًا لك من منه فالحد منك يريك كل مضيق

يا نفس لوذي بالقريب فإنه نعم المجيب لفارق في الضيق

وله سلي كشف الغطاء لتعايني سبل العطاء فوزي بالتصديق

يا نفس عوذي بالقرب لعلة يدنيك نحو حظائر التحريق

فنعم إمداداتك لعوالم الـ ـتخريق والتحريق والتشريق

وإذا دهى همّ إليه فاقرعي وتشفي بالمشد الصديق

وعلا طولاً علا وصولاً حلا فولا فلا حولا غد وصديق

خير الخلائق بعد كل منباءٍ وخليفة المختار بالتحقيق

لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت وذا تعال شفيق

ونهى أبا الدرداء حال تقدم في سيره فأزلف كل عريق

ودعا بغار أن يكون رفيقه العم به من مشفق ورفيق

وعلى جميع الصحب قدم للصلاة الحج والإيحاء بحر عميق

والسمع شرف منه في تبشيره بمراتب جلت عن التعليق

وهو المهدي في السفينة والـ ـمثبت للصحاب وقاتل الزنديق

وهو الذي محق الإله بسيفه باغ وطاغ مال للتمزيق

وهو العتيق لحسنه وجماله أو من جحيم مؤذن بحريق

فرد له في النار أوفر خلوة بل جلوة تندي لكل فريق

ويلدغ الأرقم فاز منه برقية ... وبدعوة تهدي جميل عبيق
من سرح الذكر الحكيم بفضله ... وحديث هادينا لخير طريق
وبحضرة الهادي هناك منادمًا ... أضحى له يشتم مسك فتيق
والمصطفى في حضرة الحياد لم ... يبرح شفيعًا بي وكل غريق
فيخفه يا أول الخلفاء يا ... جدي تشفع بي ليذهب ضيق
فلدى الحبيب رضاك مقبول ... كن رجاء ومعاض بلا تعويق
ضاق الخناق فجد ينكدر هاتفًا ... وانجد بتوسيع من التضييق
وارفع بحسن توجه لحجابنا ... فلكم بكت عيني بوصف شهيق
واقبل مديحًا قلته مستعطفًا ... فالشعر مني ليس شعر مفيق
رضي الإله عليك ما أن مصطفى ... وأفاءكم متشفعًا بالمزيق
أو ما عدى محسوبكم منسوبكم ... يرجو انطلاقًا من منازل ضيق
والسرح في نادي الضواحي علمه ... تنجلي من نظري جبل وثيق
بالله يا ذا الجاه فاشفع لي أرق ... في الغم كأسي أنت خير مريق
ولدى الشفيع فكن لنجلك شافعًا ... ليسير بر البر سير طليق
ثم الصلاة مع السلام عليه ما ... لبى الورى من كل فج عميق
والآل والأصحاب أرباب التقى ... من حققوا بالجمع والتفريق
والناهجين مناهجًا سلكوا بها ... ما صاح صاح يا بني الصديق

أو قال ناصح نفسه لريحها يا نفس كم في النازلات تضيق

ومما جربه الغير وجربته، فإذا هو صحيح أن تكرار أبو بكر ﷺ محرك في القيد للريح المريح وكأنه لما أنفذ الدين وأهله وقاتل المرتدين، فحصل للإسلام الفرج جعل الله ذكر اسمه مذهبًا للوهج مبقيًا للمهج منجيًا من الحرج.

(وَعُمَر) هو أبو حفص كناه به رسول الله ﷺ؛ ومعناه لغة: الأسد عمر بن الخطاب بن نفيسة بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرظ بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي يلتقي مع رسول الله ﷺ في كعب، وأمه خيثمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أسلم رابع أربعين رجلاً، وقيل: بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشر امرأة سنة ستين النبوة، ولقّبه رسول الله ﷺ: بالفاروق؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل، فإنه سعى في إشهار الدين مع شوكة المتمردين، وقد أعزَّ الله به الإسلام ببركة دعائه ﷺ وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين، وثالث ثلاثة في الجنة مع الرسول الأمين، وصح أنه من المحدثين وأن، الشيطان يفرُّ منه ويفروا من هيبته، وجرب أن من كتب اسمه بريقه على صدره لم يحتلم في ليلته.

وجاء أن الصدق والحق بعد الصادق مع عمر حيث كان وقد أسقاه فضله لبنة المأول بالعلم فجرعه، كان بويع يوم وفاة الصديق ﷺ، وكان قد عهد إليه بالخلافة وكتب ذلك في بطاقة فلما بلغه ذلك، قال: قد أسأت إليَّ يا أبا بكر، قال: لا، قال: بل أحسنت إلى الناس، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر إلا يوم، وبلغ من العمر خمسًا وخمسين، وقيل: ثلاثًا وستين، وتوفي سنة ثلاث وعشرون من الهجرة شهيدًا بطعنة أبي اللؤلؤة فيروز الفارسي غلام المغيرة بن

شعبة علج كافر يوم الأربعاء لسبع تعين من ذي الحجة، وقيل: يوم الاثنين لما خرج للصلاة بفلس بخنجر له رأسان، وطعن معه اثني عشر رجلاً مات منهم ستة؛ فألقى عليه رجل ثوبا فلما اغتم قتل نفسه، ثم حمل إلى بيته وأتى بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، فقالوا: لا بأس عليك، فقال: إن يكن القتل بأسا فقد قتلت فجعل الناس يثنون عليه، فقال: والله لو أن لي قلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من العذاب، وكان رأسه على فخذ ابنه، فقال: ضعه بالأرض، فقال: وما عليك كان على فخذي، أو الأرض وضعه، ويلي إن لم يرحمني ربي.

وقال له ابن عباس ﷺ: أبشر فإن الله مصر بك الأمصار ودفع النفاق، فقال: بالإدارة تثني علي يا ابن عباس، والله لوددت أن خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر، وقيل له: ألا تستخلف ولدك عبد الله؟ فقال: يكفي واحد من آل الخطاب يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، وقد جعلتها في الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ وصلى عليه صهيب بن سنان الرومي.

ودفن في حجرة عائشة -رضي الله عنها- بعد إذنها.

وكان نقش خاتمه كفى بالموت واعظًا يا عمر، وانكسفت لموته الشمس، وناحت عليه الجن قبل أن يقتل بثلاث، أظلمت المدينة بعد قتله، واهتزت له الأرض، جزاه الله خيرًا من إمام، وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق فمن يسع، أو يركب جناح بفاقة ليدرك ما قدمت بالأنس يسبق قضيت أمورًا، ثم غادرت بعدها بواثق في أكمامها لم تفتق وما كنت أخشي أن تكون وفاته بكفي شيء أخضر العين أرزق، قالت عائشة ﷺ: ولما مات نحل الناس سماء الشعر لشماخ بن ضرار ولأخيه، ورثته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمر ابن نفيل -رضي الله عنها- فقالت:

فَجَّعَنا فَيروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ بِأَبيَضَ يَتلو المُحكَماتِ مُنيبِ

رَؤوفٍ عَلى الأَدنى غَليظٍ عَلى العِدى أَخي ثِقَةٍ في النائِباتِ نَجيبِ

مَتى ما يَقُل لا يَكذِبُ القَولَ فِعلُهُ سَريعٍ إِلى الخَيراتِ غَيرَ قَطوبِ[1]

وكان له من الأولاد عبد الله، وحفصة، وعبيد الله، وعاصم، وفاطمة، وزيد، وأبو شحمة واسمه عبد الرحمن وهو الذي حد في الشراب فمات.

وأما حليته ﷺ على ما في «الرياض النضرة»[2] نقلاً عن ابن قتيبة أنه قال: الكوفيون يرون أنه آدم شديد الأدمة، وأهل الحجاز يرون أنه أبيض أمهق، وهو الذي يشبه لونه لون الجص لا يكون له دم ظاهر، وكان طوالاً أصلع أجلح، شديد حمرة العينين خفيف، قاله صاحب «الصفوة».

وقال أبو عمر: وكان كث اللحية أعسر يسر وذكر في لونه رواية الكوفيين.

وقال: هكذا وصفه زر بن حبيش وغيره وعليه الأكثر.

ووصفه أبو رجاء العطاردي وكان مفصلاً، قال: كان عمر طويلاً جسيمًا أصلع شديد الصلع أبيض شديد حمرة العينين في عارضيه خفة سبلته كثيرة الشعر وفيه أطرافها صهبة، والأول: أصح وأشهر.

وعن سماك بن حرب قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ أروح كأنه راكب والناس يمشون، كان من رجال «سدوس»؛ خرجه الحافظ السِّلفي وقال: والأروح هو الذي تتداني قدماه إذا مشى.

وقال الجوهري: هو الذي تتباعد صدور قدميه وتتداني قدماه وكل نعامة روحاء.

---

(1) الأبيات لعاتكة، ونسبت أيضًا لحسان بن ثابت كما في ديوانه.

(2) في (1/ 132).

وكان ﷺ يخضب بالحناء والكتم.

وخرج القاضي أبو بكر الضحاك عن ابن عمر أن عمر كان لا يغير شيبته، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا تغير وقد كان أبو بكر يغير؟ فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة وما أنا بمغير، وعنه وقد عرضت مولده له أن يصبغ لحيته، قال: ما أريد أن أطفئ نوري كما أطفأ فلان نوره، والصحيح: الأول، انتهى.

قال المناوي [1] -رحمه الله تعالى: وكان يأكل عام الرمادة، الزيت حتى اسْوَدَّ جلده بعد ما كان أبيض، وحرم على نفسه اللحم والسمن واللبن.

قلت: فصح كلام الكوفيون وأهل الحجاز، قال في «الصحاح»: ورمدت الغنم ترمد رمدًا أهلكت من برد أو سقيا وعنه عام الرمادة؛ لأنه هلك الناس وهلكت الأموال؛ وهي أعوام جدب تتابعت على الناس في أيام عمر بن الخطاب ﷺ أمالي عنه، انتهى.

ومن كلماته الجوامع التي أنوارها لوامع: مع قول الصفح عن الناس مكرمة وبكافأتهم على الذانوب إساءة، وقال: لم يعط عبد بعد الكفر شرًا من امرأة حديدة اللسان سيئة الخلق.

وقال: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استحق به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار، تدرون لم سمي المزاح مزاحًا؟ لأنه زاح عن الحق.

---

(1) في الكواكب الدرية (ص 147) بتحقيقنا.

وقال: لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح.

وقال: المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء.

وقال: الطمع فقر واليأس غنى والرجل إذا يئس من شيء استغنى عنه.

وقال: ما أبالي أصبحت على عسر أو على يسر؛ لأني لا أدري أيهما أخير.

وقال: أفلح من حفظ الطمع والغضب والهوى ونفسه.

وقال: إياك والبطن؛ فإنها ثقل في الحياة ونتن في الممات.

وقال: من أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه، فإنما أظهر نفاقًا على نفاق.

وقال: ما الخمر صرفًا أذهب لعقول الرجال من الطمع.

وقال: ما دبر مشيًا فأقبل، وقال: غمض عينيك واقلب عنها قلبك، وإياك أن تهلك كما أُهلك من كان قبلك.

وقال: إن لله عباد يميتون الباطل بهجره ويحيون الحق بذكره رغبوا فرهبوا.

وقال: احذر أن تكون من الذين يجهلون ما رزقهم في بطونهم وعلى ظهورهم، وقال: زنوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذٍ لا تخفى على الله منكم خافية.

وقال: اعتزل عدوك، واحترز من خليلك، ولا تصحب الفاجر، ولا تفشي سرك إليه، وقال: أكثروا من العيال؛ فإنكم لا تدرون بمن ترزقون.

وقال: من لم يعرف الشكر كان أجدر أن يقع فيه.

وقال: احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية فلهي أخوفهما عليك أن تستدرجك لتخدعك.

وكتب إلى ابنه: «أما بعد فإن من أتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه

جازاه، ومن شكره زاده، واعلم أن من لا عمل له لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له والسلام».

وقال: لا يعجبكم طنطنة الرجل؛ ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل.

وقال: السيد هو الجواد حين يسيل، والحليم حين يستجهل، والبار بمن يعاشره، ورأى رجلا يطأطئ رأسه، فقال: يا صاحب الرقبة أرفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما هو في القلب، ونظر إلى رجل مظهر للشكر متهاوت فخفقه بالدرة، وقال: لا تمن علينا ديننا أماتك الله.

وقال: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة، وقال: ما أصابني الله بمصيبة إلا الله علم فيها ثلاث نعم، **الواحدة**: حيث لم تكن في ديني، **الثانية**: حيث لم تكن أكبر منها، **الثالثة**: ما وعد الله من الثواب عليها.

واستأذنه رجل أن يعظ الناس فمنعه، فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ قال: أخش أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة.

وقال: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسلوا الله رزق يوم بيوم، وكتب إلى موسى الأشعري: «أما بعد....فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر».

وقال: «من خدعنا في الله انخدعنا له».

وقال: الدنيا أمل مخترم، وأجل منتقص، وبلاغٌ إلى دار غيرها، وسبيل إلى الموت فرحم الله امرءًا فكّر في أمره، ونصح لنفسه؛ فراقب ربه واستقال ذنبه.

وقال: عز الدنيا بالمال، وعز الآخرة بالأعمال.

وقال: حسن التودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم، وحسن التدبير نصف المعيشة.

وقال: إن الله تعالى كتم ثمانية أشياء في ثمانية أشياء: كتم الرضا في الطاعة، وكتم اسمه العظيم في القرآن، وكتم الغضب في المعصية، وكتم ليلة القدر في شهر رمضان، وكتم أولياؤه فيما بين الناس، وكتم الموت في العمر، وكتم الصلوات الوسطى في الصلوات الخمس، وكتم يوم القيامة في الأيام، وقال: من ترك فضول الكلام منح الحكمة، ومن ترك فضول النظر منح خشوع القلب، ومن ترك فضول الطعام منح لذة الطعام، ومن ترك الضحك منح الهيبة، ومن ترك المزاج منح البهاء، ومن ترك حب الدنيا منح حب الآخرة، ومن ترك حب الاشتغال لعيوب غيره منح الصلاح من عيوب نفسه، ومن ترك التجسس في كيفية الله تعالى منح البراءة من النفاق.

وقال: عشرة لا تصلح بغير عشرة: لا يصلح العقل بغير ورع، ولا الفضل بغير علم، ولا التقوى بغير خشية، ولا السلطان بغير رحمة، ولا الحب بغير أدب، ولا السرور بغير أصل، ولا الغنى بغير جود، ولا الفقر بغير قناعة، ولا الرفعة بغير تواضع، ولا الجهاد بغير توفيق.

وقال: كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كلما اشتهى، وكان يشتهي الشيء وثمنه درهم فيؤخره سنة، وكان إذا مر بمزبلة وقف عليها، وقال لصحبه هذه دنياكم التي تحرصون عليها: ولما ولي الخلافة كان لا ينام ليلاً ولا نهارًا، ويقول: إن نمت النهار ضيعت الرعية، وإن نمت الليل ضيعت نفسي، وكان يمر بالآية في ورده، فيبكي حتى يسقط.

وسمع قارئًا يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝﴾ [الطور: 7، 8]

فصاح صيحة خر مغشيًا عليه، فحمل إلى بيته فلم يزل مريضًا شهرًا بالحج أو العمرة، فقال له المصطفى ﷺ: «**لا تنسانا يا أخي من دعائك**»[1] وحج وهو خليفة فلم تضرب له خيمة ولا خباء حتى رجع.

ومن دعائه الوارد عنه بالسند الزائد المدد الثابت في «الجامع الكبير» للسيوطي: اللهم اعصمنا بحبك، وثبتنا على أمرك، وارزقنا من فضلك، ومنه: اللهم أني أعوذ بك أن تأخذني على غرة، أو تغمدني في غفلة، أو تجعلني من الغافلين، ومنه ما كان يقوله إذا أقام بالليل تذرني مقامي، وتعلم حاجتي فارجعني من عندك يا الله بحاجتي مفلحًا منجحًا مستجيبًا مستجابًا؛ قد غفرت لي ورحمتني، فإذا قضى صلاته قال: اللهم لا أرى شيئًا من الدنيا يدوم، ولا أدعو حالاً فيها يستقيم، اللهم اجعلني أنطق فيها بعلم، وأصمت فيها بحكم، اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى، ولا تقل منها فأنسى، وإن ما قل وكفى خير مما كثروا وألهى، ومنه: اللهم توفني مع الأبرار ولا تجعلني في الأشرار، وقني عذاب النار، وألحقني بالأخيار، ومنه: اللهم ارزقني قتلاً في سبيلك، ووفاة في بلد نبيك، ومنه: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في الشقاوة فامحني منها، وأثبتني في السعادة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

ولقد أمتن الحق تعالى عليَّ برؤيته منامًا، وذكرت ذلك آخر الفرق المؤذن بالطرب، ورأيته ﷺ مرة أخرى لم أضبط كيفيتها فتركت ها ذكرًا، وقلت في مدحه متطفلاً فعسى به أمسى متنفلاً:

وأصل صبوح يسره بعبوق ... وأنل فتوح مبرة لمشوق

(1) ذكره النووي في التهذيب (2/ 329).

فك الخيام وهاتها ساقي المدام بغير مزح مثل لمع بروقِ
وإذا سكرت فقيل لشأوي المنحني فمنى لنا وأسكب من الدورقِ
وأرفق بصب صب دمعًا قانيًا أنسي له مما سور من مطلوقِ
وجناب الغيب المغيب حاضرًا قدم عسى أحظى بحسن لحوقِ
وأعقل لدى حان الأمان زمامها وأطلق سراحي من منان شروقِ
وأفتق جيوب غيوب سرمد هي حسن بدري به المخطوب كل روقِ
وأنزل على ما الحياة لا تسقي كأسا به أمسي خليع دلوقي
فأجاب عن أمر المجيب لمطلبي ورعى الزمام مؤديًا لحقوقي
فولجت روضًا لا يكبن كفته فيه لقد انشقت طيب خلوقي
وتلذذت روحي هناك بلذة تسري كمسرى الدم ضمن عروقي
وتعشقت لمروم جنات زهت ضاقت وفاقت عن كروم وسوقي
وكرومه في وسعها ألفان عا مّا طوقت بالنور فوق الفوقِ
ورأيت قصرًا شاهقًا لا يرتقي نسماته موصوفة بحقوق
ينهي النهي عن وصفه فرط إليها والحسن إذ قد جل ذا عن طوقي
أرجاؤه ملحوظة أفناؤه محفوظة من طارق ملحوق
بائنة أتقنه وأحكم آسه فأقام من شوق لنائم سوقي
ووقعت في أكنافه مستطلعًا كمن الوصول إلى ذري العيوقي

فعلمت أن لدونه خرط القتا ... د يعز دركًا مثل بيض أنوق

فقطعت أحبال الرجاء إلا لزر ... زاق حبا الأرزاق للمرزوق

وإذا سريري قد دنا متدليًا ... فرقيته كالبرق حال طروق

وشهدت فيه عجائبًا وغرائبًا ... جلت وغبت بمسكه المفتوق

وصحوت بعد السكر في حاناته ... ونحوت غب الشوق للمعشوق

وإذا به البحر الخضم المرتقي ... من لقب المختار بالفاروق

عمر المعمر والمعمر غيره ... في حاله ما كان بالمسبوق

فدهشت من فرط فلاطفني فلم ... أجزع وهمت بقده الممشوق

وبياض وجه أشرقت من نوره ... شمس الكيان وبدره المرموق

وعليه ملت مقبلاً يده الشريفة ... ناشقًا منها غريب نشوق

ووقعت تلقاه وجهه متذللاً ... مستمسك في عهده الموثوق

ورأيت جمعًا من رفاقي ... يقتدون وصلت نعيره المخنوق

والله أن زماننا لزمان خير ... ذوقه ينسى لكل مذوق

إذ نلت رتبة بائعي فيه حيث ... صحبته والقوم دون عقوق

وطفقت أن لي لليمين مكررًا ... والوقت طاب بكأسه المدهوق

فإذا لم بك المضيق فلذ به ... وأفتح لباب توجه مغلوق

وأنزل بساحته أنح بركابه ... وأكرف روائح طيب قرب عبوق

فهو الإمام الأعظم المعروف بالـ ـمفروق في المصروف والمنفوق
مولًا تصرف في العناصر كلها وسما بمفهوم وبالمنطوق
من حبَّه حبَّ النبي وبُغضه بغضًا لطسه الصادق المصدوق
شهم بسه الإسلام أُيدَ والذي فتح البلاد بيأسه المفروق
يأتي المساجد والمعابد والمنابر والمنائر فخر كل شفوق
ومن الملوك تهاب سطوة عزمه طلق المحيا يوم ضرب السوق
عتق العبيد لمحض حسن صلاتهم طوبى له من عاتق معتوق
للَّـه درك دره في درة سحق الضلال كأثمد مسحوق
رضي الله عليك ما أن مصطفى الـ ـبكري يرجو منك فرط لصوق
ثم الصلاة مع السلام على الذي قد صار بين الحق والمخلوق
والآل والأصحاب ما جاد جدًا بعد النداء بجماله والنوق
والتابعين لهم ما صاح أمر وأصل صبوح مسرة بغبوق

(وَعُثْمَان) هو عثمان بن عفان ذو النورين أبو عمرو، ويقال له: أبو عبد الله، وأبو ليلى بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف، أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو صاحب الهجرتين، والمشتري للجنة مرتين في حفرة بئر رومة، وتجهيزه جيش العسرة، وأعتق نحو ألفين.

بويع بعد وفاة عمر ﷺ بثلاثة أيام يوم الجمعة غرة محرم، ومدة خلافته

إحدى عشرة سنة وإحدى عشرة شهرًا وثلاثة عشر يومًا، وقيل: شهرين وعشرين يومًا، أو نحو ذلك، وهو يومئذ صائم والمصحف بين يديه فتلوث بالدم واختلف في قاتله فقيل: لا يعرف، وقيل: الأسود النجشي من أهل مصر، وقيل: حبلة بن الأيهم من مصر، وقيل: سودان بن حمدان، وقيل: رومان اليماني، وقيل: خزيمة، وقيل: قتله اثنان، وقيل: غير ذلك.

وكان عمره على ما صححه النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» تسعين سنة، وقيل: مات في تيف وثمانين، وقيل: غير ذلك، واختلف فيمن صلى عليه فقيل: مطعم، وقيل: الزبير، وقيل: غير ذلك، ودفن في البقيع في حُش كوكب بالحاء المهملة والشين المعجمة وضم الحاء، وهو أجود من كسوها؛ ومعناه: البنيان، وكوكب اسم رجل من الأنصار.

قال عبد الله بن سلام: لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان بابًا لا ينغلق إلى قيام الساعة، وشاهده حديث: «**إنه سيفًا مغمودًا مادام عثمان بن عفان حيًا، فإذا قتل عثمان جرد ذلك السيف فلم يغمد إلى يوم القيامة**»[1].

وفي «المسامرات الأكبرية»: وكان عنده خاتم رسول الله ﷺ فلما سقط منه في البئر اتخذ خاتم من فضة نقش عليه «لتصبرن أو لتقدمن»، وقيل: نقش عليه «آمنت بالله الذي خلق فسوى».

كاتبه: مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وحاجبه: مولاه عمران بن أبان، قاضيه: كعب بن سودة، صاحب شرطته: عبد الله بن قنفذ التميمي.

---

(1) ذكره الذهبي في الميزان (5/ 339).

والذي حفظت من أولاد عثمان ﷺ عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر من رقية، وعمرو، وأبان، وخالد، وعمر وسعيد، والمغيرة، وأم سعيد، وأم أبان، وعائشة، وأم عمرو وغيرهم، انتهى.

وكان ينام بالمسجد وليس حوله أحد وهو خليفة، ويردف غلامه خلفه، ويخطب بإزار عدني غليظ ثمنه أربعة أو خمسة دراهم، ويطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت، ولم يمس ذكره منذ أسلم، وكان إذا مر بقبر بكى حتى تبتل لحيته، ونظر إلى قبر مرة فبكى وقال: هو آخر منازل الدنيا فمن شدد عليه فيه فما بعده أشد، ومن هون عليه فيه فما بعده أهون.

ومن كلماته الزاهرة التي معانيها لكل معانيها باهرة من دخل القبر بلا زاد كمن دخل البحر بلا سفينة، ومنها من ترك الدنيا أحبه الله، ومن ترك الذنوب حبته الملائكة، ومن حسم الطمع عن المسلمين أحبه المسلمون، ومنها: أن المؤمن في ستة أنواع من الخوف: **أحدها**: من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان، **والثاني**: من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة، **والثالث**: من قبل الشيطان أن يبطل عمله، **والرابع**: من قبل ملك الموت عليه السلام أن يأخذه في غفلة، **والخامس**: من قبل الدنيا أن يغتر بها فتشغله عن الآخرة، **والسادس**: من قبل الأهل والمال والولد أن يشتغل بهم فيشغلوه عن ذكر الله تعالى.

ومنها: أن لكل شيء آفة، وأن لكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين الطعام أوغاد الناس، وعاهة هذه الأمة عيابون طعانون يبدون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون طعام مثل: النعام يتبعون أول ناعق.

ومنها: ما ينزع الله بالسلطان أكثر مما ينزع بالقرآن، وقال: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله تعالى.

ومنها: الهدية من العامل إذا عزل مثلها منه إذا عمل.

ومنها: يكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك.

ومنها: خير العباد من عصم واعتصم بكتاب الله تعالى.

ومنها: خمس من علامات المتيقن: أولها: أن لا يجالس إلا من يصلح معه في الدين، ويغلب الفرح واللسان إذا أصابه شيء عظيم من الدنيا يراه في الدنيا بلاء، وإذا أصابه شيء قليل منها اغتم لذلك ولا يملئ بطنه من الحلال؛ خوفًا أن يخالطه شيء الحرام، ويرى الناس قد نجوا، ويرى نفسه قد هلكت.

ومنها: علامة العارفين ثمانية أشياء: قلبه من الخوف والرجاء، ولسانه مع الحمد والثناء، وعيناه مع الحياء والبكاء، وإرادته مع الترك والرضا؛ يعني: ترك رضا النفس، وطلب رضا مولاه.

ومنها: من حفظ على الصلوات الخمس لوقتها وداوم عليها؛ أكرمه الله تعالى بتسع كرامات: أولها: يحبه الله تعالى، ويكون بدنه صحيحًا، وتحرسه الملائكة، وتنزل البركة في داره، ويظهر على وجهه سيماء الصالحين، وينير الله تعالى قلبه، ويمر على الصراط كالبرق اللامع، وينجيه الله تعالى من النار، ويتركه الله تعالى في جوار الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومنها: أضيع الأشياء عشرة: عالم لا يسأل، وعلم لا يعمل به، ورأى صواب لا يقبل، وسلاح لا يعمل ولا يستعمل، ومسجد لا يصلي فيه، ومصحف لا يقرأ فيه، ومال لا ينفق منه، وخيل لها تركب، وعلم الزاهد في بطن من يريد الدنيا، وعمر طويل لا يتزود فيه لمعاد.

ومنها: قوله في معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:82]، الكنز: لوح من ذهب فيه سبعة أسطر مكتوب على أحدها عجبت لمن

عرف الدنيا وهو يرغب فيها، وعجبت لمن عرف الحساب وهو يجمع مالاً ولا يأكل، وعجبت لمن عرف النار وهو يذنب، وعجبت لمن عرف الجنة يقينًا وهو يستريح، وعجبت لمن عرف الله يقينًا وهو يذكر غيره.

وأما «حليته» على ما في «الرياض[1]» فقال فيه: كان ﷺ ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه بوجنتيه نكتات جدري أقني.

وقال البغوي: مشرف الأنف من أجمل الناس، رقيق البشرة، عظيم اللحية طويلها، أسمر اللون كثير الشعر، له جمة أسفل من أذنيه، ولكثرة شعر رأسه ولحيته كان أعداؤه يسمونه نعثلاً ضخم الكراديس بعيد ما بين المنكبين، وكان أصلع، وكان يصفر لحيته.

عن عبد الرحمن بن سعيد، قال: رأيت عثمان بن عفان على بغلة رسول الله ﷺ وهو يبني الزوراء، وقد صفر لحيته، خرجه أبي الضحاك.

وقيل: كان يخضب بالسواد، وقيل: ما خضب به قط؛ بل كان أبيض اللحية حكاها الخجندي، وكان وتد أسنانه بالذهب، وكان محبًا في قريش، وفيه قال قائلهم: حبك الرحمن حب قريش عثمان ذكر ذلك ابن قتيبة وأبو عمرو وصاحب الصفوة، وكان يقال له: اللين الرحيم ذكره الخجندي.

شرح نعثل: اسم رجل طويل اللحية كان ذا نبل من عثمان سمي بذلك، ونعثل أيضًا: اسم الذكر من الضباع.

وعن الحسن، وقد سئل عن صفة عثمان، فقال: كان خفيف الجسم عظيم الأرنبة شعر رأسه إلى أنصاف أذنيه؛ الضحاك، وروي أنه كان من أجمل الناس.

---

(1) في (1/ 200).

وعن أسامة قال: بعثني رسول الله ﷺ بصحفة فيها لحم إلى عثمان فدخلت عليه، فإذا هو جالس مع رقية ما رأيت زوجًا أحسن منهما، فجعلت مرة أنظر إلى عثمان، ومرة أنظر إلى رقية فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ قال: دخلت عليهما؟ قلت: نعم، قال: هل رأيت زوجًا أحسن منهما؟ قلت: لا، وقد جعلت مرة أنظر إلى رقية، ومرة أنظر إلى عثمان خرجه البغوي في معجمه والحافظ الدمشقي، انتهى.

وقد طال اللسان واستطال حتى أثنى علي سحاب فضله الهطال، فقال:

يا أهل حافي حسبكم أعياني ... يا من هم الأعيان من أعياني

يا سادة سأذكر بما شادوا من الـ ... ـحب المنيع فجل عن إيواني

يا ساكني خشاشية مسلوبة ... مسلوبة للاختيار كفاني

معمورة مغمورة بنداكم ... ملحوظة محفوظة الأركان

منهوبة موهوبة حالأسما ... مسرورة مبرورة الإيمان

مهدية مسرعية محمية ... مكفية للهم ليس تعاني

ديروا الكؤوس مثانياً ومثالثاً ... من خمرة عزمت على سمعان

وإذا سقيت شفيت من شرب الطلى ... ومتى فنيت فغسلوا جثماني

فلعله يبقى ويرقى للقاء ... إذ عاد بعد كثافة روحاني

ويطيب رياها المروح جهزوا ... وترى أُهيل مودتي أكفاني

والنعش وشوا بها ليطير في ... حال المسير إلي منبر معاني

وإذا التراب أهلتموا من فوق جيس ... من خمروه بفضله الأدنان

والعهد أن فيها حبيب حبيت إذ فتسقى القيان لدى العيان قناني
ونقض من دن القديم ختامها وتريق شمسًا في جنان جناني
ويمن من أهوى برفع براقع فأميل بل وأخر للأذقان
ولدى قباب النور أمنح قبة تسمو أقل ما بعد عبادان
قد انبعث بعجائب لا تنتهي مذ انبعت بغرائب العرفان
فيها أغبت عن الوجود من الشهو د وفيضه الممدود والهتان
ويلوح لي نور على بعد الحمى يشفي الظمأ ينفي نماء الأحزان
ويفوح عطر عنبري شمسه يدني البعيد إلى القريب الداني
وإليه ينجذب الفؤاد بمرة وبذاك نخلص من يد الحدثان
ويخص فيه بنفحه ربية فيرى قصور النور غير بذاتي
ويطل من شباكه من حسنه يسبي ويربي لوعة الأشجاني
ولدي الوصول على الوصول سألت من هذا فضل الأوحد الرباني
السيد الستد الإمام المرتضى عثمان ذو النورين والإيمان
من تستحي منه ملائكة السماء وهو الولي طلحا الأكوان
ورفيقه في جنة قد زخرفت وهو الإفان وجامع القرآن
وهو الشهيد يجيء ينجب دمه يوم الجزاء محكمًا في الجاني
من تستضيء به الجنان إذا مشى فيها يشرف للمكان الثاني

وهـو الـذي للجيش جهز وابتاع الـ ـبئـر المنـير فحـاز للغفـران

وهـو الـذي بيمينه الـثاني النبـي يـنوب عـنه ببـيعة الرضـوان

وعلـيه أمـلاك السماء يـوم المـمات كـما أتـى صـلت بـلا نكـراني

وبفـضل مـن أهـوى مـنحت مـؤمل وشـهدت أحـيانًا رفـيع الـشاني

مـولى لقـد عـم الوجـود ضـياءه لمـا كـسي مـن نـوره الـسبحاني

ولـه سـعت روحـي بـدون توقـف ولديـه قمـت بدهـشة الحـيراني

فدعـي لـنحو جـنانه وأباحنـي نظـرًا إلـيه ومـنه أدنـاني

وعـليّ أخلـع خلعـة مـرموقة نجـوان وفـواتح القـرآن

وعدائـنا متـى فهمـت بقـوله لمـا فهمـت لمـا بـه حابـاني

ودنـا وقـال لـك الهـنا يـا مـصطفى حـيث اصـطفيت لآخـر الأزمـاني

فحمـدت ربي عـز وجـل ثـناءه إذ عمنـي بجوائـز الإحـسان

فـإذا الحـوادث قـد ألمـت بـأن عـثمان يـا بحـر الـصفا يـا بـر يـا واسع الميداني

يـا واحـد الإعـصار يـا قطـب الـوفاء يـا فـاتح الأمـصار والـبلدان

يـا نـور نـور الـنور يـما كنـز ارتقـى يـا نـور سر الـسر والإعـلان

يـا كهـف مـن لاذ فـيه ليحتمـي مـن حـرقة الأبعـاد والهجـران

يـما شـافعًا فـيما يـنوف عـن ألـوف ليخلـصوا مـن حـدة النـيران

يـا صـاحب الحـوري في تفاحـة تـسبيحها يغنـي عـن الألحـان

مخلوقة من نور عرش الهناء ما شأن مرباها المقدس شأني
كن شافعي ومالك وبأحمد المحمود والنعمان
وسل الإله يمن لي بالمرتجى فعسى الحنان يوم من حنان
ويفك مقصودي قيودي كلها تزول لبسي حيث أمسي داني
وأرى وأسمع كل ما ستر الهوى من كل سر لم يلح لعياني
ولي الضواحي تنجلي من خدرها وتعيدني سر الطيف معاني
وحقائقي تبدو لعيني جهرة فأنال كل مسرة وتهاني
ثم الصلاة مع السلام على الذي منه تسح سحائب الرضوان
والآل والأصحاب ما سار سري نحو الحمى فاشتم عرف البان
أو ما بمدحه سيدي عثمان ذا النـ ـنورين شرف من أحب لساني
رضي المهيمن عنه ما جاد الحياء أو ما الحياء يقوم بالإنسان
أو مصطفى البكري أمل قربه فحظي بقرب دائم منصان

(وَعَلِيّ) هو علي بن أبي طالب، واسمه عبد مناف بن عبد المطلب جد النبي ﷺ، ويقال له: شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهو رابع الخلفاء، ولا ينبغي خلافه، وهم في الأفضلية على ترتيب الخلافة والإجماع قطعي في خلافة الشيخين ظني في المحبتين.

قال الشيخ الأكبر -رضي الله تعالى عنه- في «مسامراته»: بويع يوم قتل

عثمان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وقيل: في شهر رمضان لسبعة عشر ليلة خلت منه سنة أربعين، وقد بلغ سبعة وخمسين سنة، وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر نقش خاتمه ربي الله مخلصًا، كاتبه: سعيد بن نجران الهمداني، وعبد الله بن أبي رافع، وقاضيه: شريح بن حارث، وحاجبه: قنبر بن يزيد مولاه، وصلى عليه الحسن، انتهى.

ولد ﷺ بمكة المشرفة في البيت الحرام في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر الله الأصب سنة ثلاثين من عام الفيل، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة وقبل المبعث باثني عشر سنة، وقيل: بعشر سنين، ولم يولد في البيت أحد قبله سواه وهي فضيلة خصه الله تعالى بها، وهو ﷺ هاشمي من هاشمين، وأول من ولده هاشم؛ نقله علي بن محمد الصفاقسي في «الفصول المهمة في فضائل الأئمة».

وقال في «مفتاح الجفر»: ثم الإمام علي ﷺ ورث علم الحروف من سيدنا عمر من سيدنا محمد ﷺ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**أنا مدينة العلم، وعلي بابها فمن أراد المدينة فعليه بالباب**»[1]، وهو -كرم الله وجهه- آخر الخلفاء كما كان النبي ﷺ آخر الأنبياء، وقد ورث علم الأولين والآخرين، وما رأيت فيمن اجتمعت بهم أعلم منه، وقد أظهر أحكام اللفظ بقوله الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمضاف إليه مجرور، وقد تكلم بالطالع الغارب والوتد والمتوسط.

وقال: الكيمياء أخت النبوة ورأس الفتوة وعصمة المروة.

وقال -كرم الله وجهه ورضي عنه-: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والهندسة للبنيان، والنجوم للأزمان.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (3/ 137).

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: أعطي الإمام علي -كرم الله وجهه- تسعة أعشار العلم، وأنه لا علم بالعشر الباقي، وهو أول من وضع مربع مائة في الإسلام، وقد ألف «الجفر الجامع في أسرار الحروف» وفيه ما جرى للأولين وما يجري للآخرين، وفيه اسم الله الأعظم، وتاج آدم، وخاتم سليمان وحجاب أصفياء، انتهى.

وروي عن الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: ما جاء لأحد من الفضل ما جاء لعلي ﷺ.

وقال غيره: لم يرد في حق أحد من الصحابة الأحاديث الحسان أكثر ما ورد في حق علي -كرم الله وجهه- وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: نزلت في علي ثلاثمائة آية، وكان عمر ﷺ يتعوذ من مفضلة ليس فيها أبو الحسن، وكان يقول: والله ما شككت في قضاء بين اثنين.

وقال: والله ما آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، إن ربي وهب قلبًا عقولاً ولسانًا سؤلا، وقال: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس آية إلا وقد وعرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم جبل، وأما كلماته التي سبق فيها السياق في مضمار السباق فقد أفردت بالتأليف، وأفرزت بالترصيف، ومن عيون تلك العيون الأماني تعمى أعين البصائر.

وقال: لو حننتم حنين الوالد الثكلان وجاورتم جوار الرهبان، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم في طلب القرب من الله، وابتغاء رضوانه، ورفع درجة أو غفر سيئة كان قليلاً، وقال: من أسد الأعمال مواساة إلا في المال.

وقال: أعظم الذنوب ما استخف به صاحبه، وقال: مال ابن آدم والفخر أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه.

وقال: إذا أقبلت الدنيا فانفق منها فإنها لا تفني، وإذا أدبرت فانفق منها فإنها لا

تبقى، وقيل له ما بال العقلاء ففر إقفال عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

وقال: اتق الله بعض التقى وإن قل، واجعل بينك وبين الحرام سترًا وإن رق، واتق المعاصي في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم.

وقال: القناعة سيف لا ينبو، والصبر مطية لا تكبو، وأفضل عدة صبر عند شدة، وقال: القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من بعدته العداوة وإن قرب نسبه، ولا شيء أقرب من يد إلى جسد؛ فإذا فسدت قطعت وحسمت.

وجاءه يهودي، فقال: متى كان ربنا؟ فقال: لم يكن فكان هو ولا كينونة كان بلا كيف كان ليس له قبل، ولا غاية انقطعت الغايات دونه فهو غاية كل غاية فأسلم.

وقال: أوحى الله إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام- مر بني إسرائيل ألا يدخلوا بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة وأيد نقية فإني لا استجيب لأحد منهم عنده مظلمة.

قال: من جمع ستة خصال لم يدع للجنة مطلبًا ولا عن النار مهربًا، أولها: عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الآخرة فطلبها، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه.

وقال أيضًا: النعيم سنة الإسلام، والقرآن، ومحمد ﷺ، والعافية، والستر، والغنى عن الناس، ومن كان في طلب العلم كانت الجنة في طلبه، ومن كان في طلب المعصية كانت النار في طلبه، وحكمه التي فاق بها من فاق مشهورة في الآفاق، وما نسب إليه من النظام فكثير دائر بين الأنام.

وكان يقول في خطبته على رؤوس الأشهاد على ما نقله المناوي في «كواكبه» الجامعة للأفراد: أنا نقطة الباء، أنا جنب الله التي فرطتم فيه، أنا القلم، أنا اللوح، أنا العرش، أنا الكرسي، أنا السموات السبع، أنا الأرضون السبع؛ فإذا صحا وارتفع عنه التجلي شرع

يعتذر، ويقر بالعبودية، وضعفه، وانقهاره تحت الأحكام الإلهية، انتهى[1].

ومن دعائه على ما نقله عاصم بن ضمرة إنه كان يقول: يا ربنا وجهك أكرم الوجوه، وجاهك خير الجاه، ومنه بـ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم:1] اغفر لي.

وروى ابن النجار عن زر بن حبيش قال: قرأت القرآن من أوله إلى آخره على علي بن أبي طالب فلما بلغت الحواميم قال: قد بلغت عرائس القرآن فلما داس اثنتي وعشرين آية من خمس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَٰتِ ٱلۡجَنَّٰتِۖ ﴾ [الشورى:22] بكي حتى ارتفع نحيبه، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب آمن على دعائي، ثم قال: اللهم أني أسألك جنات المخبتين، وإخلاص الموقنين، ومرافقة الأبرار، واستحقاق حقائق الإيمان، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، ووجوب رحمتك، وعزائم مغفرتك، والفوز بالجنة، والنجاة من النار بأزر؛ إذا ختمت فادع بهذه فإن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن أدع بهن عند ختم القرآن.

وفي الحديث: «**يا علي إذا أحزنك أمر فقل: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك فلا أهلك وأنت رجائي كم من نعمة أنعمت بها عليَّ قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليني بها قل لك عندها صبري، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرصني، ويا من قل عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدًا، ويا ذا النعماء التي لا تحصى أبدًا، أسألك أن تصلي على محمد، وعلى آل محمد، وبك أدرأ في نحور الأعداء والجبابرة**»[2] رواه النسائي عنه.

وفي الحديث أيضًا: «**يا علي إذا وقعت في ورطة فقل: بسم الله الرحمن الرحيم لا**

(1) انظر: الكواكب الدرية (ص 167)، بتحقيقنا.

(2) رواه البيهقي في الشعب (4/ 140)، وذكره الهندي في الكنز (2/ 124).

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فإن الله يصرف بها ما يشاء من أتيك البلاء»[1] رواه الديلمي عنه.

وروي عنه ﷺ: «**يا ابن أبي طالب أراك حزينًا فمر بعض أهلك يؤذن في أذنك، فإنه دواء للهم**»[2] رواه الديلمي عنه، كذا في «الجامع الكبير».

وأما حليته الكريمة وسماته الجسيمة فكان ﷺ ربعة من الرجال أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر عظيم البطن، وعن أبي سعيد التيمي أنه قال: كنا نبيع الثياب على عواتقنا ونحن غلمان في السوق، فإذا رأينا عليًا قد أقبل علينا قلنا: بُزُرك شكم، قال: على ما تقولون، قال: بقول عظيم البطن، قال: أجل أعلاه العلم وأسفله طعام، وكان ﷺ عريض المنكبين لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري لا يبين عضده من ساعده قد أدمج إدماجًا شثن الكفين عظيم الكراديس عند كأن عنقه إبريق فضة أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه.

وعن أبي لبيد قال: رأيت علي بن أبي طالب يتوضأ فحسر العمامة عن رأسه فرأيت رأسه مثل راحتي عليه مثل خط الأصابع من الشعر خرجه ابن الضحاك.

وعن قيس بن عباد قال: قدمت المدينة أطلب العلم فرأيت رجلاً عليه بردان له ضفيرتان، وقد وضع يده على عاتق عمر فقلت من هذا؟ قالوا: علي؛ خرجه ابن الضحاك أيضًا، ولا تضاد بينهما، ويكون الشعر انحسر عن وسط رأسه، وكان في جوانبه شعر مسترسل جمع فضفر باثنتين، وكان كثير شعر اللحية، والمشهور: أنه أبيضها، ويشبه أن يكون خضب مرة ثم ترك، وعن الشعبي أنه قال: رأيت علي بن أبي طالب ورأسه ولحيته قطنه بيضاء خرجه ابن الضحاك، وكان إذا مشى تكفى، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك

(1) رواه الديلمي في الفردوس (5/ 324).

(2) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (2/ 657).

بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، وهو إلى السمن أقرب، شديد الساعد واليد، وإذا مشى إلى الحرب هرول ثبت الجنان، قوي ما صارع أحدًا قط إلا صرعه، شجاع منصور على من لاقاه، انتهى.

من «الرياض النضرة» وقد منّ الله علي برؤيته مرتين، أو أكثر جعلني الله من إمداده الأعز.

وقلت له: يا سيدي أن لي بك نسبة؟ فقال: نعم، وأظهر عطفًا ومحبة، ولقد جرى على اللسان مدحه في أبيات حسان أوردتها في الرحلة العراقية، وأحببت سردها هنا لمناسبة فيه وهي:

شددنا رحال السير نحو الحبايب ... فلاحت لنا نار القرى والحاجب

وهبت علينا نسمة علوية ... أزاحت عن القلب الستور وقالب

وفكت قيود الأين والبين وانطوى ... بساط النوى وامتد فيض المواهب

وشقت جيوبًا من غيوب سرائر ... وأدنت بعيدًا نحو كنز المطالب

وقد بهرت حسنًا مبادئ ظهورها ... فكيف لدي الغايات تقوى عصائب

وما زال شوقي قائدي نحو قربهم ... وجدي نديمي والتياعي مصاحب

غرامي غريمي في الهوى ومحبتي ... فذا محنتي تبدي لصافي المشارب

وركب الهوى تجديه ليلاً حدائه ... وفي معزل أضحت جميع الأجانب

وأعناقها مدت نياق صبابة ... لا تراب بسيط عم ترب الترائب

وطابت بمسراها نفوس نفيسة ... لقد جمعت حسني جميل المثاقب

وأغرقهم بحر من النور طامس ... وطم بساط النور وجه السباسب

وقد خلعوا الكونين من سر سرهم يخلع نعال بين تلك الهضائب
فهاجت قلوب منهم ببوارق وسحت عيون القوم مثل السحائب
ولم يستفيقوا من منام حضورهم إلى أن بدت أطواد عالي الكثائب
وجاءهم البواب يدعو لحضرة مفتحة الأبواب من كل جانب
ومذ دخلوها غيبوا عن وجودهم بحاضر سر غاب عن كل غائب
وفوق منصات التقرب أجلسوا وقد بلغوا ما أملوا من مآرب
وناموا على فرش العناية نومة العـ ـروس ففاقوا جل أهل المراتب
وساروا على نحب الغيوب لمشهد ألو حرب ففاض الكون على أمر واهب
وقد عقلوها في مربع مرابع فقدسه الأكناف عن كل شائب
وفي شط يم الوصل شط الجفاء وقد أتت سفن تجري كجري الكواكب
وفيها إلى بر المبرة أركبوا فأنعم بمركوب وأنعم براكب
ملوك علت فوق الأسرة إذ غلت مطالبهم بأحسن تلك المطالب
ولم يفتحوا فيها شراعًا لأنها تسير كلمح البرق لا كالمراكب
وحطوا مراسيهم لدى باب حطة الـ أماني وقالوا حطة قول راغب
وأتوا ربوعًا قد زينا نورها عليها حجاب دون حجب وحاجب
وبه كشفوا عنه ثلاثتهم ذواتهم برؤية بحر النور بر العجائب
فأفنوا به عنهم وأبقوا بنور من سنا نوره يجلي ليالي الغياهب

علي دنو بل على مقاعد حبيب على وارث علم عاقب
إمام علا هام العلا قدره علا هنيئًا مريئًا يا بني آل طالب
أخو المصطفى حقا ومولى الورى بلا نزاع وأقضى الخلق قطب الغرائب
وأفضل آل البيت حلما وحامل لواء الحمد في يوم ازدحام المناكب
ومن معه القرآن لن يتفرقا ليوم ورود الحوض بين المواكب
وصي رسول الله والقاضي دينه ومن حبه يهدى لأسنى المذاهب
مدينة علم المقتفي بابها غدا وعدة من يهوي له في العواقب
وفي خيبر أبدي غريب عزائم لها فجر حال صادق غير كاذب
أيا من تجنيه الذي مَنَّ المنى وأحلى لدينا من وصال الكواعب
ومن سنه الضحاك من تحت قسطل إذا اهتز في الميدان سمر القواضب
لمشهدك المشهود أملت ذروة وقد عاقت الأقدار والذنب حاجب
فكن لي شفيعًا بالقبول لاحتظي بطيبة أمالي وأقضي مطالب
عليك رضا الله في كل ساعة مدى الدهر ما لاح نجا من مخاطب
وما مصطفى البكري يرجو شفاعة تقربه من فخر أبناء غالب
عليه صلاة الله ثم سلامه كذا الآل والأصحاب خير الأطايب
وأتباعه من كل قدم مقدم أسال نفوس الأسد فوق الثعالب
وأتباع أتباع وأهل وشيعة نجوم علوم نورها غير غارب

وكناه المصطفى ﷺ: أبا تراب.

روى الطبراني عن أبي الطفيل قال: جاء النبي ﷺ وعلي نائم فقال: «إن أحق أسمائك أبا تراب»[1] ومما يكتب ويعلق للرمد قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 93] ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

وهذان البيتان:

إذا ما مقلتي رمدت فكحلي ... تراب حسن نعل أبي تراب

هو البكاء في المحراب ليلاً ... هو الطعان في يوم الضراب

وله من الأولاد تسع وثلاثون، الحسن، والحسين، ومحمد، وعمر الأكبر، والعباس الأكبر، وهؤلاء أعقبوا، ومحسن، ورح سقطًا، وعمر الأصغر، وعثمان الأصغر، وعبد الله الأصغر، وعبد الله أبو علي، وأبو بكر عتيق، وعبد الرحمن، وحمزة، ويحيى، وعون، وزينب الكبرى، وزينب الصغرى، وآية الله جمانة، ورملة، وأم سلمة، وأم الحسين، وأم الكرام نفيسة، وميمونة، وخديجة، وإمامة، كذا في شرح «الزهر البسام» فيما حوته عمدة الأحكام للشيخ محمد بن عبد البرماوي.

(وَعَن سَائِرِ) أي: جميع، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في شرح الأربعين: باقي من السور بالهمز بقية نحو الماء، ويأتي خلافًا للحريري بمعنى الجميع من سور المدينة؛ لأنه جامع محيط بها، (أَصْحَابِ) جمع صاحب، ومضى الكلام عليه (رَسُولِ اللهِ) ﷺ.

(أَجْمَعِينَ) توكيد ثاني، و(وَالتَّابِعِينَ): جمع تابع، وسلف الكلام على تعريفه (لَهم) أي: للأصحاب (بِإِحْسَانٍ) أي: دمه وبشريطته؛ وهو قيد في التابعين (إِلَى يَومِ

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (1/ 237).

الدِّين) أي: الجزاء.

قال المصنف:

[احشُرنَا وَارحمنَا مَعَهُم بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَم الرَّاحِمِين يَا الله يَا حَي يَا قَيوم لَا إِله إِلا أَنت يَا الله يَا رَبَّنَا يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرةِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ اللَّهُمَّ آمِينَ].

قال الشارح: (احشُرنَا) أي: أجمعنا واجعلنا محشورين يوم القيامة في زمرتهم.

قال في تهذيب «الصحاح»: حشر الأمير الجند يحشرهم، ويحشرهم حشرًا: جمعهم، ومنه يوم الحشر، والمحشر بكسر الشين: موضع الحشر... إلى آخره.

(وَارحمنَا) برحمتك الخاصة بهم لا تفارقهم (مَعَهُم) أي: ارحمنا بالرحمة التي رحمتهم بها؛ لنفوز بالاجتماع بهم غدًا، ونشاركهم في الرحمة الخاصة أبدًا؛ إذ حشرهم ليس كحشر غيرهم.

(بِرَحْمَتِكَ) أي: بسر رحمتك التي وسعت كل شيء (يَا أَرْحَم الرَّاحِمِين)، قال شارح «الدلائل»: قال الشيخ أبو بكر بن العربي -رحمه الله تعالى: وارحم اسم تفضيل، وصف الله تعالى، والراحمون جمع راحم، والرحمة جميعها منه تعالى، وإنما يوصف غيره بالرحمة يجعله هو له ذلك فباعتبار نسبة الرحمة المجعولة فيهم لهم، قيل لهم راحمون، وليست لهم رحمة من قبل أنفسهم، وهي رحمة منه ظهرت فيهم، فنسبت إليهم، فلما نسبت إليهم صح لهم الوصف حتى اعتد به موقعًا للتفضيل عليه في الاسم الكريم، انتهى.

وفي الحديث: «**إن لله ملكًا موكلاً بمن يقول: يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاثًا قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك**»[1].

فصل (يَا الله يَا حَي يَا قَيوم) وفي الحديث: «**كان إذا أهمه الأمر رفع طرفه إلى السماء،**

(1) رواه الحاكم في المستدرك (1/ 728).

وقال: سبحان الله العظيم، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا الله»[1].

وفي الحديث كان لا يقوم من مجلس إلا قال: «سبحانك اللهم ربي، وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وقال: لا يقولهن أحد حيث يقوم من مجلسه؛ إلا غفر له ما كان منه في ذلك المجلس»[2].

(يَا رَبَّنَا) وفي الحديث: «إذا قال العبد: يا رب.. يا رب، قال الله: لبيك يا عبدي سل تعط»[3].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما: اسم الله الأكبر رب (يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ) أي: يا من مغفرته واسعة؛ لأنها البحر المحيط الذي لا يسمع لموجه غطيط، فنسبة الذنوب والعيوب لمغفرة علام الغيوب لا تقاس بذرة من بر ولا بنقطة من بحر، وفي الحديث: «قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي»[4].

وعنه ﷺ: «أن جبريل جاء في أحسن صورة لم ينزل في مثلها قط ضاحكًا مستبشرًا فقال: السلام عليك يا محمد، فقلت: وعليك السلام يا جبريل، قال: إن الله ﷻ بعثني إليك بهدية، قلت: وما تلك الهدية يا جبريل؟ قال: كلمات من كنوز العرش أكرمك الله تعالى بهن، قال: قل يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، يا من لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، يا منتهى كل شكوى، يا كريم الصفح، يا عظيم المن، يا مبتدئ النعم قبل استحقاقها، يا ربنا، يا سيدنا، ويا مولانا، ويا غاية رغبتنا، أسألك يا الله أن لا تشوه خلقي

(1) رواه الترمذي في السنن (5/ 459).

(2) ذكره المناوي في فيض القدير (5/ 188).

(3) ذكره المناوي في فيض القدير (7/ 158).

(4) رواه الحاكم في المستدرك (1/ 728).

بالنار، قلت: فما ثواب هذه الكلمات»[1] رواه الحاكم عن ابن عمر.

وتعقب (يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ) جاءني الخبر عن السيد المبين: «ألحّ رجل بيا أرحم الراحمين فنودي: إني قد سمعتك، فما حاجتك؟»[2]. رواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي هريرة ﷺ.

(اللَّهُمَّ) أي: يا الله (آمِينَ) آمنا بخيركم يذكر التالي الله سبحانه حتى إلى أن يطلع الفجر الصادق، ففي الحديث: «الفجر فجران: فجر يحرم فيه الطعام ويحل فيه الصلاة، وفجر يحرم فيه الصلاة ويحل فيه الطعام»[3] رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس.

وفي رواية: «الفجر فجران؛ فأما الفجر الذي يكون كذنب السرحان فلا تحل الصلاة ولا يحرم الطعام، وأما الذي يذهب مستطيرًا في الأفق؛ فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام»[4] رواه الحاكم والبيهقي عن جابر.

ويختم الذكر بخاتمين، ويضم لكل واحدة ما تيسر من دعوات، ويجعل أحدهما للمصنف؛ أي: يهدي ثوابها مع ما انضم إليها لمغشي الورد، والثانية: يهديها لأهل الطريق؛ أي: طريق السادة الصوفية ويخص بالذكر الفرقة الخلوتية التي يشرب المؤلف بكأسهم، وطرب بتقريبهم وإيناسهم، ويقوم بعد ذلك إلى الصلاة؛ يفوز بكامل الصلات.

وكان الفراغ من نسخة هذا الشرح النفيس عصر يوم الجمعة في آخر شهر جمادى أول سنة 1234 على يد كاتبه أفقر العباد إلى الله تعالى عبد الرحمن يحيى العلمي.

عفا الله عنه وسائر المسلمين آمين.

ولمالكه هو الشيخ محمد حسني غفر الله له ولجميع المسلمين آمين.

❁❁❁

(1) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (1/ 281).

(2) رواه الديلمي في الفردوس (1/ 421).

(3) رواه البيهقي في الكبرى (1/ 457)، والحاكم في المستدرك (1/ 304).

(4) تقدم تخريجه.

فهرس المحتويات

(حَرف الصَّاد) 3
(حَرف الضَّاد) 11
(حرف الطاء) 15
(حرف الظاء) 19
(حرف العين) 21
باب العين 30
(حرف الغين) 39
(حرف الفاء) 50
(حرف القاف) 53
(حرف الكاف) 56
(حرف اللام) 59
(حرف الميم) 73
(حرف النون) 90

(حرف الهاء) 107

(حرف الواو)..... 113

(حرف اللام ألف)..... 119

(حرف الياء) 122

القَصِيدَة المِيمِيَّة لِلْمُؤَلِف..... 214

شرح المنبهجة 359

خاتمة ورد السحر 486

فهرس المحتويات 543

الضّياءُ الشّمسيّ على الفَتح القدسيّ

شرح وِرد السَّحر للبكري ٢

هذا الكتاب

بين يديك أيها المشتاق لعلوم أهل الفضل والإحسان، كتابٌ ترقّبه كل صوفي عارف وكل طالب علم غارف، وهو الضياء الشمسي شرح الفتح القدسي المعروف بورد السَّحر للبكري، وقد صنفه وشرحه الأستاذ قطب الأقطاب بحر العلوم سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري.

وقد قام المحقّق بالضبط والتحقيق، والتعليق والتخريج والعزو للبعض والتوثيق، وما هو منه إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الأعتاب، وطمعًا في ورثة أولي الألباب.

علمًا بأنه وجد صعوبات كثيرة في الحصول على النسخة المخطوطة وفيها ما فيها من الإشكالات التي منَّ الله عليه بحلها قدر المستطاع، فإن الكتاب مشحونٌ بالشواهد الشعرية، والرموز والاصطلاحات الصوفية؛ ومن المعلوم أنّ أكثر كتب الشيخ البكري كمسودة لم تبيض، لا سيما ما كتبه أثناء الرحلات، وفيها الكثير من الإشكالات لا سيما في الشعر، ولكن المحقّق اجتهد ومن صاحب الكتاب استمدّ، فكان الإخراج كما ترى وهذا فضلٌ من الله ومدد من نبي الهدى خير الورى صلى الله عليه وسلم.

ISBN-13: 978-2-7451-5994-6
90000
9 782745 159946
كتاب - ناشرون
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان
tel: +96176 944855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com
BOOKS - PUBLISHER